التاريخ الأسود للكنيسة

بقلم: القس دى روزا

الترجمة من الألمانية: آسر حطيبة

القس اللاهوتى دى روزا ينقلنا الى داخل أسوار الفاتيكان

ويكشف الستار عن أزمة الكنيسة الحقيقية !!؟



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

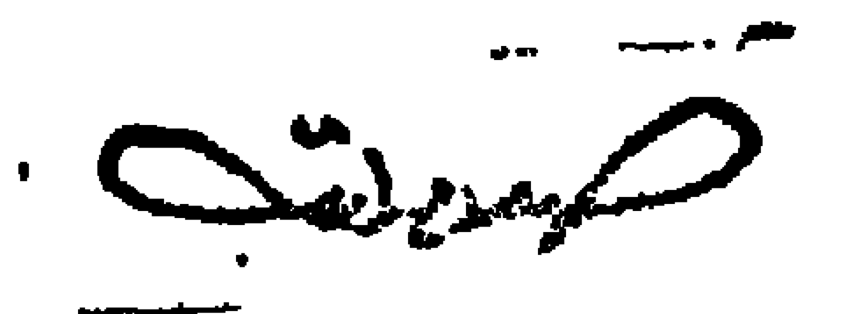
﴿ إذ قالت إمرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم. فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى. وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾

سورة آل عمران الآية: ٣٤ – ٣٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله. وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن. وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه. وكان الله عزيزا حكيما ﴾

سورة النساء الآية: ١٥٧.

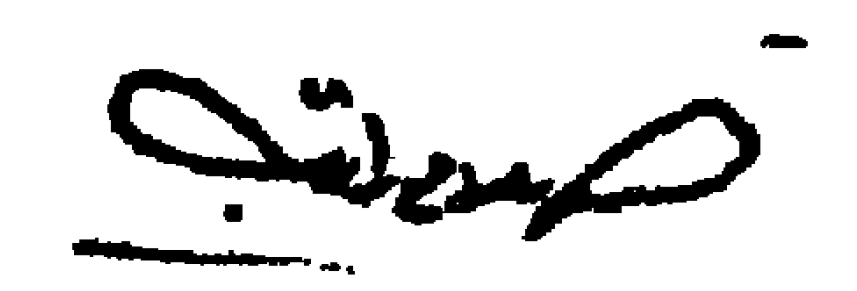


اهداءات ٢٠٠١
ا.صلاح راتب
القاهرة

التاريخ الأسود للكنيسة

بقلم القس : دى روزا
المحاضر اللاهوتى فى روما
أهم الجامعات البابوية

ترجمة من الألمانية
آسر حطيبة



التاريخ الأسود للكنيسة

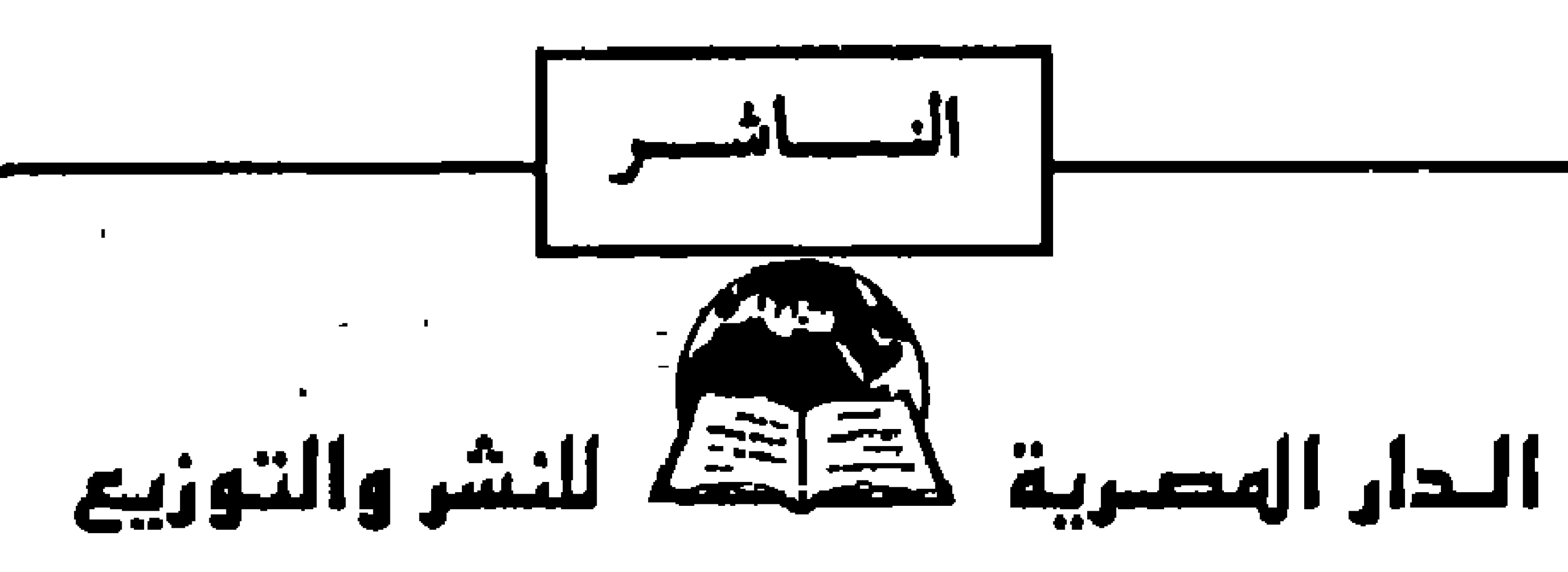
ترجمة حرفية من الألمانية الى العربية

التاريخ الأسود للكنيسة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ / ١٩٩٤ م

الناشر



Al dar al - masria publishing & distribution house ltd
Acropolis , P .O . Box 8559 - Fax (003572) 312983
Nicosia - Cyprus

الوكيل في مصر
الدار المصرية للنشر والإعلام
ص . ب ١٢٩ هيليوبوليس القاهرة
ت وفاكس ٢٦١٥٧٤٤ (٢٠٢)
ت : ٤٠١٩١٤٧ (٢٠٢)

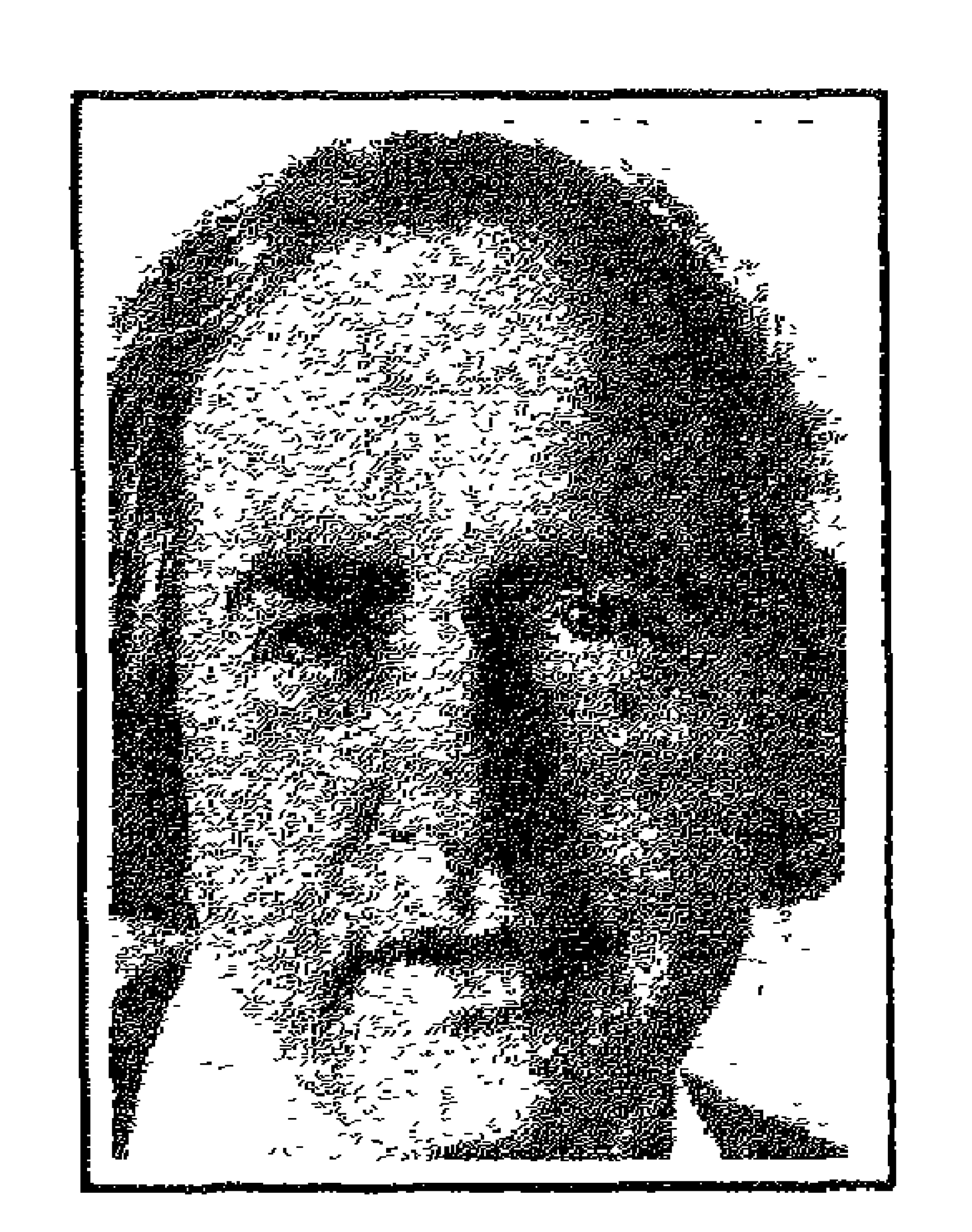
التاريخ الأسود للكنيسة

التاريخ الأسود للكنيسة

ترجمة حرفية من الألمانية لكتاب :

«خدام الرب الأوائل»

الصفحة المظلمة للبابوية



القس دى روزا

القس اللاهوتى
دى روزا

* أكمل دراسته اللاهوتية فى روما باعتبارها أهم الجامعات البابوية.
* عمل استاذا لمادة علم الأخلاق فى جامعة ويستمنستر.
* عمل محاضراً لمادة علم اللاهوت فى كلية كوربوس كريستين.
* اعتزل العمل اللاهوتى الكنائسى عام ١٩٧٠ وتزوج ويعيش فى ايرلندا مع زوجته وأبنائه.

ولماذا... هذا الكتاب ؟

استغرق الإعداد لترجمة هذا الكتاب من الألمانية إلى العربية ثلاثة أعوام كاملة... استطاعت فيها دارنا أن تساير دور النشر الأجنبية المتقدمة في أن تقدم للقارىء الناطق بالعربية مادة تاريخية اجتماعية هامة عن أحلك عصور أوروبا ظلاماً، المليئة بالقتل والدم والعهر وبيع صكوك الغفران. تاريخ يعج بالنساء وسوء استخدام السلطة.

ومؤلفنا كاتب هذا الكتاب الهام هو القسيس بيتر دي روزا واحد من أشهر قساوسة الفاتيكان تمكن بمصداقية نزيهة أن يتناول كل الأسرار المقرونة بسوء استخدام سلطة البابوية داخل الكنائس.

(واقتصر دور دارنا) على ترجمة هذا العمل ترجمة دقيقة وأمينة إيمانا منا... أن هذه الحقبة التاريخية يجهلها الكثيرون وإن كنا نختلف على مصداقية أحداثها إلا أن بعضنا يتوخى الحذر بل التخوف من الاقتراب منها بعداً عن شبهات التعصب أو العصبية...

ولكن عندما يكون دورنا هو الترجمة والنشر فقط لكتاب به

من الأحداث التاريخية ما يضيف إلى القارىء العربي المهتم الكثير... نكون قد أضفنا إلى أشهر كتبنا التي أصدرناها عملاً جديداً يثري المكتبات العربية في كل العالم، التي ما زالت تبحث عن الكتب الجادة الغنية بمحتوياتها.

وكتابنا هذا صدر في ميونيخ بالمانيا منذ أربعة أعوام فى ٥٥٦ صفحة عن دار درومر كناور... وكان لدارنا السبق في الحصول علي حقوق ترجمته من الألمانية إلى العربية قبل أن يترجم إلى الانجليزية.

وقد كان هذا مصدر سعادة بالغة لمؤلفه القسيس بيتر دي روزا الذي درس علم الأديان في الجامعة البابوية (جريجوريانا) في روما كما عمل مدرسا للميتافيزيقيا والأخلاق في المعهد اللاهوتي في ويستمنستر وفي الجامعة المسيحية في لندن ثم تخلى عن مهمته القسيسية وتزوج وتفرغ تماماً لكتابة :

« صفحات مظلمة فى تاريخ البابوية »

حسني أبو اليزيد

مقدمة

إنها تعد أكبر تغطية فى التاريخ.. بفارق كبير بينها وبين ما بعدها، فهى قد دامت لعدة قرون وكلفت العالم آلاف بل ملايين البشر من الضحايا ، ورغم أنها واضحة للعيان إلا أن أحداً لم يلحظها وساهم كثير من الفنانين ـ بقصد أو دون قصد ـ فى تلك التغطية .

أما التغطية فهى ذلك الثوب الذى كان يرتديه يسوع المسيح في الصور الأولى له فى المسيحية والذى تم تقليصه إلى قطعة قماش صغيرة تمثل عذاب وآلام المسيح التى تعرض لها .

أما الحقيقة فهى أن المسيح مات مصلوباً عارياً * ولم يجرؤ الفنانون على تصويره بهذه الهيئة ليس تأدباً ولكن لأسباب دينية فرضها عليهم رجال الدين الذين حرموا عليهم إظهار المسيح عارياً ، لأنه كان سيذكر الناس دائماً بهويته اليهودية عن طريق الختان الواضح به وهو ما كان يخشاه رجال الدين.

* ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسي بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم. وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه. ما لهم به من علم إلا اتباع الظن. وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه. وكان الله عزيزا حكيما ﴾ سورة النساء الآية – ١٥٧.

والسؤال الذى تثيره مثل تلك الصورة هو : من فعل ذلك بالمسيح؟ والإجابة التى يوردها إنجيل مرقص أن اليهود هم الذين فعلوا ذلك وعلى وجه الخصوص يهوذا . وجريمة اليهود لا تتوقف عند قتل المسيح مرة وإنما بعدم إيمانهم برسالته يقتلونه كل يوم ويجددون ذنوبهم . ولولا قطعة القماش الصغيرة التى تغطيه لظهر للعالم أن قتل يسوع لا يمثل قتل أحد المسيحيين فقط وإنما أحد اليهود أيضاً !!.

ويثور السؤال : هل لو ظهرت يهودية المسيح من خلال الصور هل كان اليهود سيلاقون نفس القدر من المطاردات والتعذيب؟ وأصدرت الكنيسة قرراتها التى تنص على أن اليهود ملعونون لأنهم قتلوا المسيح وفرضت على اليهود حمل شارة معينة تميزهم عن غيرهم وأسكنتهم فى أفقر الأحياء وحدهم ، وكان هتلر يقول عنهم بفخر « إننى لا أفعل سوى ما تأمر به الكنيسة منذ خمسة عشر قرناً» .

وبعد انتهاء مذابح هتلر بخمسة عشر عاماً ألقى البابا يوحنا الثالث والعشرون صلاة يستسمح فيها اليهود عما فعله المسيحيون بهم ويعتذر لهم وكان هذا بمثابة تكفير من الكنيسة عن ماضيها .

وأوضح البابا أن الكنيسة تحتاج لتغيير مستمر وأن أخطاء الكنيسة وظلمها لن يبقى سراً وأن التاريخ لن يسمح بتزويره .

« القس الإنجليزى: دى روزا »

التاريخ الأسود للكنيسة

الجزء الأول

السلطة

الفصـــل الأول

الفاتيكان ••• و
المعاملات المالية والجنس والخلاص

في ذلك اليوم ، التاسع والعشرين من يونيو ، يوم الاحتفال العظيم بالقديسين«بطرس وبولس» ، جاء الجميع من كل حدب وصوب، شيوخاً، وشباباً ، مذنبين وقديسين، كي يلتقوا عند مندوب المسيح في الأرض، وخليفة الحواريين، قمة قمم الكنيسة المسيحية، ورئيس مدينة الفاتيكان، وخادم الرب، البابا يوحنا بولس الثاني.

جاء هذا الجمع، بعضهم بملابس الحج السوداء، وآخرون بأزيائهم القومية الزاهية، بعضهم سائحون، ولكن أغلبهم من الحجيج، يجمعهم حلم حياة واحد: زيارة روما، والمشاركة في صلاة يرأسها بابا الفاتيكان.

منذ الصباح الباكر شدوا الرحال: من الفنادق الفخمة، والأديرة الهادئة، والبنسيونات الرخيصة. في مسيرهم عبر روما يمرون على معالم المدينة المختلفة: بيوت مهدمة، وقصور منذ عصر النهضة لازالت محصنة ضد الأعداء، ولكنهم لايتعرفون على كنيسة واحدة من الكنائس الأربعمائة القائمة في روما، والتي يفتح بعضها ليوم واحد فقط خلال العام: يوم الاحتفال بقديسها.

ويقطعون نهر التيبر الذي خدم المدينة لمئات السنين كمصرف وكمقبرة جماعية غير رسمية دفن بها في أحد الأيام آلاف البشر.

في هذا اليوم كان النهر يبدو بطيئاً كئيباً كزي رهبان الفرنسيسكان. وأخيراً يصعدون إلى طريق المصالحة الذي ينتظرهم في نهايته أحد أكثر المنار تأثيرا في النفس البشرية: قبة كنيسة القديس بطرس، والتي تبدو وكأنها تسبح في الفضاء تحت شمس

الصيف الحارقة.

لقد عبر مايكل أنجلو بتصميمه لتلك الكنيسة عن القوة الأبدية لأكبر مؤسسة فى تاريخ العالم: فقد احتفظت بتراث الأجداد (الأنتيك) ووهبت لجحافل الوثنيين دينا جديدا وقانونا يستنون به، لقد خلقت الكنيسة أوربا خلقا حينما وحدت هدف شعوبها.. أوجدت لهم هدفا يتجهون إليه، يتجاوز الحدود والخلافات بينهم وكما قال لورد ماكولاى منذ أكثر من مائة عام عن الكنيسة: لقد كانت شامخة عظيمة قبل أن يعبر الساكسون النهر نحو بريطانيا، وقبل أن يعبر الفرنسيون نهر الراين، وحينما كان فن الخطابة مزدهراً فى بلاد الإغريق، وكان أهل مكة لايزالون يتجهون لأوثانهم بالدعاء والعبادة.وأنا أعتقد أنها ستستمر فى ازدهارها حتى حين يقف الغريب على جسر لندن بردج ليرسم أطلال كنيسة«القديس بولس» .

يطأ المؤمنون ميدان القديس بطرس بأعمدته الشامخة، على حين تبحث عيونهم عن نافذة فى الطابق الثالث من القصر البابوى: النافذة التى يطل منها البابا كل أحد ليبارك الجماهير المحتشدة.

قليل من هؤلاء الحجيج يعرفون حقا حجم هذا القصر، لقد كان البابا ليو الثالث عشر حين تقدم به العمر يجلس على كرسى صغير يحمله أتباعه عليه قرابة الكيلو مترين عابرين القصر، صاعدين سلالم لولبية، ومارين بردهات ملتوية، ومخترقين حجرات بها بعض أثمن كنوز الدنيا، حتى يصل إلى عربة الجياد التى تقله فى نزهة عبر حدائق الفاتيكان.

لقد كانت القنابل الأربع الوحيدة التى سقطت على هذا القصر فى تاريخه ، والتى انحرفت عن هدفها المقصود (قبة القديس بطرس) بريطانية الصنع، أسقطها الألمان فى ليلة مظلمة خلال الحرب العالمية الثانية بعد أن استولوا عليها فى طبرق كى يوهموا العالم أن الحلفاء يهاجمون قدس أقداس المذهب الكاثوليكى.

ورغم أن الفاتيكان ليس أكبر من ملعب الجولف ، فإن الحجاج يحسون برهبة المكان الذى يقوم فى وسطه تمثال كاليجولا الذى يزن فوق ٣٠٠ طن ويبلغ ارتفاعه أكثر من ٤٠ مترا، والذى نقل إلى هذا المكان من موقعه الأصلى قرب المكان الذى

صلب فيه القديس بطرس، كل هذا يشعرهم بقدسية المكان.

يرتقى الحجيج السلم الحجرى ويصلون إلى القاعة الأولى. هنا أيضا يشمون عبق التاريخ وتملؤهم رهبة المكان. على يمينهم تقع البوابة المقدسة وهى مغلقة الآن لأننا لسنا فى سنة مقدسة. فوق القوس الأوسط تظهر صورة نافيسلا مركب القديس بطرس الصغيرة التى صمدت للأعاصير. هذا الرسم الموزايكى نجا من هدم الكنيسة البطرسية الأولى، وهو للفنان «چيوتو» فنان القرن الثالث عشر الذى أبهر البابا بتمكنه من رسم دائرة كاملة مضبوطة دون استخدام آلات هندسية. عند الباب الأوسط يجد المرء علامة على أرضية القصر تبين المكان الذى تلقى فيه الملك كارل الأكبر تاج الامبراطورية الرومانية المقدسة من البابا ليو الثالث عشية عيد الميلاد لسنة ٨٠٠، وذلك بعد أن صعد السلم زاحفاً على ركبتيه مقبلا درجاته درجة درجة.

يزيح المؤمنون الستائر الجلدية السميكة جانبا ليدخلوا القاعة التالية والتى يغمرها الضوء مهما كان الضباب منتشرا والتى يغطى أرضيتها ٢٤٠٠٠ متر مربع من الرخام الملون. أعمدة هذه القاعة التى يصل طولها إلى ٤٠ متراً يكسونها اليوم فى عيد الحواريين لون الشهداء.. اللون الأحمر وأحواض ماء المباركة المقدس: حجمها أكبر من أحواض الاستحمام الكبيرة، أما الأعمدة والتماثيل فهى فى حجم الكنائس العادية، ثم نأتى إلى أحب الأعمال إلى قلب مايكل أنجلو ـ البيتا ـ التى شكلها فى سن الخامسة والعشرين والوحيدة من بين أعماله التى اختصها بتوقيعه، والتى تقف محفوظة وراء سور زجاجى. هناك قبور للبابوات وهبها بعض النحاتين سنين كاملة من عمرهم. يقول شاتوبريان المؤرخ الفرنسى الذى عاصر الثورة الفرنسية فى مذكراته: «عدد القبور فى روما يفوق عدد الجثث» ويتخيلها وهى تنتقل من قبر مرمرى إلى آخر أكثر برودة كما ينتقل المريض من فراش إلى آخر أكثر راحة!

إلى اليسار يوجد المذبح الذى يرقد تحته جثمان البابا ليو الكبير الذى كان من أكبر البابوات سناً، وكان أول من دفن بكنيسة القديس بطرس عام ٦٨٨، وهو الذى ابتدع عادة أن يكون للكنيسة أكثر من مذبح واحد، وتبعاً لذلك تشتمل كنيسة القديس بطرس اليوم على أكبر عدد من المذابح بين الكنائس المسيحية.

إلى أعلى يوجد كرسى بترى الضخم المصنوع من البرونز المذهب والذى ترجع زخارفه إلى حوالى القرن الثانى الميلادى، وعلى ذلك يمكن القول بأنه من أقدم العروش على الإطلاق.

أما قاعدة الكرسى فرآها الجمهور لآخر مرة فى احتفال القديسين لسنة ١٨٦٧ ، وما ظهر منه كان كتلة خشبية مطعمة بأنواع مختلفة من الأخشاب مزينة بتماثيل صغيرة من العاج واقفة رأسا على عقب. يتجه الحجاج يسارا ويصلون إلى التمثال البرونزى الشهير للقديس بطرس الذى ألبسوه فى يوم الاحتفال بعيده ثوبا مذهبا وتاجا مرصعا بالجواهر. أما القدم اليمنى المتقدمة قليلا عن أختها فإنها تلمع من كثرة المقبلين لها، وهذا يذكرنا بعادة لم تندثر منذ وقت طويل: وقت أن كان على البابا أن يضع قدمه على حشية حتى يتمكن الناس من تقبيلها. وكذلك فعل بولس السادس فى عام ١٩٧٧ ، حين جاء مريضا متحاملا على نفسه قبل انعقاد أول اجتماع للكهنة فأشعل شمعة وسجد ـ يحيطه عبق البخور ـ ليقبل أقدام التمثال، ومثله فعل الكثير من البابوات أسوة ببولس وبطرس حتى ينالوا هذا المنصب الرفيع. ثم نصل إلى قاعة الصلاة: يترك البابا يوحنا بولس مكتبه فى الطابق الثالث ليصل إليها فى دقائق معدودة ولكنها تنقله نقلة شاسعة: لقد ترك وراء ظهره المشاكل الإدارية لدولة الفاتيكان ليؤدى أحب الأدوار إلى قلبه: دور راعى الكنيسة وإمام الصلاة. فلا أحد أدرى منه بمشاكل القسس مع بعضهم، ومشاكل الراهبات مع رئيساتهن، وحتى رجل الشارع لم يتمرد على الكنيسة كما فعل فى عهد البابا يوحنا بولس ولكنه فى هذه اللحظات ينسى كل ذلك ويركز على دوره كإمام للصلاة. فى نفس هذه اللحظة تستعد حاشية البابا وحراسه المسلحون لدورهم القادم: حماية البابا ضد أى هجوم ولو وصل الأمر لإطلاق النيران على من يتهدد حياته. لقد كان للفاتيكان جيش فى السابق ألغاه البابا بولس السادس ولكنه لم يمنع السلاح لوجود خطر دائم يتهدد حياته.

وحراس البابا يوحنا بولس بزيهم الأزرق يحيطون به كما لم يحيطوا ببابا من قبل، ويحملون تحت سترتهم أجهزة اتصال بالمركز الرئيسى للشرطة بروما، وبجهاز مكافحة الإرهاب الإيطالى، والبابا بالنسبة لهؤلاء ليس قدس الأقداس ولا خليفة المسيح ولكنه فقط«الهدف». وأخيرا يصل راعى الكنيسة إلى القاعة الرئيسية، ويبارك الجماهير التى

تحتشد لرؤيته، والتى لا ترى سواه: لاقسس ولارهبان ولا غيرهم. فقط يرونه بطاقيته البيضاء الصغيرة: هذا البابا الذى يرأس مليار كاثوليكى وأربعة آلاف كاردينال، وأربعين ألف قسيس، ومليون راهبة. ورغم تهليلهم وركوعهم وتصفيقهم له ، ورغم إغماءة بعضهم لمرآه ، ورغم أن بعض الراهبات يخرجن عن تحفظهن منذ سنين، إلا أنه لايوليهم اهتماماً: إنهم يحسون أنه مع الله الذى يمثله فى الأرض، ومع نغمات الكورس منشداً «أنت بطرس» يصعد درجات المذبح. تتركه الحاشية الآن وحده: الكهنة والكرادلة والقسس والحراس يتجهون إلى الحجرات الجانبية. هذه هى عادة الكنيسة الرومانية: أن يقف البابا وحده على المذبح، ولكن البابا يوحنا بولس الثانى كان أكثرهم إحساسا بالوحدة وتعرضا للألم.

ترتيبه المائتان وثلاثة وستون من البابوات ، ولكنه رقم غير دقيق. ففى بعض الأوقات كان هناك أكثر من بابا لنفس الفترة، وفوق ذلك فلم يحدث قبل عام ١٠٧٣ـ عندما أصدر البابا جريجورى السابع قرارا بمنع تسمية أى رجل دين آخر غير رأس الفاتيكان بالبابا ـ أن منعت التسمية عن مراتب أخرى لرجال الدين . كما كانت تسمية أى قس ببابا تدل على عظيم المحبة والعطف. وحتى لقب «أسقف روما» له اليوم هيبة لم تكن له فى يوم من الأيام.

وهناك العديد من الموضوعات الأخرى الغامضة وغير المحددة بشأن الكنيسة، خذ مثلا مسألة إقامة بطرس فى روما. هناك رأى من أواخر القرن الرابع الميلادى يشير إلى أنه عاش بها خمسة وعشرين عاما. ولكن لا يوجد أى دليل تاريخى على ذلك. وفى رواية أخرى إن الحوارى بولس أرسل خطابا فى عام ٥٨ ميلادية إلى أهل روما حيا فيه عائلات بأكملها وذكر فيه أكثر من تسعة وعشرين شخصا بالاسم لم يكن من بينها بطرس، وهذا شىء مستغرب إذا عرفنا أن بطرس كان وقتها أسقف روما ويعيش بين أهلها.

وفى عام ٣٠٠ م . كتب يوسيبيوس الذى يعد شيخ مؤرخى الكنيسة:«إن بطرس حمل لواء الدعوة إلى اليهود فى الهلال الخصيب، وعندما وصل إلى روما تم صلبه».

واليوم يعتقد المؤرخون أن بطرس عاش فى روما ثلاث أو أربع سنوات على الأكثر ،

ولا يوجد دليل على ترأسه للكنيسة هناك، فمسألة رئاسته للكنيسة لا يمكن أن تحدث بين عشية وضحاها. فبعد موت يسوع المسيح مباشرة لم يكن بطرس حتى أسقفا لأورشليم إذ كان أخو المسيح «يعقوب» هو أسقف أورشليم. ويضاف إلى ذلك الحقيقة المذهلة التالية: فى الفهارس الأولى للأساقفة الرومان لم يظهر اسم بطرس أبدا رغم ترتيبها الزمنى وبالاسم، وهى تضم ترتيبهم حتى الأسقف الثانى عشر يليوثيريوس. وحسب تأريخ الدستور الكنسى لعام ٢٧٠ فإن لينوس هو أول أسقف لروما ثم كليمنس. ومما يزيد الأمر غموضا أن يوسيبيوس - على كثرة ما كتب وأرخ - لم يورد ذكر بطرس مرة واحدة كأسقف لروما.

وتفسير ذلك أن الحواريين كانوا يعتبرون طبقة فى حد ذاتها لاينتمون لكنيسة معينة حتى لو أسسوها هم - كما فعل بولس فى آسيا الصغرى - فكونهم حواريين يلغى تلقائيا أحقيتهم فى أن يصبحوا أساقفة لروما.. وانطبق ذلك أيضا على بطرس ، فرغم عظم شأن إنجازاته فى أنطاكية وأورشليم فقد كان وظل حواريا وليس أسقفا. واتخذت الكنيسة ذلك عرفا: إن البابوات خلفاء بترى يعتبرون أساقفة روما. ولم يتم ذلك فى حياة بطرس أبداً: فقد تم خلع هذا الرداء عليه بعد وفاته بمئات السنين.وهذا لا ـ ىى قوة سيطرته المعنوية على الجالية اليهودية المسيحية فى روما، ولكن بشكل مختلف مثلا عن بولس الذى كان من أهل روما، وعليه اعتبر بطرس غريبا عنها.. واليوم - بعد حوالى ألفى عام - يجلس غريب آخر على كرسى البابوية.

منذ ما يقرب من عشر سنوات تم تنصيب كارول فوجتيلا بابا لروما خلفا للبابا يوحنا بولس الأول الذى حزن لرحيله الكثيرون. وطبقاً لنكتة رومانية فإن الشائعة هى أقوى مؤسسة فى الدنيا، فمن يصدق بوجود يوم القيامة إلا لو قلتها له همسا؟! وكذلك انتشرت شائعة عن وفاة البابا يوحنا بولس الأول مسموما كالنار وتتردد هذه الشائعات كلما أصاب البابا مرض مفاجئ ثم وفاته ... وكثير من هذه الشائعات كانت مغرضة .. ولكن ليس كلها!! فمثلا فى ٢٧ يوليو عام ١٣٠٤م قدم شاب يرتدى زى راهبة للبابا بنديكت الحادى عشر طبقا من التين الذى كان معروفا بولعه به وبعدها ببضعة أيام تم دفنه.. وتكررت حادثة وفاة البابوات فجأة وتردد الشائعات بأنها نتيجة لتسمم، وذلك رغم نصيحة الكثيرين للبابوات بتعيين ذواقين للخمر والتين،

فهل تم البحث والتقصى فى تلك الحالات والشائعات؟ بل ظلت الكنيسة على صمتها وتحفظها.

عند اختيار كارول ڤوچتيلا عام ١٩٧٨ كان عمره ٥٨ عاما ، ويبدو أصغر من ذلك بكثير، واليوم يبدو أكبر سنا من أعوامه الستة والسبعين: فأكتافه أكثر استدارة، وهو أكثر نحافة وعروق رقبته نافرة أما عيونه فتبدو أضيق من ذى قبل وتدلل على أصوله السلافية، كما أن شعره آخذ فى السقوط والتراجع إلى الوراء، وآذانه بارزة كما كانت فى طفولته. لقد ساهم كثير من العوامل فى التعجيل بشيخوخته: الأسفار المرهقة والهجوم الذى تعرض له فى ٣١ مايو ١٩٨١ واحتاج بعده لجراحة لمدة خمس ساعات، ونقل ثلاثة لترات من الدم إليه، وكم الأعمال والأوراق المتراكمة على مكتبه يوما بعد يوم، وأيضا يصله الهمس الدائر عنه، فالجميع غير راضين عنه: المتحررون يكرهون تمسكه برأيه وعدم لينه، والمتشددون يعتبرونه أفقد «البابوية» كثيرا من هيبتها: فالصحافة تصوره تارة مرتدياً القبعة المكسيكية وتارة مداعبا حيوان الكوالا فى استراليا، وتارة راقصا على أنغام الروك مع أحد الشباب، ويتساءل هؤلاء المتشددون: لماذا لايستقر البابا فى الفاتيكان ويحيط نفسه بالغموض والهيبة اللازمين لمنصبه كسلفه البابا ليو الثالث عشر، الذى أطل على الدنيا من خلال نافذة مغلقة مختلفا بذلك عن البابا« الشيوعى » يوحنا الثالث والعشرين الذى فتح النافذة وسمح للأنواء والعواصف بالدخول؟! ولكن البابا يرتفع فوق مثل هذه الأحاديث، وهو يصلى مغمضا عينيه ـ ليس فقط لرعيته الملتفة حوله فى الكنيسة ولكن لرعيته فى العالم أجمع ـ وهو يعتقد بحزم أن صوته فقط ـ صوت بترى ـ هو الوحيد القادر على إنقاذ الدنيا من الشرور المحدقة بها، والتى تقودها نحو الهاوية. والبابا منزعج جدا من اللامبالاة التى يلقاها ذكر يسوع المسيح، ويحزنه أن تصبح كلمة«عذراء» مرادفا لقلة الوعي وعدم التمدن، وأن يكون الشذوذ الجنسي ليس فقط مقبولا قانونا ولكن مرغوبا فيه ومحببا إليه اجتماعيا، وهو يخشى أن يكون الرهبان والراهبات أنفسهم فى شك من أمرهم. وعلى حين يقرأ أحد الشمامسة فصلا من الإنجيل ، يعلم البابا أنه هو الصخرة الثابتة وأن عليه أن يستمر هكذا ، فالأخطاء يمكن تداركها والموجات يمكن أن تنحسر فقط لو استمر هو على يقينه وتمسكه بعقيدته ، ووجهه يزداد حزنا وتقل ابتساماته ، وكأن حزن بولندا

كله تجمع عنده، وهو لاينسى بلده أبدا ويذكر أحياءها وأمواتها بالدعاء فى كل صلاة. ولكونه بولنديا فلم يتوقع أبدا أن يصبح بابا روما فى يوم من الأيام، حتى عندما أخذ فى الترقى فى المناصب، وله كل الحق فى فكره هذا: فبعد أربعة قرون ونصف القرن كان منصب البابا حكرا على الشعب الإيطالى، وكيف له أن يتخيل ذلك ونشأته تتدرج من عامل مصانع إلى ممثل هاو إلى مناضل ضد الاشتراكية ثم الشيوعية، وشاعر لبعض الوقت يقول مطلع إحدى قصائده: «لا أستطيع التأثير على مجريات الأمور فى الدنيا». على عكس ما يعتقده المؤمنون الواقفون أمامه فى الصلاة: فهم يرون أنه يساهم إسهاما جادا فى نشر الخير فى الدنيا ويرونه كرجل لايباع ولايشترى.

وكان يوحنا بولس هو آخر الأباطرة، ويود الكاثوليك لو استمر الوضع على ذلك! فهم يرونه ممثلا للمسيح والرأس الأكبر للكنيسة، وتقترب حكمته كثيرا من بلوغ الألوهية، ويفخرون بأنهم عن طريقه يعتبرون أقرب الشعوب والأديان للرب، فحياتهم الروحية تبدأ منه، فهو يوحدهم بالرب وببعضهم البعض. ويعتقد كثيرون خطأ أنه هو أساس عقيدتهم، وأن الأساقفة يستمدون قوتهم منه، وفى صلوات الأعياد يأتى كثير من غير الكاثوليك إلى كنيسة القديس بطرس ممن يؤمنون كذلك أن البابا يوحنا بولس الثانى هو أفضل سد وجبهة أمام طوفان الشيوعية والإلحاد اللذين يسودان العالم شرقا وغربا.

ويستكمل البابا صلاته بصوت خفيض ، ولكنه واضح ، ويلتزم جميع قواعد الإلقاء ، فهو يعلم أنه لو خالف ذلك فسيفتح بابا أمام كل أسقف أن يبتدع طريقته الخاصة في إلقاء الصلاة والأناشيد. ولكن كيف يرى البابا دوره؟ إنه يعلم أن من يراهم أمامه فى الصلاة لايمثلون أغلبية الناس هذه الأيام ، وأن هموما كثيرة تنتظره ، وأن هناك أرقاما وإحصائيات محزنة وغير مبشرة تنتظره فى مكتبه بعد الصلاة.

فمثلا : هناك مشكلة القسيسين: في عام ١٩٧١ أظهرت دراسة أنه من ١٩٦٣ـ ١٩٦٩ قدم ٨٠٠٠ قس طلبا للتنحي عن دورهم وأن هناك ٣٠٠٠ آخرين انفصلوا عن الكنيسة دون انتظار إذن منها ، وتنبأت الدراسة أنه خلال الخمس سنوات القادمة سيتحلل ٢٠٠٠٠ قس من التزامهم وقد تبين أن هذه الأرقام كانت متواضعة جداً وأكثر البلاد تخريجا للمبشرين أثبتت أنها أسرعها تراجعاً، فهولندا مثلا كان يتخرج

فيها ٣٠٠ قس كل عام، واليوم أصبحت احتفالات تخريج القسيسين نادرة جدا. وفى أيرلندا كان هناك ٦٠٠٠ قس مع نهاية ١٩٨٧، ولكن كان هناك أيضا أكثر من ١٠٠٠ قس سابق ويزيد العدد فى الولايات المتحدة فيصل إلى ١٣٠٠ قس سابق، ومتوسط أعمار من يبقون فى مناصبهم أكثر من ٥٤ عاما. أما المرشحون لمنصب القساوسة فتدهور خلال العشرين عاما الماضية فى الولايات المتحدة من ٥٠٠٠٠ مرشح إلى ١٢٠٠٠ مرشح. وكذلك أظهرت إحصائية فى مجلة تايمز الأمريكية فى عام ١٩٨٧ أن ٩٣٪ من الكاثوليك يرون أنه يمكنك أن تختلف فى الرأى مع البابا، وتكون مع ذلك كاثوليكيا متدينا. وحتى فى أيرلندا أظهرت الدراسات أن واحدا من كل ثلاثة أشخاص يشارك البابا رأيه فى وسائل منع الحمل، وهكذا تشير الدلائل إلى تقهقر في وحدة الرأى مع البابا والكنيسة مع عدم انتفاء دورها تماما، فهى لازالت تخاطب الناس ولكن من يستمع إليها اليوم؟! وهكذا بدلا من أن تخفف الصلاة عن راعى الكنيسة نجدها تجعله أكثر هما برعيته وهو يتذكر أيام طفولته حين كانت كلمة«البابا» هي دستور الكنيسة وكيف تغير الحال الآن إلى النقيض وأصبح هو وآراؤه ضمن الأقلية. كل تلك الأفكار تجعله لا يرى أحدا ممن حوله أما هم فلا يرون أحدا سواه. وعندما يتلو البابا فى صلاته ــ بنفس الخشوع منذ أربعين عاما ــ «هذا جسدى وهذا دمى» ينسى المصلون أنه ممثل المسيح ويعتقدون أن المسيح شخصيا يخاطبهم، وهكذا يجذب البابا انتباه المصلين بلامنافس: ألا يستحق لذلك أن يلقب بأكثر الناس حرية وتحكما فى العالم؟

الحقيقة أن البابا سجين وأسير، فكل من حوله يمدونه بالمعلومات التي تطابق وتخدم وجهة نظرهم حتى يتطابق رأيه النهائى مع رأيهم.. فمثلا المجلس الفاتيكانى الثانى (١٩٦٢ ــ ١٩٦٥) أراد أن يحرر الكنيسة بعض الشيء ولكن ما إن انتهى حتى أمسك البيروقراطيون القدامى بزمام الأمور، وتراجع التفكير عن تحرير الكنيسة، وخلال المجلس الكنسى الأول الذى دعاه البابا بيوس التاسع للانعقاد عام ١٨٦٩ رفض أن يمس البطانة الملتفة حول البابا بأى كلمة أو حتى يناقش وظيفتها وأساليبها، وهكذا ينجح البيروقراطيون دائما لأنهم متحدون فى حين أن الليبراليين سرعان ما ينفرط عقدهم ويتفرقون أشتاتا وشيعا، وهو أيضا أسير التاريخ: فملابسه قطعة قطعة ، والمكان

الذى يتحدث إلى الناس منه، والكنيسة برسوماتها ونقوشها، كلها شواهد تاريخية تأسره بين جدرانها، فهو بحق أسير القيود الروحية.

كذلك لايستطيع البابا الحديث فى أى موضوع دون الرجوع إلى آراء من سبقوه، فهو يستشهد مرة بالإنجيل ، وعشرات المرات بكلمات البابوات السابقين، ولايجرؤ على مناقضة رأى أى بابا منذ سبعة أو عشرة قرون. وعندما يصل البابا إلى الجزء الخاص بـ«هذا جسدى وهذا دمى» يظهر القسس من كل جانب من الكنيسة للمناولة ، ويشعر المصلون أن هذه المناولة تقربهم وتوحدهم بالبابا وبتاريخ الكنيسة الذى كان مليئا بالبطولات والجرائم، والبابا أسير حتى لتلك الجرائم، فهو يعلم بمسئولية الكنيسة عن مطاردة اليهود، وتهم السحر والشعوذة التى اتهم بها كثير من الأبرياء، وإعادة أساليب التعذيب فى أوربا كوسيلة من وسائل استخراج المعلومات من المتهمين ، ورغم كل ذلك فالكنيسة غيرت رأيها بشأن بعض المعلومات الحيوية مثل: الجنس والمعاملات المالية والخلاص، فمن الأمثلة البارزة أن الكنيسة اعتبرت أن أى إقراض للمال بفوائد فهو ربا بلا جدال بغض النظر عن المقرض والمقترض والظروف المحيطة بهما، ورغم أن الكنيسة لم تغير وجهة نظرها رسميا أبداً فهى تمتلك اليوم بنكا خاصا بها أنشأه البابا بيوس الثانى عشر عام ١٩٤٢ ، وهذا البنك تعرض فى تاريخه القصير لكثير من الفضائح المالية، والمثل الصارخ الآخر هو مسألة الخلاص فالكنيسة لم تكن تعترف بالخلاص لأى شخص غير معمد مثل اليهود والوثنيين وحتى أطفال المسيحيين الذين يتوفون قبل التعميد كانوا يعتبرون لاخلاص لهم، واليوم لازالت تعاليم الكنيسة تقول إنه لاخلاص إلا فى الكنيسة وبها، ولكن مع التوسع فى معانى الكنيسة، والخلاص حتى شملت كل ذوى النوايا الحسنة حتى الوثنيين منهم. والكنيسة لاتستطيع الاعتراف بهذا التغيير الجذرى لأن ذلك معناه أنها تتنصل من تاريخها وهو مالا تستطيعه: فهى مؤسسة مرتبطة بالتاريخ فى المقام الأول، وكذلك لاتعترف الكنيسة صراحة بالتغيير ـ حتى لو كان للأفضل ـ ولذلك فهى اليوم فى مأزق دائم! إذ وصفت نفسها بأنها لاتخطىء أبدا ، ولذلك كلما جد جديد قلب المواضيع رأسا على عقب، وحاول أهل الكنيسة إيجاد مخرج دون المساس برأيها الأول والذى يعد مساسا بكمالها. أمام المذبح الذى يصل إليه يوحنا بولس توجد غرفة مستطيلة مدفون بها

رفات بطرس التى ركع أمامها قياصرة مثل كارل الأكبر وفريدريك بارباروسا وقديسون مثل اجناتيوس ودومينيكوس.. وبطرس الثانى هو الذى أعطى هذا المكان قداسته وأعطى لمن بعده من أساقفة روما هيبتهم، ولايشك أحد فى أنه مدفون فى هذه الحجرة، ولكن هل هو مدفون بها فعلا؟ فى الفترة الأولى بعد وفاة بطرس ظلت رفاته تنقل من مكان إلى آخر أكثر أمنا ، إلى أن استقرت الأوضاع فتم بناء ضريح صغير له ثم تبع هذا بناء كنيسة قسطنطين التى ظلت قائمة لمدة أحد عشر قرنا ومنذ ما يقرب من ألف عام تقرر أن ينفصل جسدا بطرس وبولس عن رأسيهما وتم دفن الرأسين فى كنيسة چيوفانى فى لاترنو وتبعا للأعراف القديمة فإن مكان دفن الرأس يعتبر مكان دفن الميت، وتبعا لتقاليد الكنيسة فإن أهم جزء فى الجثة هو الرأس ولذلك كان يتم دهن الرأس المفصول عن الجسد بالزيت المقدس، وفى عام ١٢٤١ توجه القيصر فريدريك الثانى لغزو روما وكان الأهالى قد سئموا تصرفات الكنيسة والبابا فقرروا الانضمام للغزاة وفتح أبواب المدينة لهم.

وواتت البابا جريجورى التاسع ـ رغم سكرات الموت ـ فكرة أن يسير حاملا رأسى القديسين من كنيسة لاترنو إلى كنيسة القديس بطرس، وهنا أحس أهل روما بتراثهم وتاريخهم وشدة ارتباطهم بالكنيسة فانضموا لها ضد الغزاة وانتفى بذلك الخطر عن المدينة.

وفى عام ١٣٧٠ قرر البابا أوربان الخامس تركيب الرؤوس على تماثيل نصفية من الفضة وبعدها جمل أحد أغنياء فينسيا الرفات بالمجوهرات وفاء لنذر نذره سابقا، وفى عام ١٧٩٩ جرد جنود نابليون الرؤوس من حليها وتم استكمال باقى العظام المفقودة من الرؤوس بأجزاء من الذهب الخالص.

وهكذا ترقد رؤوس القديسين الآن فوق مذبح كنيسة لاترنو التى تلقب بالكنيسة الأم للعالم المسيحى ... وعلى ذلك فكان يجب إقامة احتفال القديسين هناك ولكن لسبب وجيه جدا لايتم ذلك؟!

«أنت بطرس وعلى هذه الصخرة سيتم بناء كنيستى التى لن تغلبها جهنم» هذه الكلمات مكتوبة فوق قبة كنيسة القديس بطرس، والمثقفون يعلمون أن كلمة بطرس

وكلمة صخرة مترادفتان في اللغة الأرامية القديمة.. وعلى ذلك يتم الاحتفال بعيد القديسين هنا في كنيسة القديس بطرس بدلا من لاترنو. بطرس الذي يعتبره رعاة الكنيسة رئيسا لبولس بالصلاحيات التي حددها له المسيح شخصيا وبالمكانة الخاصة التي وضعته فيها الكلمات المكتوبة حول القبة.. ويبرز سؤال: ماذا يقول المسيح أو بطرس لو ردا إلى الحياة اليوم وشاهدا كيف يعيش خلفاؤهما؟

فالمسيح مثلا ولد في اسطبل وكان فراشه من القش، أما اليوم فالبابا يسكن قصرا مكونا من أحد عشر ألف غرفة بخلاف المقر الصيفي المطل على بحيرة البانو والتي لم يكتف بها البابا يوحنا بولس فبنى لاستخدامه حمام سباحة أقل ما يقال عنه إنه فخم جدا. وعاش المسيح زاهدا وكانت تعاليمه دائما: « بع كل ما تملك وتصدق بثمنه على الفقراء ثم اتبعني » وكان يحدث الأغنياء قائلا : « اجمعوا كنوز السماء التي لايفسدها صدأ ولاعتة » والبابا يعيش وسط كنوز بعضها ذو أصل وثني، وأي اقتراح بأن يتم بيع تلك الكنوز يقابل بالسخرية وبأنه ليس في الإمكان. والمسيح عاش حياة بسيطة ومات عارياً ووهب حياته للصليب، أما البابا فهو يرفل في الحرير والذهب بمعنى الكلمة ، ففي القرن الرابع عشر مثلا علق بترراكا الكبير على صلاة أقيمت في أفنيون أبسط بكثير من مثيلاتها التي تقام في كنيسة القديس بطرس قائلا : «ياللفارق بين حياة المسيح والحواريين وخلفائهم!!. يخيل إلى أنني أرى ملوكا من فارس!! آه يا أيها الحواريون والسلف الصالح من البابوات ألهذه النتيجة آل كفاحكم ودعوتكم ؟!»

وكان اللقب الوحيد الذي لقب به المسيح طوال حياته من باب السخرية من بيلاتوس هو «ملك اليهود» أما اليوم فالبابا يحمل عدة ألقاب لامعة منها: رئيس دولة الفاتيكان وغيرها من ألقاب كانت تطلق على رؤساء الوثنية في روما القديمة وكذلك يحمل مستشارو البابا ألقابا مثل : صاحب النيافة/ سيدي/ حضرة المحترم/ حضرة المبجل.. ورغم أن أذيال أثوابهم تم تقصيرها لعدة مترات إلا أن ملابسهم لا تزال أقرب إلى ملابس الملوك منها إلى ملابس الزاهدين ورجال الدين، والشيء بالشيء يذكر: فإذا كان الإنسان يرفل في الحرير ويسكن القصور ويعتلي العروش فليس من السهل تقبله على أنه خادم خدام الرب أو الرجل الفقير من طبرية القادم للفقراء والمساكين.

وبطرس الذى عاش ومات فقيرا سوف تصيبه الدهشة عندما يرى خليفته يحمل لقب «المتصرف فى أملاك الكنيسة» وأن يكون للفاتيكان بنكه الخاص الذى لايتعامل إلا مع فئة مختارة من العملاء ويصر أن يكون ضمن أوراقهم إثبات التعميد ـ الذى لم يحمله بطرس نفسه أبدا ـ وكذلك ستدهش عزوبة الفئة العليا من رجال الدين المسيح الذى اختار بطرس كتلميذه المختار رغم علمه أنه متزوج. وسيصدم بطرس أكثر وأكثر من عدد الصور المعلقة فى الكنيسة، فقد كان هو ومعلمه ضد الصور الدينية وكذلك كان محرما تصوير الرب ولذلك فقد كانت كنيسة أورشليم عبارة عن غرفة خاوية مظلمة.

واليوم نرى فى كنيسة القديس بطرس صور المسيح المصلوب فى كل مكان وبهو الكنيسة مملوءا بتماثيل البابوات فى أوضاع بين الرقود والسجود، فالبابا بولس الثالث مثلا محاط في صورته بالحسناوات وبعضهن كن عرايا حتى أمر البابا بيوس الثانى بتغطيتهن فقد اكتشف نيافته أن هذه الموديل كانت أخت البابا بولس الثالث وعشيقة البابا الكسندر السادس.

لقد حضر بطرس العشاء البسيط الذى تناوله المسيح وعلم بالإهانات والتعذيب الذى تعرض له وبتاج الشوك الذى ارتداه وبصلبه عاريا ولسوف يتساءل ـ إذا بعث حيا فى أيامنا هذه ـ عن العلاقة بين ذلك وبين تلك الفخامة والأبهة التى يعيشها خلفاؤهما؟ وما هو الطريق الملتوى الذى سلكته جماعة المسيحيين من جولجوثا إلى الفاتيكان الذى غيرها كل هذا التغيير؟

الفصل الثاني

الباباوات الأوائل
أبناء غير شرعيين ..وقتلة !!

كان سلف البابا يوحنا بولس الثانى رجالا عظماء مثل بيوس الحادى عشر والثانى عشر ويوحنا الثالث والعشرين وبولس السادس ويوحنا بولس الأول.

وقد وجهت لهم الانتقادات من داخل وخارج الكنيسة ولكن لم يشكك أحد أبدا فى أن هدفهم الأساسى الذى لم يحيدوا عنه كان اتباع طريق يسوع المسيح.

ولأن معظم الكاثوليك يؤمنون باستمرارية التاريخ فإنهم يعتقدون أن الخلفاء دائما خير خلف لخير سلف وعلى ذلك فجميع البابوات يتبعون أمثلة البابوات السابق ذكرهم وقد يتطرق إلى أسماعهم سيرة البابا الكسندر (بورجيا) ولكنهم يعتبرونه أحد الاستثناءات القليلة للقاعدة. ويبررونها بأنه إن كان أحد أولئك القريبين من المسيح قد خان عهده فما بال أحد البابوات بين الحين والآخر.. وإن كانت خيانة يهوذا للمسيح قد أدت إلى القيامة وخلاص العالم أفلا يمكن أن يكون لوجود هذه الاستثناءات من البابوات دلالتها لخير البشر والتى لايعرفها إلا الرب؟!

لقد ألقى الكاردينال ڤوجن من كنيسة ويستمنستر موعظة عام ١٨٩٥ قال فيها إن حياة البابوات كحياة المسيح تماما: سلسلة من السعادة ثم الآلام ولكن يتبعها فى النهاية القيامة. وممثل المسيح وكنيسته فى صراع دائم مع الخطيئة ويتبع ذلك بالتأكيد العذاب والألم.

والكاثوليكى العادى لايسمع طوال حياته سواء فى المدرسة أو الكنيسة نقدا للبابا ولكن لكى تظهر نصاعة الأبيض لابد أن يقابله الأسود ولذلك ظهر أناس متدينون مثل

دانتى لم يتورعوا عن إلقاء البابا تلو الآخر فى جهنم فى «الكوميديا الالهية» وكان تبريره لذلك أن اليهود أدانوا بل لعنوا ربهم أفلايمكن للكاثوليك أن يلقوا بأساقفتهم حيث يستحقون؟!

ويبدأ تزييف الحقائق بإطلاق لقب« شهيد» على الثلاثين بابا الأوائل باستثناء واحد فقط مع أنه لاتوجد شواهد تاريخية أو غيرها تدل على أنهم استشهدوا فى سبيل المسيح ، فالحقيقة أن بعضهم أبناء لأساقفة وكرادلة وبعضهم كان ابنا غير شرعي ومنهم الأرمل وأحدهم عبد محرر وكان كثير منهم قتلة وبعضهم لادينيين وبعضهم رهباناً ومنهم الوثنيون والساديون وبعضهم اشترى منصب البابا ثم قام ببيع بعض متعلقات الكنيسة ليسترد ماله.

وواحداً منهم على الأقل كان يعبد الشيطان، وكان لبعضهم أبناء غير شرعيين ومنهم من قام بالخيانة الزوجية على أوسع نطاق وكان بعضهم طاعنا فى السن وبعضهم فى أوج الشباب، بعضهم تم دس السم له وبعضهم تم خنقه وأسوأهم من قام بعبادة وثن من الجرانيت، ولكن بجانب هؤلاء كان يوجد بعض البابوات الطيبين المقدسين الناكرين لذواتهم وأيضا بعض الشهداء.

لقد آن الأوان أن يتم التعامل مع تاريخ الكنيسة بشكل مختلف عما هو عليه الآن. فإن الصمت المتعمد عن جرائم البابوات لهو فضيحة ونوع من الرياء وأسوأ من ذلك أنه يعرقل إيجاد حل لأزمة الكنيسة الحالية. فقد كان أكبر ذنب اقترفه البابوات هو سوء استخدام السلطة وإنه لمن السخرية أن مصدر هذه السلطة عاش ومات دون أن ينال أى حظ منها.

البابا الأول

إن بطرس يحكى قصة صلب المسيح كما حضرها وكيف كان هو أول من رآه بعد قيامته وكيف رآه باقى الحواريين بعد أن كان الشك قد دب فى قلوبهم بأنه هو المسيح إذ لم ينقذه الرب من الصلب بملاك أو غيره . حدث هذا فى مدينة الجليل وبعدها توجه الحواريون إلى أورشليم لينشروا دعوته واعتبروا بطرس زعيمهم الذى كان أول من رأى المسيح بعد قيامته من الموت وأرشد زملاءه إليه وهكذا اجتمعوا حول بطرس وبدءوا

يدعون إلى المسيحية ويتبعهم البعض وبذلك تكون أول تجمع مسيحى وكانت نواة الكنيسة الكاثوليكية.

ووقع بطرس فى حيرة من أمره : هل يدعو اليهود فقط لدين المسيح أم الوثنيين أيضا؟ وهل يجب عليهم أن يتحولوا للدين اليهودى أولا؟ لقد رأى بطرس فى منامه أنه يكفى للوثنى الإيمان بالمسيح فقط ليكون قد اتبع الدين الجديد ولكنه بعد فترة ألزم الوثنيين المرتدين عن دينهم باتباع محرمات الطعام اليهودية فتصدى له أحدهم وهو بولس قائلا: «إنك يهودى ولاتعيش كواحد منهم فكيف تجبر غير اليهودى على العيش كيهودى؟» وتقبل بطرس ذلك بصدر رحب واعتبر أنه أخطأ وأن بولس صحح له خطأه ومنذ ذلك اليوم تقاسم الاثنان الدعوة: فدعا بطرس اليهود ودعا بولس الرومان الوثنيين.

ولأن روما كانت عاصمة الفجور فقد قرر بطرس الذهاب إليها ودعوة أهلها إلى الفضيلة، وكان بروما جالية يهودية كبيرة لم تنضم للوثنية كما فعلت جاليات غيرها وفدت إلى روما، فقابلها الرومان بالسخرية ولكن دون تعصب دينى. ولكن هذه الجالية اليهودية لم تتقبل دعوة بطرس قبولا حسنا فقد رأوه خارجا على دينهم، فهو يؤمن بالتوراة ولكن ليس بالختان، وهو يوقر إبراهيم وموسى وداود ولكنه لايحتفل بأعيادهم، أما فكرة المسيح المصلوب فلم توافقهم أبدا واعتبروا رؤية قيامته تخاريف نساء مخبولات.

بعد حريق روما الشهير فى ١٩ يوليو ٦٤ فى عهد القيصر نيرون تم اتهام المسيحيين فى روما بتدبيره وتم عقابهم بحرقهم على الصليب.. وكذلك جاء الدور على بطرس الذى تم سجنه أولا لفترة عانى فيها كثيرا حتى نحل جسمه ووهن عظمه ثم جاء اليوم الذى تم فيه صلبه كسيده وانتقل للسعادة الأبدية، وبجانب سور المعبد الرومانى الذى تم صلبه فيه تم دفنه ، وبعدها بثلاثين عاما بنى أناكليت ضريحا فوق قبره يسع أربعة مصلين واليوم أصبح خلفاء بترى أسيادا وليسوا خداما ولبسوا الحرير وأطلقوا على أنفسهم لقب «رأس الدولة» وأسموا الصياد «بطرس» البابا الأول وأصبح شعارهم «السلطة والقوة» بدلا من «المحبة والسلام».

وناقض المسيحيون يسوع المسيح وفعلوا بغيرهم كما فعل بهم وأكثر.

واستخدمت الكنيسة ـ باسم المسيح ـ أساليب التعذيب وأحيانا الصلب ضد المعارضين لها. وعقدت اتفاقا بين العرش والمذبح على أن يقوم العرش بحماية المذبح وإجبار الخاضعين له على الدخول فى الدين المسيحى دون أن يعوا أن بطرس مات فى سبيل عدم إتمام هذا التحالف.

واليوم ـ بعد ثلاثمائة عام من وفاة الحوارى على هضاب الفاتيكان ـ قويت شوكة الكنيسة إلى الحد الذى باتت تطمح فيه إلى تولى العرش والسلطة معا.

الأطماع الكبرى

كانت والدة القائد قسطنطين مسيحية أما هو فكان لايزال يعبد آلهة الرومان خاصة أبوللو وعندما أراد غزو روما للإطاحة بامبراطورها ماكسنتيوس والفوز بعرشها رأى فى منامه أن الشمس ترسل أشعتها على هيئة صلبان سوداء وسمع اسم يسوع المسيح، وعن إيمان بهذا الحلم وليس بالدين الجديد قرر القائد أن يرفع أعلام الصليب عند غزوه روما وليكن مايكون. وقد كان : فقد تحقق حلمه شبه المستحيل وتغلب على ماكسنتيوس الأقوى والأكثر عتادا والأعظم شأنا ودخل روما ظافرا رافعا أعلام الصليب، ووضع يده فى يد البابا سيلفستر الذى كان يرى ـ كسلفه ميليتادس ـ أنه لاغضاضة أن تنتشر المسيحية فوق أسنة الرماح وجثث الأعداء فى سبيل الدين الجديد.

كان ذلك فى عام ٣١٢ ومنذ ذلك الحين بدأت العلاقة الوطيدة بين البابا والقيصر والمذبح والعرش وأصبح ذلك أحد ركائز الكنيسة الكاثوليكية.

ورغم ذلك لم يعلن قسطنطين نفسه أبداً قيصرا مسيحيا، أو أن دين الدولة الرومانية الرسمى هو المسيحية، بل أنه حتى لم يزل تماثيل الآلهة الوثنية من مجلس الشيوخ الرومانى ، ورغم ذلك كانت معاملته حسنة للمسيحيين وتفضيله لهم ليس حبا فيهم أو إيمانا بعقيدتهم وإنما لأن دينهم سهل له كسب معركة حاسمة أصبح بها قيصرا لروما ، وما كان يطمح إلى تحقيق ذلك قط. أما الكنيسة فقد كان وجوده خدمة لها، فقد أحسن معاملة المسيحيين ولم يضطهدهم وأعلن فى أيامه حرية الأديان، ولذا

تغاضت الكنيسة عن قتله لابنه وحميه وإغراقه لزوجته مقابل حمايته لهم. المثير للسخرية أن قرار حرية الأديان الذى أصدره قسطنطين ونعم المسيحيون فى ظله بالحرية وحسن المعاملة كان دائما ضد مبادئ الكنيسة التى لاتزال إلى اليوم تعتبر حرية الأديان ضد تعاليمها وأقرب لتعاليم الوثنية وهراء .

فى عام ٣٨٠م حدثت نقطة تحول تاريخية: فقد أصبحت المسيحية هى الدين الرسمى للدولة أو حسب كلمات أكتون:« العكاز الذهبى للسلطة المطلقة ».

ومنذ عقد هذا التحالف وحتى اليوم تجمدت علاقة الكنيسة بالسلطة ودور الكنيسة فى قالب واحد : فقد جندتها الدولة لخدمة أغراضها من استتباب الأمن وغيره: ففى كثير من الأحيان انضمت الكنيسة لصفوف الأغنياء ضد الفقراء ومالت إلى اليمين أكثر من اليسار وباتت تخشى الشيوعية أكثر من الفاشية، فى الوقت الذى كانت فيه رسالتها الأصلية هى الانحياز لصف الفقراء والدعوة إلى الحب والإخاء والمساواة بين الناس، ثم بدأت الكنيسة فى التدخل فى شئون الدولة وأصبحت تخلع وتنصب القياصرة وتأمرهم أن يدخل رعاياهم المسيحية قصرا تحت تهديد التعذيب والموت.

وكانت المسيحية ـ كما نراها اليوم ـ هى النتيجة: قوة ذات تأثير جبار وشأن عظيم ولكن بثمن فادح جداً.

البابوات الأوائل

كتب المؤرخ الألمانى جريجو روفيوس أنه حتى عهد ليو الأول فى القرن الخامس الميلادى لم يظهر أسقف ذو شأن وأهمية تاريخية وكان لذلك أسبابه: فقد كان هم الكنيسة الأول هو محاولة البقاء وسط أجواء معادية، فاليهود كانوا يكنون لهم العداء وكذلك الرومان كانوا ينظرون بعين الشك لهذا الدين الجديد وأتباعه، كما أن المسيحيين كانوا معافين من الخدمة العسكرية، ولذا كان يشكك فى صدق حسهم الوطنى، ورغم ذلك نمت الجالية المسيحية وزاد أتباعها من العبيد والطبقات الفقيرة التى وجدت دعوة المسيح صدى كبيرا لديها.

ولكن بعد أن أصبحت حقبة تتبع المسيحيين واضطهادهم تاريخا قديما، وسادت الطمأنينة بين أهل الدين المسيحى ظهرت الفرقة بينهم ، فبعد موت مارسيلينوس عام

٣٠٤م استمر عرش البابوية خاليا لمدة أربعة أعوام لأن الجالية المسيحية انشغلت بقضية جزاء المرتدين عنها ثم عائدين لها : هل يدفعون غرامة أو جزية أم لا ؟ وكان أيضا وقت انتشار الخرافات، لذا لم يكن لاختيار بابا جديد أى أولوية.

كما ظهرت المنافسة الشديدة بعد موت البابوات. فمثلا عندما مات ليبيريوس عام ٣٦٦ رشحت مجموعتان من المسيحيين خلفاء له:

اورسينيوس وداماسوس.. وبعد سلسلة من حروب العصابات احتمى مؤيدو اورسينيوس بكنيسة سانتا ماريا ماجيورى المشهورة باسم «سيدتنا الحبيبة فى الثلج» .. قصد مؤيدو داماسوس إلى سطح الكنيسة ودمروه وقذفوا مؤيدى اورسينيوس بالحجارة، كما هاجم فريق منهم بوابة الكنيسة واستمرت بعدها المذابح لمدة ثلاثة أيام نتج عنها ١٣٧ جثة كلها لمؤيدى أورسينيوس.

وهكذا انتصر داماسوس ولكن ظلت تلك المجزرة نقطة سوداء فى تاريخه، ولكى يخفف من حدتها كان أول من أطلق على نفسه لقب«خليفة بترى» وذلك للتأكيد على مكانته الروحية.

وابتعدت الكنيسة شيئا فشيئا عن الناحية الروحية واتجهت للدنيا وزخرفها وأصبح لقبا «بابا روما» و«أسقف روما» لايرمزان فقط لمنصب دينى إنما أصبحا دلالة الثراء والجاه والسلطة.

ولذلك عندما عرض داماسوس على عمدة روما أن يدخل المسيحية أجاب: «بكل سرور بشرط أن تجعلنى أسقفا لروما».

وهكذا أصبح الدين وسيلة من وسائل نيل متع الدنيا، وأصبح البابا الذى وصل لمنصبه بقوة الدولة فى حاجة دائمة لمساندتها للاستمرار فى منصبه. وكانت قوة المال والرشوة أيضا من أساليب الوصول لكرسى البابا وليست قوة السلطة فقط، وكانت مدة حكم البابوات فى تلك الفترة لاتزيد على ثلاث أو أربع سنوات إما لكبر سن من فازوا بهذا المنصب عن جدارة فلم يتسع العمر للاستمتاع بهذا المنصب أو لأنه كان يتم قتلهم سواء بالسم أو غيره من قبل أعدائهم، والمنافسين لهم، وبذلك تكون استمرارية البابوية أو أى إنجاز أتمته بمثابة معجزة كما قال ريتشاردز ورغم كل ذلك كانت تلك

العصور هى العصور الذهبية للكنيسة: عصور البراءة والنزاهة بالمقارنة بما تبعها من حقب.

وثيقة مثيرة للدهشة

بانتقال البلاط الملكى عام ٣٣٠ إلى القسطنطينية بدلا من بيزنطة، كان عهد تدخل الأساقفة فى شئون الدولة والأمور الدنيوية قد قطع شوطاً بعيدا، وقد ظهر ذلك جليا خلال عهد البابا ليو الكبير (٤٤٠ ـ ٦١) الذى أنقذ مدينة روما بشجاعة ضد أتيللا الغازى ، وكذلك شهد التاريخ للبابا جريجورى الكبير بأنه كانت له حنكة سياسية ودراية بأمور الدنيا توازى عمق معرفته وخبرته بأمور الكنيسة ، وأدى ذلك الدور المزدوج إلى نشوء وتضخم البيروقراطية. ونحن لانقول إن أعمالهم تلك لم تكن جليلة أو مفيدة وإن كانت البساطة التى هى عماد المسيحية قد اختفت إلى الأبد من روما.

وعندما ضعفت العلاقة بين البابا والسلطة الحاكمة نتيجة انتقالها إلى القسطنطينية، كان لابد للكنيسة من البحث عن طريقة بديلة لحمايتها وحماية روما عسكريا خاصة بعد مجيء قبائل اللومبارد عام ٥٦٨ والذين لم تولهم الكنيسة ثقتها أبدا رغم تحولهم للمسيحية خاصة بعد ازدياد أملاك الكنيسة التى تحتاج للحماية.

وعلى ذلك فبعد عام واحد من اعتلائه كرسى البابوية سافر ستيفان الثالث إلى الشمال لمقابلة ملك الفرنجة بيبين وكانت هذه أول مبادرة – من كثير– من بابا روما لطلب الحماية العسكرية من الخارج للكنيسة . وقد قام بها ستيفان الثالث وهو يرتدى عباءة سوداء ويغطى شعره بالتراب والرماد راكعاً على ركبتيه أمام بيبين، وهناك فى كنيسة سان دينيس بارك ستيفان الثالث بيبين وابنه كارل الأكبر «كبطاركة الرومان» *.

وفى هذه المقابلة ناول البابا الملك بيبين وثيقة «الهدية القسطنطينية» ولتلك الوثيقة قصة. فقد أصيب القيصر قسطنطين بمرض الجرب الذى انتشر فى جميع أنحاء جسده، ولعلاجه حفر رجال الدين الوثنيين بئراً كان عليهم أن يملئوه بدماء الأطفال

* لم يكن للبطريرك وقتها أى دلالة دينية إنما تدل على الحماية وعظم الشأن .

ليستحم فيه القيصر وهو لم يزل ساخنا فيشفى، وسيق الأطفال وأمهاتهم الباكيات للذبح ولكن القيصر لم يحتمل ذلك المشهد وردهم إلى منازلهم محملين بالهدايا، ثم رأى فى منامه أن البابا سيلفستر هو الذى لديه دواؤه وسيكون شفاؤه عن طريق المسيح وأكملت الرؤيا أن عليه إن شفى أن يزيد عدد الكنائس ويحميها فى كل الدنيا وأن يتحول للدين المسيحى.وقد كان، فقد شفى القيصر من مرضه وأوفى بعهده وزاد عليه«الوثيقة القسطنطينية» التى بموجبها أعطى للبابا سلطات دنيوية ودينية واعترف بأن مكانته أعلى من مكانة القيصر الدنيوية فقط ونصبه رئيسا لكاتدرائيات أنطاكية والاسكندرية والقسطنطينية وأورشليم وجميع كنائس الدنيا.

وقد اقتنع بيبين عن طريق هذه الوثيقة بعظم مكانة« خليفة بترى وقسطنطين معا». ولما كان القيصر قد قام على خدمة البابا فقد أعطى بذلك مثلا لكل من تبعه فى القرون التالية بإظهار خضوعهم وقلة شأنهم أمام البابوات أثناء مراسم تنصيبهم. واسترد بيبين فى غزواته جميع الأراضى المسلوبة من الكنيسة طبقا للوثيقة القسطنطينية. قارن تلك الممتلكات واتساعها وحرص البابوات على حمايتها عسكريا ، بممتلكات يسوع المسيح الذى لم يمتلك سوى الملابس الرثة التى على جسده!

وعندما استسلم الأيرلنديون عام ١١٧١ للملك هنرى الثانى الذى جاء لغزوهم، ختم البابا الكسندر الثالث على وثيقة التنازل بختمه تعبيرا عن موافقته على أن يحصل على ريعه السنوى عن هذه الموافقة ، وكان هذا هو ثمن موافقة الكنيسة الرومانية على انتقال أعرق الدول الكاثوليكية إلى الإنجليز النورمان!!

ولكن كان هناك ما هو أدهى : فقد كانت الوثيقة القسطنطينية مزورة وضعها أحد القساوسة للبابا ستيفان الثالث قبل رحيله لمقابلة الملك بيبين. ولم يكتشف أمرها إلا عام ١٤٤٠ عن طريق لورنزو فالا الذى أظهر أن البابا فى ذلك العهد لم يكن سيلفستر وإنما ميليتادس وأن الوثيقة تظهر القسطنطينية على أنها عاصمة الشرق مع أن اسمها فى ذلك الحين كان لايزال بيزنطة وأن اللغة المكتوبة بها الوثيقة ليست باللاتينية الكلاسيكية (لغة ذلك العصر) ولكن بأسلوب أقل رقيا استخدم فى زمن لاحق متأخر عن هذا العهد وهكذا مضى فالا فى تمزيق دعائم هذه الوثيقة إربا حتى لم يعد هناك شك فى عدم صحتها .

وقامت الدنيا - وعلى رأسها الكنيسة - على فالا الذى أصر على موقفه قائلا :« إننى كنت أعلم أننى سأتعرض لهذا لأننى تعرضت بحديثى للأحياء وليس للأموات، ولكن إن كان الناس يحمون أوطانهم فى الدنيا الزائلة ويستشهدون فى سبيل ذلك أفلا أضحى أنا بنفسى فى سبيل دنياى الحقيقية؟!»

ورغم أن مارتن لوثر نشر الكتاب بصورة واسعة عام ١٥١٧ حتى عرف الجميع واقتنعوا بصحة هجوم فالا، إلا أن الكنيسة ظلت على رأيها أن الوثيقة صحيحة وأصيلة رغم أن الأسباب التى أوردتها فى الدفاع عنها كانت أوهى بكثير من أسباب الهجوم عليها.

أما حقيقة قصة تعميد القيصر قسطنطين فهى كالتالى:

فقد حرمت الكنيسة سفك الدماء فى سبيل أى غرض، ولأن قسطنطين كان سفاكا للدماء وجنديا محاربا غازيا فى المقام الأول، فقد أجل تعميده حتى رقد فى فراش الموت ولم يعد قادرا على الإيذاء وسفك الدماء، وقام بتعميده أسقف أدريانى مشهور بالخرافات اسمه يوسيبيوس وقد مات قسطنطين عام ٣٣٧ فى عيد الفصح وعلى ذلك فعندما أطلق قسطنطين على نفسه لقب «كبير الأساقفة» لم يكن مسيحيا، لكن لم يكن هناك من يضاهيه أو يقترب منه فى السلطة ليعارض ذلك حتى أسقف روما كان من رعايا الملك، ودينياً كان بالنسبة للملك أسقفا من الدرجة الثانية يحمل تميزا خاصا لأنه يجلس على كرسى بترى وبطرس، وكان القيصر هو رأس الكنيسة وليس البابا، وعلى ذلك كان البابا هو الذى يركع أمام الملك ويوقره. وما يزيد الطين بلة أن قسطنطين كما بنى العديد من الكنائس فى فلسطين بنى أيضا فى نفس الوقت العديد من المعابد الوثنية فى القسطنطينية، وكما قال أسقف معاصر وقتها« كانت الكنيسة جزءا من الدولة وليس العكس بالعكس» وبإنشاء «مجلس جميع المذاهب المسيحية» الذى رأسه قسطنطين زادت قبضته على الكنيسة وأصبحت الكنيسة كمؤسسة سياسية هى الأهم وليست المسيحية والدين المسيحى، وغنى عن القول إن قسطنطين كان يفرض آراءه على ذلك المجلس بما فى ذلك وجهات نظره الدينية وخرج بذلك عن تعاليم المسيح الذى فضل أن يصلب على أن يفرض دينه على أحد..

منذ خروج الوثيقة القسطنطينية المزورة إلى النور عاش البابوات عيشة الملوك: فسكنوا القصور ولبسوا أفخر الحلل وكانت لهم أطماع وتوسعات وأملاك، وأصبح الملك مثلهم الأعلى وطموحهم الكبير.

لقد أرادوا الفوز بالدنيا والدين معا وودوا لو يرأسون الدولة كما يرأسون الكنيسة، ولكن بعض الملوك الرومان وقفوا لأطماعهم بالمرصاد.

الامبراطورية الرومانية المقدسة

فى عام ٨٠٠ م عند تنصيب كارل الأكبر ملكا لفرنسا، ألبسه البابا ليو الثالث التاج وباركه وأعلنه ملكا وقيصرا لروما والغرب بعد أن كان سلطانه قاصرا على فرنسا والشرق فقط.

وبتلك اللفتة الصغيرة رفع ليو الثالث منصب البابا فوق منصب القيصر فقد جاء كارل معتقدا أنه يلبى نداء كنيسة روما لحمايتها وإنقاذها من الأخطار المحدقة بها ثم يتوج ملكا مظفرا. أما أن يباركه البابا- الذى كان يعتبر فى مرتبة تالية له ـ وينصبه ملكا ويلبسه التاج فلم يخطر له على بال.

وعن طريق هذه التمثيلية الصغيرة، مهد البابا لفوز الكنيسة فى صراعها مع الدولة، وكان ذلك بداية الامبراطورية الرومانية المقدسة التى لم تكن امبراطورية ولارومانية ولا مقدسة.

وهكذا لم يكتف البابوات بحماية الرب لهم، وإنما طلبوا حماية الملوك ظانين أنهم بذلك نجوا من أخطار الدنيا وجهنم الآخرة.

ولكن الذى قربهم لجهنم لم يكن عوامل خارجية وإنما داخلية وبالتحديد من البابوية ذاتها.

الفصـل الثالث

الفضائح الجنسية للبابوات

في القرن العاشر الميلادى ولمدة قرن ونصف لم تشهد الكنيسة بابا واحدا تقيا أو ورعا، بل كانت هذه هى فترة ازدهار فضائح الكنيسة ومساوئ البابوات، وإذا كان آل بورجيا قد فازوا بنصيب الأسد فى سوء السمعة فإن ذلك لا يعنى بأى حال أنهم كانوا أسوأهم حالا. كان هم البابوات فى تلك الفترة هو جمع المال بالطرق المشروعة وغير المشروعة، وإقامة علاقات آثمة مع زوجات الغير أو بناتهم. وهكذا لم تكن الردة الوثنية أو الخرافات الدينية هى التى أدت إلى تدهور حال الكنيسة، بل كانت البابوية ذاتها هي السبب الرئيسى والمباشر ولذلك يبقى لغز بقاء وتماسك الكنيسة ، رغم وجود البابوية، بلا حل.

وبانتشار السلوك الشائن للبابوات انتشرت أيضا جرائم قتل أزواج ضحاياهم لهم ، مثلما قتل زوج غيور البابا بنديكت الخامس، وكان هناك أيضا البابوات المصابون بالجنون التام مثل ستيفان السادس الذى نبش قبر سلفه فورموسيس وقام بمحاكمته بعد أن ألبسه حلته كاملة ثم أمر بإغراقه فى النهر بعد إدانته.

وهناك بابوات تمت مساعدتهم على الوصول لهذا المنصب - بطرق غير شريفة بالطبع - وأهم مثل يحضرنا في هذا المجال هو ماروزيا التى كانت عشيقة البابا سرجيوس منذ أن كانت في الخامسة عشرة من عمرها وولدت له ولدا كرست حياتها لتوصيله إلى كرسى البابوية.

الغانية الجميلة

وقد كان، فوالدتها أوصلت أحد أساقفة بولونيا إلى أن يكون البابا يوحنا العاشر، وعندما غزا آل البريش الشماليون البلاد أوعز البابا يوحنا إلى والدتها أن زواج ابنتها من أحد آل البريش سيكون له نفع كبير، ولم يكن هناك ما يمنع ذلك فالبابا سرجيوس مات منذ زمن، وماروزيا جميلة جمالا أخاذا لا يرفضه أحد. وتزوجت البريش الكبير وولدت البريش الصغير، وعندما مات البريش الكبير خلال محاولته الاستيلاء على العرش وماتت أم ماروزيا، قامت ماروزيا بسجن البابا يوحنا العاشر ـ زوج أمها ـ ثم قامت بخنقه ، وكان ابنها الأكبر قد بلغ عامه السابع عشر مما يؤهله للاستعداد لمنصب البابوية الذى ناله فى سن العشرين وأصبح بذلك البابا يوحنا الحادى عشر . ولكن كل هذا الجهد راح أدراج الرياح بسبب غيرة ابن ماروزيا الأصغر ـ البريش الصغير ـ فقد استولى على الحكم فى روما وكان أول ما فعله أن قام بسجن أخيه غير الشقيق ـ البابا يوحنا الحادى عشر وأمه ماروزيا عقابا لها على انحيازها له طوال عمرها وتناسيها لابنها الأصغر ، أما يوحنا الحادي عشر فقد مات فى سجنه بعد أربع سنوات فقط فى حين ظلت ماروزيا فى الأسر لمدة خمسين عاما دون أن تسترد حريتها ولو ليوم واحد.

وعند بلوغها الستين علمت أن ابنها الأصغر البريش مات فى سن الأربعين وأن ابنه ـ حفيدها اوكتافيان ـ قد أصبح البابا الجديد يوحنا الثانى عشر وذلك فى عام ٩٥٥، وكان أوكتافيان هذا ـ حتى بالنسبة لفجور عصره ـ مثلا صارخا ، إذ قام بابتداع جرائم وأنواع جديدة من الآثام ، فعاشر أمه معاشرة الأزواج ، وأهدى ممتلكات الكنيسة للغانيات صديقاته، وكان يملك ألفى حصان يطعمها تينا وخمرا، وعبد علانية آلهة الرومان الوثنية ، أما مطارداته للنساء فذاع صيتها حتى أصبح الذهاب لكنيسة لاترنو يعد نوعا من المخاطرة بالنسبة لهن، وقد أحس يوحنا الثانى عشر بهياج الرأى العام ضده ، فسلب ما تبقى من أموال الكنيسة وهرب إلى تيفولى ولما لم يرق وجوده هناك لملك المقاطعة أمره بالرحيل فورا، واجتمع مجلس كنسى وواجه البابا بجرائمه والتهم الموجهة له، ولكن البابا لم يكترث لهذا الأمر وأعلن للقساوسة المجتمعين أنه يمكنه خلع رتبهم عنهم إذا أصدروا أى بيان ضده، ولما أعلن ملك المقاطعة تهديده الصريح له، أرسلت له العائلة جيشا لمرافقته عائدا إلى روما حيث استعاد منصب البابا وانتقم من جميع أعدائه

شر انتقام.

وكانت نهايته ـ كما هو متوقع ـ على يد زوج غيور ضبطه فى وضع شائن مع زوجته فقضى عليه فى التو واللحظة فمات وعمره أربعة وعشرون عاما.

واستمرت الكنيسة على منوال فضائح البابوات: فالبابا يوحنا الثالث عشر اشتهر بقسوته وعنفه، وكان عقابه لأعدائه ومعارضيه أن يقتلع أعينهم، وفعل ذلك مع ما يقرب من نصف الشعب، ثم تلاه بنديكت الذى قتل أيضا بيد زوج غيور أثناء خيانته له مع زوجته، أما مؤرخو هذا العصر كالكاردينال بارونيوس فلم يكن هناك مجال بالنسبة لهم لإنكار ما يحدث أو محاولة تمجيد البابوات كما كان يفعل من قبل، فقد اعترفوا بشرورهم واعتبروهم دخلاء على كرسى بترى. ولم يكن التساؤل خلال هذا العهد هو «كيف يمكن إنقاذ الكنيسة» بل كان «كيف يمكن إنقاذ البابا من نفسه»؟ عايشت ماروزيا كل تلك الأحداث حتى بلغت التسعين وما بعدها فقرر البابا جريجورى الخامس (وكان عمره ثلاثة وعشرين عاما) وابن خالته القيصر أوتو الثالث (وكان عمره خمسة عشر عاما) ـ أن يتم تبرئتها من جميع التهم الموجهة إليها استعدادا لشنقها وقد تم ذلك فى ربيع عام ٩٩٦.

البابا الطفل

فى عام ١٠٣٢ تم «شراء» منصب البابا لبنديكت التاسع وكان عمره وقتها أحد عشر عاما ومثلما تولى هذا المنصب مبكرا بدأ فساده ومغامراته النسائية مبكرا وقد كتب عنه المقدس بطرس داميانى: «هذا المسكين غاص فى الخطيئة منذ بداية توليه لمنصبه وحتى نهاية عمره» وكتب آخر يصفه «شيطان من جهنم فى زى قس يجلس على كرسى بترى».

وقد اضطر هذا البابا الطفل إلى ترك روما والهروب عدة مرات، أولها خلال الاحتفال بعيد القديسين بولس وبطرس عام ١٠٣٢ ثم مرة ثانية وتم إعادته عن طريق جنود القيصر كونراد ثم تم طرده مرة ثالثة عام ١٠٤٥ وفر إلى موطنه الأصلى توسكولوم وانتخب الرومان البابا سيلفستر الثالث بدلا منه ولكن عائلة بنديكت أعادته لكرسى البابوية مرة أخرى وأقنعت سيلفستر بمنصب آخر فى مكان آخر. ولكن

بنديكت قرر فجأة أن يعتزل البابوية طائعا مختارا وكان السبب يكمن فى ابنة خالته التى أعجب بها وأراد الزواج منها، وتم ترشيح أشبينه يوحنا جراتيانوس خلفا له ، ولكن بنديكت لم يكن قد تخلص من عاداته السيئة بعد فقد طالب جراتيانوس بخلو رجل لهذا المنصب وعندما نال ما طلب تنازل عن الكرسى وسط بهجة عارمة من الشعب ومنه هو شخصيا وكان ذلك عام ١٠٤٥ .

وهكذا بدأ جراتيانوس ـ والذى لقب بالبابا جريجورى السادس ـ فترة رئاسته للكنيسة وسط موجة نقد شديدة لأنه كان أول بابا يشترى منصبه من بابا آخر ، ولكن منطق جريجورى الذى رد به على مهاجميه كان : أنه اشترى خلاص الكنيسة من الفساد.

بدخول هينريش الألمانى الساحة وفى طريقه إلى روما طالب جريجورى بالتخلى عن منصبه شاكرا له إنقاذه للكنيسة من فساد بنديكت ، أما هو فقد كان لديه مرشحه هينريش كليمنس الثانى وكما هو متوقع تم تتويج هينريش قيصرا لروما، وخلال ذلك الاحتفال أكد هينريش على أنه هو الرأس الأكبر للمسيحية وأن البابا لايعدو أن يكون تابعا له، وفى طريق عودته لموطنه ألمانيا اصطحب القيصر البابا السابق جريجورى معه منعا لحدوث أى مشكلات إبان غيابه.

وبموت جريجورى شبه منفى وموت اختيار القيصر البابا كليمنس ، دخلت الساحة مرة أخرى لبنديكت الذى طمع فى المنصب مرة أخرى بعد فشل مشروع زواجه من ابنة خالته ، ودام توليه للمنصب هذه المرة ثمانية أشهر ، ثم أرسل هينريش حملة تأديبية له أجبرته على التنازل وتولى البابا داماسوس الثانى منصب البابا الذى لم يعمر فيه طويلا فقد مات مسموما ـ كما قيل ـ من بنديكت ، وخلت الساحة مرة أخرى أمام بنديكت إلا أنه كان قد فقد الرغبة فى هذا المنصب واعتزل فى دير جوتا فيراتا .

فى هذه اللحظة التاريخية أسبغ الله رحمته على الكنيسة ، وكأنما نالت نصيبها من البابوات سيئى السمعة ، فقد أنعم الله عليها باثنين من أفضل البابوات وأعظمهم فى تاريخ الكنيسة: البابا جريجورى السابع والبابا اينوسنس الثالث.

الفصل الرابـع

فترة ازدهار البابوية

في عام ١٠٧٣ خلال مراسم دفن القيصر الكسندر الثانى، نادت الجماهير بهيلد براند بابا للڤاتيكان، الذى أصبح اسمه فيما بعد البابا جريجورى السابع، وقد عاش هذا البابا ومات تطارده ذكرى خلع وإهانة سميه جريجورى السادس عام ١٠٤٦، فقد رافقه جريجورى السابع إلى منفاه بألمانيا، وأخذ على نفسه عهدا يومها أن يفعل ما باستطاعته ألا يكون للملوك والقياصرة سلطان على البابوات وقد كان. فقد كان طلبه موافقة القيصر هينريش الرابع على تنصيبه بابا هو آخر موافقة يطلبها بابا من قيصر، وكان الفضل فى ذلك يرجع له هو. فقد كانت وجهة نظره أن الحق والعدل يقضيان أن يكون البابا أعلى مقاما من القيصر: فالقيصر مهما علا شأنه وزاد سلطانه يطلب من أى قس وقت وفاته الاعتراف والمباركة. فهل يستطيع أى ملك أن يمنح أى قس الغفران والبركة؟

وإذا كانت هذه هى قدرات أى قس عادى فما بال رأس الكنيسة وراعيها؟ إن المنطق يدعو بلا جدال إلى نتيجة حتمية هى أن البابا أعلى مكانة بكثير من القيصر.

جريجورى السابع ومدرسة التزوير

عندما تولى جريجورى السابع منصب البابا، أصدر قائمة تضم سبعة وعشرين نقطة تحدد كلها سلطته كخليفة لبترى منها على سبيل المثال :

١ـ لايحق لأى كائن كان أن يقيم البابا.

٢ـ الكنيسة الرومانية لم ولن تخطئ أبداً.

٣ـ البابا فقط له سلطة خلع الأساقفة .

٤ـ البابا وحده له حق خلع الملوك والقياصرة وحاشيتهم.

٥ـ على كل من الحكام وحاشيتهم أن يقبلوا قدمى البابا.

٦ـ نواب البابا أعلى شأنا من أى رجل دين آخر.

٧ـ البابا الواصل لهذا المنصب بالطرق الشرعية هو بلا جدال قديس بشفاعة بترى .

وقد أوضح جريجورى السابع أن تلك الحقائق أوحيت إليه أثناء مراسم تقلده لمنصبه. ولا يعرف حتى اليوم بالضبط إن كان جريجورى واعياً لكم التزوير الذى قام به، والأحوط أن نقول إن استهانته وعدم تحريه الدقة فى هذا المجال كانت منذرة بخطر عظيم، وبذلك أكد جريجورى على قول الإغريق القديم«إن روما هى عاصمة التزوير».

ولم تكن وثائق جريجورى المزورة على منوال الوثيقة القسطنطينية ، إنما كان هناك طاقم جاهز لخدمة أغراضه بتزوير أى وثيقة لتبرير مواقفه، وكان رئيس هذا الطاقم أسلم من لوكا، وعندما كان هذا البابا بصدد اتخاذ أى إجراء ضد أى من العائلة المالكة مثلا ، كان على هذا الطاقم«تصنيع» وثيقة تؤيده فى هذا المجال، وقد وصل الأمر بجريجورى إلى حد تزوير الوثائق القديمة سواء أكانت مزورة أصلا أم لا، ووصل به حد التزوير إلى أن أصبحت بعض الوثائق تعنى عكس ما كانت تهدف إليه أصلا من كثرة العبث بها.

وهكذا قاد جريجورى أهدأ ثورة عرفها التاريخ فقد قامت كلها على الورق وما كانت لتتم فى عصر التنوير أو العلم، إنما ساعد عليها أنه كان عصر الأمية التى وصلت إلى أمية بعض الملوك والقياصرة والحكام. وهناك إحصائية تقول إنه من بين

٣٢٤ قولا مأثورا لبابوات الأربعة قرون الأولى الميلادية، هناك ١١ فقط هى الصحيحة والحقيقية .

وماذا كان موقف هؤلاء المزورين أنفسهم؟ لم يتحرك ضمير هؤلاء المزورين، أو يثور لديهم أدنى شك فى أنهم يقومون بجريمة من أى نوع، وإنما كان ما يقومون به من وجهة نظرهم هو خدمة العقيدة عن طريق تدخل بسيط فى حقائق التاريخ. وماذا يضير التاريخ لو استخدم لصلاح الناس والعقيدة التى تمثل أهم ما فى حياة البشر؟ وهكذا تم تقنين التلاعب بالتاريخ، واستخدم كأداة للوصول إلى الأهداف وليس كهدف فى حد ذاته.

وحتى وصول جريجورى لمنصبه كان موضوع عزوبة رجال الدين في طى النسيان، فأعاده هو للأذهان بكل قوة بأن أمر القساوسة إما بأن يفترقوا عن زوجاتهم وأولادهم أو يتركوا منصبهم، وأدى ذلك إلى نتيجتين، أولاهما: أن نسبة انتحار الزوجات السابقات للقساوسة زادت بصورة كبيرة، حيث تم هدم منازلهن وأسرهن بين يوم وليلة، وحيث فضل أزواجهم مناصبهم على أسرهم. ثانيتهما: زيادة العلاقات الآثمة حيث إن رجال الدين اتجهوا من العلاقات الزوجية الشرعية إلى غيرها أيضا للاحتفاظ بمناصبهم .

الكارثة الكبرى

لقد انتظر البابا جريجورى السابع قرابة الثلاثين عاما حتى يخلق مواجهة بينه وبين القيصر، وأخيرا اتهم هينريش الرابع علنا بالتدخل فى شئون الكنيسة، واندهش هينريش حقيقة: فهو لاينكر أنه يتدخل فى شئون الكنيسة، ولكنه يفعل ذلك كما فعله كل القياصرة منذ عهد قسطنطين، وألم يكن جريجورى بنفسه هو الذى طلب منه تأييد تنصيبه بابا للفاتيكان؟

ورد القيصر على ذلك الاتهام بأن أعلن أن اختيار البابا جريجورى السابع غير صحيح، وأنه لم تتم استشارته فيه، أما رد البابا عليه فكان أعنف، فقد أصدر أمرا يمنع

القيصر من حكم إيطاليا وألمانيا، وأنه يجعل جميع من أقسموا له بالولاء فى حل من يمينهم، كما أن كل من يعتبر هينريش ملكه سيعتبر مرتدا عن الدين.

وكانت هذه هى القنبلة التى فجرها البابا: فعلى مر العصور كان الملوك والقياصرة هم الذين يخلعون البابوات ويبدلونهم فماذا كان سيحدث هذه المرة؟

أصيب هينريش بالفزع: فقد وجدت دعوة البابا صدى فى ألمانيا وفى آل القيصر نفسه، فوالدته وابنة عمه فى صف البابا، والأمراء بدأوا يحلون أنفسهم من يمين الولاء له، كما أن البابا لجأ إلى حيلة أكثر دهاء فقد آزر رودلف خصم هينريش ومنافسه على العرش. وكان القيصر واقعيا فحزم أمره أن يعقد اتفاقا وسلاما مع البابا، ورحل إلى إيطاليا فى شتاء عام ١٠٧٧ ، وهناك تقابل مع البابا فى بلدة كانوسا التى كانت تحيط بقلعتها ثلاث طبقات من الأسوار، وقد وضع البابا.شروطه فى ذلك المكان ومنها: أن يضع القيصر تاجه وكل دلائل ملكه تحت تصرف البابا، وأن يعلن أنه لايستحق أن يكون قيصرا بعد موقفه المخزى مع البابا، وأنه يقبل أى جزاء يقرره البابا لعله يكفر عن ذنبه. وبين طبقات الأسوار فى فناء القلعة أمره البابا أن يخلع ملابسه الملكية، وأعطاه ملابس رثة مهلهلة لارتدائها فى ليل الشتاء البارد ثم أعطاه البابا مقصاً كبيرا ومكنسة دليلا على مهانته واستعداده للتأدب، وتركه البابا على هذا الوضع لمدة ثلاثة أيام فى العراء صائما شبه عار، حتى توسطت له ابنة عمه التى كانت تحكم تلك المدينة.

أما المحرك وراء قسوة البابا فكانت ذكرياته عن البابا جريجورى السادس الذى أهانه والد هينريش. وأمر البابا هينريش ألا يعود لممارسة سلطانه، وأن يطلب الغفران والصفح من البابا. ولكن هينريش لم يطلب سوى رفع لعنة البابا عنه، فرغم كل شيء كانت له كرامته، ولكن القيصر رد للبابا فعلته:فعندما عاد إلى وطنه عين أحد الأساقفة بابا لروما ـ كليمنس الثالث ـ وأوصله إلى روما بنفسه رغم أن جريجورى السابع تنبأ له بالموت خلال عام واحد عقابا له على مخالفة أوامره. وفر جريجورى إلى سالرنو بنابولى

حيث مات فى ٢٥ مايو عام ١٠٨٥، ورغم كل ذلك فللبابا جريجورى مكانة عالية بين الكاثوليك فقد حارب سوء أخلاقيات البابوات، وهو الأب الروحى والشرارة البادئة للمذهب الكاثوليكى الرومانى، كما أنه كان واضح الاتجاه وكان واثقا من رأيه دائما ثقة لاتشوبها شائبة، ولكن يؤخذ عليه أنه هدم علاقة الترابط بين الكنيسة والسلطة الحاكمة ، فقبله ـ مهما ساءت الأحوال بينهما ـ فإنها لم تصل إلى حد الحرب العلانية أبداً. أما هو فبالمثل الذى أعطاه لغيره من البابوات، فقد فتح بابا جديدا لأتباعه: فخلال المائة عام التالية له تم خلع وإعلان ثمانية ملوك مرتدين عن الدين ، كما أن المؤرخين أرجعوا أسباب خمسة وسبعين معركة حربية إلى مواجهة البابا جريجورى السابع مع هينريش القيصر.

وفوق ذلك فقد غير البابا جريجورى السابع لقب أساقفة روما من «خلفاء بترى» إلى «خلفاء المسيح» ، وبذلك ثبت سلطة البابوات غير القابلة للمناقشة أو النقد حتى عندما عادت أحوال البابوات إلى التدهور أخلاقيا خلال عهد آل بورجيا مثلا .

اينوسنس الثالث حاكم العالم

كان حفل تنصيب اينوسنس الثالث مثلا لتغير حال الكنيسة، فبدلا من أن يلبس عباءة البابوية بيضاء اللون ارتدى عباءة الملك المرصعة بالجواهر، وتغيرت كلمات التنصيب التى يتلوها أحد الأرشدياكونات فأصبحت « تسلم هذا التاج واعلن أنك أبو الملوك والقياصرة وحاكم العالم خليفة المسيح فى الأرض» . وبما أن اينوسنس عاصر جريجورى السابع بل وكان من أتباعه المقربين فإنه لم يستغرب هذه الكلمات مطلقا بل لم يشك للحظة فى صحتها ثم امتطى اينوسنس جواده المرصع بالجواهر، وانطلق عبر المدينة قاصدا كنيسة لاترنو. وفى الطريق خرج رجل دين يهودى يعلن طاعته للبابا فلم يعامله البابا بسماحة المسيحية بل أعلنه أنه على الباطل وأمر أتباعه أن يوسعوه ضربا بعد أن يمضى هو فى طريقه. وبعد أن أقسم الأمراء والحاشية الملكية يمين الولاء

للبابا دعاهم إلى مأدبة حافلة جعلت هذا الحدث أقرب إلى تنصيب الملوك منه إلى تنصيب البابا. وبعد سنتين من تنصيبه كان هو الحاكم الفعلى لروما وليس القيصر، ولكن دوام الحال من المحال وليس كل ما يتمنى المرء يدركه، ففي مايو عام ١٢٠٣ تمرد شعب روما عليه، واضطره ذلك إلى الهروب مؤقتا إلى خارج البلاد، وفى العام التالى مرض مرضا شديدا منعه من متابعة التقارير الواردة من فرسان الحملة الصليبية الرابعة التى دمرت ونهبت مدينة القسطنطينية وكنيستها الشهيرة، ولم ينس الاغريق للرومان هذه الفعلة أبدا، وزاد اينوسنس الطين بلة حين عين قسا فينيسياً بطريركا لبيزنطة :

عندما عاد اينوسنس الثالث من منفاه كان نهمه للسلطة قد زاد بشكل كبير، وكان أكثر تصميما على أن يصبح حاكم الدنيا والدين والرأس الأكبر للدولة كما هو للكنيسة ، ولكن كيف يتأتى له ذلك؟

لقد وجد اينوسنس الثالث بعد تفكير عميق أن مفتاح الأمر يتلخص فى كلمة واحدة:«الخطيئة» فإنه إذا أقنع الناس بوجود ملك مخطئ فسيحلل له ذلك التدخل فى شئون الحكم برضا الجميع (وإن لم يكن ليهتم بهذا الأمر) وكان الاختيار الآخر أن يعين ملوكا يطيعونه فيما يطلب منهم. ودليل ذلك أنه اختار القيصر أوتو الرابع الذى كان أول من لقب (بملك الرومان المختار برحمة من الرب والبابا معا) ولكن عندما تمرد أوتو على مدى تدخل البابا فى شئون الحكم اعتبره البابا مرتدا عن الدين ، وعين قيصرا آخر بدلا منه. وبعده عين البابا أيضا الملك بيتر الأراجونى وملك انجلترا، وكان هذا إنجازا فى حد ذاته لأن جريجورى السابع بكل قوته وهيلمانه لم يستطع تعيين ملك لانجلترا أو حتى جذبه لصفه، فقد قاومه ويليام الفاتح وقال : «أنا أدين بملكى لله ولسيفى» أما الملك جون الذى خلف ريتشارد قلب الأسد عام ١١٩٩ فكان من عجينة أخرى.

فقد ضرب بأوامر الكنيسة ونواهيها عرض الحائط سواء فى حياته الخاصة أو حكمه كملك، وكان يتزوج ثم يحل نفسه من هذا الزواج بنفسه دون الرجوع إلى المشورة الدينية، وعندما كان البابا يبدى اعتراضا على تصرفاته كان يقدم له رشوة فى صورة مقنعة ، فكان يهب الكنيسة مبالغ طائلة من المال أو يبنى كنيسة جديدة .. الخ، حتى يسكت البابا عن أفعاله، وفى عهده تم إغلاق الكنائس واعتبر الدين شيئا غير قانونى وأخرست أجراس الكنائس قصرا وبذلك ارتدت انجلترا بلدا وثنيا ، واستمر الحال على هذا المنوال لمدة ست سنوات وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما.

وعندما فاض الكيل بالبابا اعتبر الملك مرتدا عن الدين عام ١٢٠٨ وبعدها بثلاث سنوات تم خلعه عن العرش ورشح فيليب ملك فرنسا خليفة له، وعندما تهيأ فيليب لذلك وجهز جيشه لعبور نهر السين طلب جون من الكنيسة إرسال مندوبها إليه للتفاوض وعقد الصلح، وتم عقد هذا الصلح فى ١٣ مايو عام ١٢١٣ الذى أعلن فيه جون أنه يهدى انجلترا نفسها إلى الرب وسيدنا البابا اينوسنس والكنيسة الكاثوليكية وختمه بخاتم من ذهب وتعهد أنه منذ هذا اليوم سيصبح هو وورثته حلفاء الكنيسة وأتباعها المخلصين المطيعين، وأن يدفع جزية مقدارها ألف مارك سنويا مقابل إبقائه على العرش.

ولكن فى عام ١٣٣٣ رفض الملك ادوارد الثانى دفع الجزية السنوية واعتبر أن اتفاق جون مع البابا كان ضد ولائه للعرش والبلاد، وعد ذلك لاغيا، وكان رأى أساقفة الكنيسة الكاثوليكية غير ذلك مما مهد تدريجيا إلى انفصال انجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية حتى اليوم ، وبالتحديد منذ عهد اليزابيث الأولى ملكة انجلترا.. وفى عام ١٢١٤ تم فتح أبواب الكنائس مرة أخرى ورجعت انجلترا إلى أحضان الدين المسيحى. وأدى تمرد البارونات ضد الملك جون إلى نشوء الماجنا كارتا وثيقة المساواة والحرية الانجليزية التى حفظت حقوق البارونات كممثلين للشعب فى مواجهة الملك، وأقرت أن الملك مساو لباقى الإنجليز أمام القانون وليس فوقه، كما أنه بمقتضاها أصبحت

القوانين معروفة وعلانية وليست سرية كما كانت من قبل. ولأن علاقة جون كانت قد تحسنت مع الكنيسة إلى حد كبير فقد لجأ إلى البابا طالبا عونه ولم يرده الأخير خائبا ، بل أصدر قراره أن هذه الماجنا كارتا ضد القوانين الأخلاقية ولعنها.

كما أن چون تشجع بتأييد البابا، وأعلن أنه ليس تحت رحمة البارونات ولكن تحت حماية ورحمة الرب والكنيسة فقط. وأعلن البابا مرة أخرى أن كل من يساند هذه الوثيقة فهو مرتد عن الدين (وعلى ذلك فكل الانجليز اليوم خارجون على المسيحية، إذ لم يتم العفو عنهم حتى اليوم) وعندما رفض ستيڤن لانجتون أسقف كانتربرى الموافقة على رأى الكنيسة تم عزله من منصبه وبانعقاد المجلس اللاترانى الرابع فى عام ١٢١٥ أحكم اينوسنس قبضته على الكنيسة، فقد أوجد نظاما جديدا للاعتراف بصفة دورية جعل العامة تحت سطوة القساوسة، والقساوسة تحت رحمة الأساقفة، والأساقفة تحت كامل سيطرته. استمر اينوسنس فى منصبه لمدة عشرين عاما أراق فيها الكثير من الدماء وخلع ملوكا وعين قياصرة ونشر الرعب بين أتباع الدين المسيحى، ولم يخسر واحدة من معاركه.

لقد أخطأ اينوسنس فهم معانى الكنيسة والبابوية، وحتى الفرق بين الخير والشر، ويدلل على ذلك إحدى مقولاته الشهيرة التى قال فيها:«كل رجال الدين ينبغى لهم أن يطيعوا البابا حتى لو أمرهم بالشر، إذ لا يوجد من يستطيع الحكم على البابا وتقييمه» واستمر البابوات بعد اينوسنس على نهجه من بطش وكبت للحريات، بل توسعوا فيها، فجريجورى التاسع مثلا(١٢٢٧ ـ ٤١) أعلن أن البابا سيد الكون والأشياء أما اينوسنس الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤) فقد أعلن أن تسمية الوثيقة القسطنطينية خطأ فإن البابوات قد توصلوا إلى سلطتهم الدنيوية منذ عهد يسوع المسيح، وليس منذ عهد قسطنطين. ويبقى البابا الذى نعته دانتى بالحيوان الأسود: البابا بونيفاس الثامن حتى يغلق ملف الدكتاتورية البابوية

الفصل الخامس

انحسار السلطة

اعتلى بنديكت جيتانى كرسى البابوية عام ١٢٩٤ ليصبح البابا بونيفاس الثامن ـ بونيفاس تعنى الوجه الحسن ـ الذى قال عنه الشاعر چاكوبون داتودى:

« لم يناسبه هذا الاسم أبدا فوجهه لم يكن حسنا » .

واشتهر عن بونيفاس أنه ذو نظرات باردة ولسان سليط، ولم يكن هناك من به عاهة سواء من العامة أو الكرادلة أو الأساقفة إلا وسلط بونيفاس عليه لسانه السليط، وكان ممثلا قديرا، يقرأ الصلاة بالدموع والخشوع وفور انتهائها يسلق الناس بسياط لسانه الحاد. وكانت النتيجة الطبيعية كما يقول بوويك:«أعجب به الكثيرون وخشى بطشه الجميع، ولم يحبه أحد» ومن مقولاته الشهيرة «إن صدر راعى الكنيسة الرومانية هو منبع كل القوانين لذلك وجبت الطاعة العمياء له حتي تستقر الأمور»، وقال له سلفه كولستين الخامس:«لقد قفزت على هذا الكرسى كالثعلب وستحكم كالأسد، وستموت كالكلب».

أما الطبيب الاسبانى الذى أنقذ حياته فكرهه الناس فى درجة تالية لكرههم له هو شخصيا،ولكن رغم كل هذا الاستقرار والثقة الظاهريين، فقد كان القلق ينتاب بونيفاس بسبب موضوع واحد، فقد كثرت الأقاويل إنه استولى على منصبه هذا بطريق الخديعة، وهى بحق إحدى أغرب قصص الكنيسة الكاثوليكية. بدأت عام ١٢٩٢

بموت البابا نيكولاس الرابع.

فلمدة سنتين بعد وفاته لم يستطع الأساقفة الإجماع على اختيار أحد لانقسامهم بين مرشحين، أما جيتانى فلم ينضم لأى الفريقين آملا أن يتم اختياره هو ولما لم يتحقق ذلك واستمر الوضع على ما هو عليه، مل جيتانى من الانتظار وقرر ـ كذبا ـ أنه تلقى خطابا من بطرس المورونى ـ الذى كان يعيش بمعزل عن الناس وكثرت الأقاويل عن قدسيته ـ بضرورة الاستقرار على اختيار بابا جديد، ولكن لم يتم الأمر كما اشتهى جيتانى للنهاية إذ عجل هذا الخطاب المزعوم باختيار بابا غيره: بطرس المورونى نفسه.

وفزع بطرس من تغير أحوال الكنيسة: من الغنى الفاحش الذى يعيشه رجال الدين وأملاك الكنيسة الكثيرة، ومن تدهور الأخلاقيات فى روما، حتى أنه طلب أن ينتقل مقره الرسمى إلى نابولى ، ولم يتمكن البابا من الاندماج فى المجتمع الجديد وعاش بمعزل عنه : فتجنب المآدب الفخمة مفضلا عليها كسرة خبز جافة، وابتعد عن عربات الخيل مفضلا السفر على ظهر حمار كما فعل معلمه الأول.

وتدخل جيتانى للمرة الثانية فأدخل ماسورة من خلال ثقب بحجرة البابا المتواضعة، وظل يهمس له طوال الليل لعدة أيام:« كولستين تنح عن منصبك .. إنه عبء كبير عليك» وكمحاولة أخيرة جمع البابا الكرادلة ورجاهم أن يبعثوا بخليلاتهم إلى الدير، وأن يعيشوا فى البساطة التى عاشها يسوع المسيح، وعندما قوبل هذا الطلب بالرد المتوقع تنحى البابا عن مكانه وعاد إلى صومعته وعزلته بعد أن استمر فى منصبه لمدة خمسة عشرة يوما فقط.

وتحقق بذلك حلم جيتانى فى عام ١٢٩٤ فتولى كرسى البابوية، وزيادة فى الاحتياط قام بسجن البابا كولستين فى قلعة فومون وهناك مات كولستين بعد عام ونصف العام فقط من الجوع والإهمال. وعندما أحس خطر مواجهة عائلة كولونا التى

كانت تعاديه ضيق عليهم الخناق حتى ركع أساقفتهم أمامه طالبين العفو عنهم. فلم يسلبهم بونيفاس حياتهم إنما سلبهم شرفهم؛ فطردهم من السلك الكنسى ودمر أختامهم ثم أمر بالهجوم على مدينة بالسترينا ـ معقل آل كولونا ـ وفى هذا الهجوم تم قتل أكثر من ٦ آلاف شخص وتدمير كل كنوز ومبانى المدينة، ولم ينج من هذا الدمار الشامل سوى الكاتدرائية. وبسبب هذه الفعلة الشنعاء التى تمت عام ١٢٩٩ وضع دانتى بونيفاس الثامن فى الدرك الأسفل من النار.

وبعدها بثلاث سنوات فى عام ١٣٠٢ كانت هناك مشكلة أخرى تؤرق البابا: فعلاقته بالملك فيليب الجميل ملك فرنسا لم تكن على ما يرام: فالملك فيليب ملك«غير مطيع» ولا يتعظ بالتهديد، بل إنه زاد فألقى القبض على أحد الأساقفة، فقرر البابا أن يلجأ لسلاحه الأخير: كتاب يوجهه من الكنيسة ضد الملك.

وبعد أن أتم كتابة ونشر هذا الكتاب تمنى كثير من الكاثوليك، وبينهم عدد من الأساقفة ألا يكون قد كتبه أبداً.

الكتاب البابوى وصليل السيوف

كان بونيفاس يهدف بكتابه هذا أن يؤكد مرة أخرى مكانة الكنيسة وسلطتها، وفى هذا المجال خطر له حديث السيفين ليسوع المسيح، فعندما قال له الحواريون: «هذان سيفان» لم يقل لهما: «وهذا كثير» وإنما قال:«هذا يكفى» ودون بونيفاس تحليله لهذه الكلمات فقال إن السيفين يرمزان للسلطتين الدينية والدنيوية، وإنهما ليسا على مستوى واحد، وإنما لهما نفس الهدف: خدمة الكنيسة ، فالسلطة الدينية تخدم نشر الدين وقوته، والسلطة الدنيوية تخدمها وتساعدها فى هذا الشأن، وتعمل السلطة الثانية تحت إمرة الأولى، كما أن السلطة الدينية لها حق تقييم السلطة الدنيوية وبيان الخطأ والصواب لها.

وكما قال جيريمايا :«اليوم نصبتك على الشعوب والممالك». وفى محاولة أخيرة

لتأكيد سلطته الدكتاتورية كتب يقول: «نحن نؤكد أنه يجب على كل مخلوق أن يكون تابعا لراعى الكنيسة الرومانية حتى ينال الخلاص».

ولكن هدف البابا من هذا الكتاب لم يتحقق : فالملك فيليب وبلاطه ثاروا ثورة عارمة على هذا التهديد السافر، ونشر فيليب خبر إقالة البابا لسلفه وكيف مات كولستين جوعا فى محبسه الذى سجنه فيه بونيفاس.

وبذلك أقام الرأى العام ضده ثم وضع خطة مع مستشاره نوجاريه تقضى باختطاف البابا وترحيله إلى فرنسا وتقديمه للمحاكمة أمام مجلس عام يقضي بتنحيته عن منصبه فوراً.

وخلال أسابيع تم الإعداد لتنفيذ هذه الخطة. وتم تنفيذها بستمائة من الفرسان وألف من مشاة الملك فيليب وخيانة حارس أبواب المدينة.

واندهش البابا لجرأة الملك الذى لم يرتدع لتهديدات رأس الكنيسة، وفى نفس الوقت طالب أعيان المدينة بمساندته واعداً إياهم بمكافآت طائلة ولكن بلا جدوى وضاق الخناق على البابا حتى بدأ جيش الملك فيليب يملى شروط الاستسلام على البابا ومنها: أن يعيد أساقفة آل كولونا للكنيسة، وأن يتنحى عن منصبه ويسلم نفسه كلية لشيارا كولونا (أحد حلفاء الملك فيليب من آل كولونا) بدون شروط.

وبالنسبة لبونيفاس الثامن وهو رجل ذو غرور وزهو فلم يعنِ هذا سوى مواصلة القتال العنيف. ووصل المقاتلون إلى حجرة بونيفاس نفسه، وفتح الباب، وتوقف هذا الجيش الثائر أمام المشهد التالى: بونيفاس جالسا وحده على عرش البابوية فى كامل حلته الفاخرة وبيده صليب ذهبى، وقد يؤثر هذا المشهد فى كاثوليكى ورع، ولكن ليس فى شيارا كولونا الذى ما أن لمس رهبة البابا فى قلوب جنوده حتى صرخ فيهم مذكرا إياهم أنه ليس بابا ولكن مخادع وابن شيطان، وأمره بالتسليم له، ولكن البابا كان يفضل الموت على ذلك وقبل صليبه الذهبى فصكه شيارا على وجهه صكة

ارتجت لها جدران الحجرة وسط ذهول المحيطين به ولكنه لم يأبه لذلك، وقال قولته الشهيرة:«هذا رأسي وهذه رقبتي».

لقد ولد البابا في أنياني ولم يمانع أن يموت بها. أما سيف السلطة الدنيوية الذي طالما نادى أن يكون تحت إمرة الكنيسة فقد أحسه آنذاك فوق رقبته المليئة بالتجاعيد(فكان عمره ٨٦ عاما) وكانت لحظة المواجهة هذه دليلا حيا ليس فقط على انفصال الكنيسة عن الدولة بل على تمزق الأواصر بينهما تمزقاً لا رجعة فيه.

ولم يكن أمام شيارا ـ الذي تعاهد مع ملك فرنسا على الانتقام ـ إلا قتل رأس الكنيسة ولكنه تردد فهل تبلغ به الجرأة أن يقتل البابا ذاته؟ ولكنه حسم أمره ورفع سيفه واتجه إلى البابا.. وفي ذات اللحظة دخل مستشار الملك ليعلن أن الملك يريد بونيفاس حياً في ليون حيث سيعقد مجلس محاكمته وبدلا من قتل البابا تفرغ الجنود للسلب والنهب آخذين حتى تاج البابا وملابسه التي كان يرتديها . أما بونيفاس نفسه فأخذ يردد:«الرب أعطى، الرب أخذ».

وجاءته النجدة فجأة : إذ خشي أهالي بلدة انياني أن يصب الله لعناته فوق رؤوسهم لمقتل البابا في أراضيهم، وأن تصير بلدتهم ملعونة فلا تقام بها الصلاة أبدا، لذا جهزوا أفرادهم واقتحموا المكان مفرجين عن البابا، ولم تكن تلك بالمهمة العسيرة، فرجال الملك فيليب كان معظمهم من المرتزقة الذين انشغلوا بجمع الغنائم عن متابعة أدوارهم، وهكذا أفرج عن البابا في اليوم الثالث لحبسه، فخرج وقد غدا شخصا آخر، فقد أثر الخوف والوحدة والظلام واقتراب شبح الموت على عقله فأصبح مختلا، كما أنه كان خائفاً من دس السم له في الطعام فصام عن الطعام والشراب لمدة ثلاثة أيام، فأضاف إليه ذلك ضعفا جسمانيا.

وتم ترحيله إلى روما وقضى هناك ٤٥ يوما يعض على يديه كالكلب، ويخبط رأسه في الحائط، وصدق بذلك على نبوءة كولستين: «ستموت كالكلب». ويوم دفنه

قامت عاصفة هوجاء فلم يحضر دفنه سوى القليل بأدنى حد من المراسم.

أسر الكنيسة

لم تنته متاعب الكنيسة بموت بونيفاس الثامن، ولكن فيليب ملك فرنسا كانت له أطماع أكبر من ذلك.

فبعد موت بنديكت الحادى عشر الذى أعفى الملك من أى مسئولية تجاه موت بونيفاس، نال الملك فيليب أخيرا ما تمناه بعد طول عناء: بابا فرنسى هو البابا كليمنس الخامس. ولأن الهدف من اختياره أولا وأخيرا كان جَعْلَه عجينة لينة فى يد الملك فقد انتقل كرسى البابوية إلى مدينة افينيون الصغيرة بعيدا عن المقر التاريخى للكنيسة الكاثوليكية وبعيدا عن مقبرتى بطرس وبولس المقدستين، وكان فى ذلك كل الإهانة للكنيسة: أن تنفصل عن مقرها التاريخى الدينى لأجل خاطر ملك دنيوى. واشتهر كليمنس الخامس بتشهيره ببونيفاس الثامن حتى أنه أعلن ضحيته بطرس مورون (البابا كولستين الخامس) قديساً وبذلك وصلت الكنيسة إلى أدنى حد لها منذ سيطرة الغانيات عليها.

الجنة البابوية فى منطقة البروڤانس

لايمكن إيجاد وصف جامع لبابوات أفينيون بأنهم أشرار أو طيبون. وأحسن مثال لهم هو كليمنس السادس الذى تم اختياره فى عام ١٣٤٢ ـ وكان رجلا لايحمل ضغينة لأحد، كما لم يكن يحمل أى احترام لأى قيم أخلاقية، ونقل مقره كأسلافه منذ كليمنس الخامس ـ من روما إلى فرنسا والبروڤانس بالتحديد.

وكان كليمنس السادس رجلا محبا للحياة والبذخ والفكاهة، حتى عندما وصله خطاب معنون: «من إبليس إلى أخيه كليمنس» انفجر هو وزملاؤه فى الضحك.

ولم يكن كليمنس كريما فقط مع ذاته إنما مع كل من حوله حتى لقد أسعد

البلدة جميعا إبان توليه البابوية، وكان كلما طلب منه بعض المال أعطى أكثر مما يطلب الطالب، حتى لم تكن هناك شكوى واحدة من قلة النقود خلال فترة تنصيبه.

وسكتت أيضا الأفواه والألسن عن أفعاله الشائنة لأنها امتلأت بماله الوفير، ولكن من وصف الوضع هناك ـ مثل بتراركا الشاعر ـ قال «إن بلاط البابا هو مستنقع الإنسانية والأخلاق ومكان تجمع جميع قاذورات الدنيا. العبادة هناك للمال فقط ولامكان للأخلاق، وحتى الهواء هناك مليء بالكذب».

وتجلى بذخ كليمنس السادس فى قصره الذى بناه على نهر الرون وكان ذا سبعة أبراج وعدد كبير من القباب البيضاء، أما داخله فكان كليمنس يستورد له أفضل الأثاث والفرش: فسجاد الحائط من أسبانيا وبلجيكا والحرير المذهب من دمشق وتوسكانا والأصواف من كاركاسون، كما كان محبا لأطقم المائدة المذهبة والفضية، ولم يكن ليتخلى عنها أبدا ولو فى سبيل نصرة المسيحية، وكان سور اسطبل فرسه من الذهب الخالص، وعندما اجتاح الطاعون أوروبا وحصد الناس بالآلاف، وقضى على مدن بأكملها، قرر البابا أن يكون العام المقدس كل خمسين سنة وليس كل مائة سنة كما حددها بونيفاس، وذلك لأن الحجيج كانوا يصلون إلى روما محملين بالهدايا والقرابين وآيات الشكر ـ خاصة على نجاتهم من الوباء ـ وكان كل ذلك يرتد إلى البابا فى أفينيون، وبذلك تغلب على أزمته المالية الدائمة بسبب تبذيره، وكان هناك الكثيرون ممن يتمنون أن يعود البابا لرشده ولروما ومنهم بريجيتا ملكة السويد التى كانت ترى الأحلام والمنامات والرؤى وتؤولها وتحكيها لحاشيتها حتى طالب الناس بحرقها باعتبارها مشعوذة، ولقد رأت هذه السيدة مناما عجيبا، جاء إليها فيه القديس لورنس الدياكون وأخبرها دون ذكر أسماء« أن هذا البابا يغفر لأساقفته آثامهم ويعطى أملاك الكنيسة للأغنياء » واختفى وظهر مكانه فارس مقنع وعندما أزاحت بريجيتا عنه القناع لم يظهر وجهه وإنما بقايا جثة متعفنة لها أذنان فوق جبهتها دليل تقبله لنفاق الناس له، وعيناها خلف رأسها حتى لا ترى إلا ما وراءها من أقذار، أما قلبها فكانت

تسكنه دودة كبيرة تأكله تدريجيا. وحارت الملكة فى تفسير تلك الرؤيا التى ثبت فيما بعد أنها تخص البابا كليمنس السادس فعلا: فالهوجونوت استخدموا رأسه للعب كرة القدم، أما فيما بعد فاستخدم المركيز دوكورتون جمجمته كوعاء لتقديم الخمر.

وقد مات كليمنس السادس عام ١٣٥٢ عندما صعقته صاعقة فى ديسمبر من ذلك العام، وظل خمسون أسقفا يقرأون الصلاة على روحه لمدة تسعة أيام ترحما عليه، وقال الرحماء من الناس: «هذا لايكفى» أما غير الرحماء فقالوا: « لن يكفيه أى عدد من الصلوات أبداً ».

الفصل السادس

هبوط البابوية إلى الدرك الأسفل

عند عدة محطات فى التاريخ ، قال كثير من الكاثوليك: «وصلت البابوية إلى أدنى حد لها» قالها دانتى عن بونيفاس الثامن ، وقالها بتراركا عن الأساقفة الفرنسيين أيام انتقال مقر البابوية إلى أفينيون. ولم يكن أيهما على حق، فالتدنى الحقيقى للكنيسة كان فيما بعد.

وبدأ ذلك بإقناع كاتارينا أميرة سينا للبابا جريجورى الحادى عشر بالعودة إلى روما وترك أفينيون عام ١٣٧٧ .

وكانت هذه نقطة تحول، فلمدة مائتين وثمانية وسبعين عاماً من البابوية ـ أى منذ عام ١١٠٠ ـ لم يستقر مقر البابوية فى روما إلا لمدة اثنين وثمانين عاماً، أما باقى السنين وعددها ١٩٦ ، فسكن البابوات مقرات أخرى غير روما كأفينيون مثلاً.

بابا واحد أو اثنان

بموت جريجورى الحادى عشر طرأت المشكلة المعتادة بالنسبة لخليفة البابا وازدادت حدة هذه المرة، إذ انقسم المرشحون بين فرنسيين وإيطاليين، وطالب شعب روما فى مظاهرات صاخبة ـ ضمت قرابة الثلاثين ألف شخص ـ باختيار بابا منهم إن لم يكن من روما فعلى الأقل من إيطاليا.

اختار ثلاثة عشر من ستة عشر كاردينالاً ـ كانوا مجتمعين ـ القس بارتولوميو بريجنانو، ولما لم يكن من روما بل من نابولى خاف المجتمعون غضب الجماهير المحتشدة، فألبسوا قساً آخر من روما هو تيبالديتشى ملابس البابا وأخرجوه للجماهير،

وبدأت احتفالات روما بالقس الجديد المزعوم، أما البابا الحقيقى بريجنانو فلم يهتم أحد بإخباره باختياره كبابا، ولما علم أخيرا بعد الحدث بعدة أيام أطلق على نفسه لقب أوربان السادس . ورضى الفرنسيون بهذا الاختيار مكتفين بأن بريجنانو كان طوال حياته لا يتميز بشخصية قوية ، وكان مطيعا بدرجة كبيرة، فاعتقدوا أنهم إن أمروه أن يعود إلى أفينيون فإنه سيفعل وسيكون طوع بنانهم فيما بعد .

ولكن هذا البابا ـ أوربان السادس ـ أثبت أن شخصيته مزيج خطير من شرب الخمر والرغبة فى الانتقام والدين، وأدى ذلك إلى أنه كان من أصعب البابوات مراساً.

أما بالنسبة لتعامله مع سلك الكنيسة، فلم يكن على وفاق معهم، فهو قد نشأ وترعرع فى حوارى وأزقة نابولى، وكان لا يطيق أساليب الفرنسيين المنمقة، وكانت أساليبه معهم مزيجاً من الضرب واللكمات، وكانت جلسات المجلس تحت رئاسته عبارة عن فض اشتباكات بينه وبين الكرادلة.

واعتبر بعض الكرادلة أن نوبات الغضب تلك التى تنتابه دليل على جنونه المرضى، وحاولوا أن يختلقوا له فتوى بأن جنونه هذا يعفيه من كرسى البابوية، ولما علم البابا بذلك أصدر بدوره فتواه بأن ملك نابولى ـ وكان من المتواطئين ضده ـ مرتد عن الدين وقام ملك نابولى بدوره بسجن البابا فى قلعة نوكريا فقام البابا رداً على ذلك باعتبار كل الجيش الموالى للملك مرتداً عن الدين وهكذا.

وبعد أن حرر أهل جنوة البابا، أمر بحبس الكرادلة الخمسة المسئولين عن الوشاية به، وقام بتعذيبهم حتى الموت.

واجتمع الكرادلة الفرنسيون فى انيانى وقرروا اختيار بابا آخر غير بريجنانو، ووقع اختيارهم على القس روبرت من چنيف، والذى كان يمت بصلة قرابة للملك والذى سمى نفسه كليمنس السابع. ورد أوربان السادس على ذلك بتعيين ستة وعشرين أسقفاً جديداً ليكونوا عزوته أمام البابا الجديد .

وهكذا انحاز ملك انجلترا للبابا أوربان، وانحاز ملك فرنسا للبابا كليمنس، وانتقل البابا كليمنس ـ كالمتوقع ـ إلى أفينيون وكان سيئ السمعة ولم يزل، ففى عام ١٣٣٧ عندما كان قساً فى مدينة سيسينا على البحر الأدرياتيكى اشتكى أهل البلدة

من أن رجاله يغتصبون نساءهم، وأن المسجونين لا يخرجون من سجونهم إلا إلى القبور . فاقترح البابا عقد مفاوضات بين الطرفين وأمرهم بالتخلى عن أسلحتهم، وعندما فعلوا ذلك أمر جيشه أن يقوم بقتل سكان المدينة البالغ عددهم ثمانية آلاف شخص بمن فى ذلك الأطفال.

ثلاثة بابوات أو اثنان

فى شهر أكتوبر فعل أوربان الحسنة الوحيدة فى حياته ومات، وبعدها تم اختيار البابا بونيفاس التاسع والذى كان مشهورا عنه أنه قاتل ومجرم وفوق ذلك كله فقد قيل عنه إنه لم يوقع مستنداً قط، إلاوكانت يده ممدودة لأخذ المقابل . أما الشيء الوحيد الذى فعله مجاناً فهو إعلان كليمنس ـ بابا أفينيون ـ مرتداً عن المسيحية وردها له كليمنس بنفس الطريقة .

وظلت الأمور على هذه الحال، كل قسم من الكرادلة لا يعترف ببابا الفريق الآخر، وكلما توفى بابا أسرع الفريق المؤيد له باختيار بابا تالٍ دون اعتبار أنه يوجد فعلاً بابا آخر على مقربة منهم.

ونتيجة لذلك ظهر الرأى القائل إن وحدة الكنيسة أهم بكثير من البابوية، وإنه يجب اعتبار يسوع المسيح هو رأس الكنيسة حتى يتم تسوية الأمر إرضاءً للجميع، كما طالب المثقفون ـ وخاصة المؤرخون ـ الملك بالتدخل معللين ذلك بأن التاريخ يشهد بحدوث ذلك من قبل، وبأن ذلك التدخل هو واجبه تجاه شعبه والمسيحية .

ولكن منذ عهد البابا الطفل فى القرن الحادى عشر، كانت شوكة الكنيسة قد قويت عن الدولة .

وحتى المطالبون للملك بالتدخل وإقالة أحد البابوات خشوا إقالة البابا الشرعى والإبقاء على الاختيار الخطأ .

وعندما دعا البعض إلى انعقاد المجلس الكنسى لحل المشكلة، قال قائل إن البابا والبابا الشرعى فقط هو الذى له حق دعوة المجلس الكنسى للانعقاد.

وأخيراً عقد الكرادلة اجتماعا فى مدينة بيزا فى عام ١٠٤٩ وأُعلن أن كلاً من

البابا جريجورى الثانى عشر وبنديكت الثالث عشر غير شرعى.

وفى شهر يونيو تم اختيار الكاردينال فيلارجى من ميلانو خليفة لهما، فاتخذ لنفسه لقب البابا الكسندر الخامس، وكان محباً للطعام والنساء، ورغم عيوبه تلك فقد احتفل به أهل بيزا حقيقة. إذ إنه أنهى فترة تخبط امتدت لأكثر من ثلاثين عاماً. ولكن لسوء الحظ لم يوافق جريجورى وبنديكت على هذه التطورات ولم يتنازلا عن المنصب وفوجئ الشعب المسيحى أنه بعد أن كان يشتكى من وجود بابوين اثنين أصبح لديه ثلاثة بابوات، وأن المشكلة لم تحل، وإنما تفاقمت.

بالطبع لم يقبل أى من البابوات الثلاثة التنازل، أما أبطال هذه المسرحية الهزلية فكانوا كالآتى :

١ـ البابا جريجورى الثانى عشر، الذى اختير لأنه كان يقترب من التسعين، وكان الظن به أنه لا يقوى أن يكون فاسداً، بينما كانت أول أفعاله أن رهن تاج البابوية ليسدد ديون المقامرة، ثم باع كل ما وقع تحت يده حتى باع مدينة روما نفسها للملك نابولى.

٢ـ بيودرو دى لونا خليفة بابا أفينيون، ولم يعتد به الكثيرون، فعاد إلى وطنه أسبانيا وظل حتى آخر حياته يعتبر نفسه البابا الشرعى للكنيسة.

٣ـ يوحنا الثالث والعشرون، خليفة الكسندر الخامس الذى لم يعمر فى منصبه سوى عشرة أشهر، ولم يؤخذ على البابا الجديد سوى أنه لا يؤمن بتعاليم المسيحية !! ونصاب ومزور وخاطف زوجات الغير، فى عام ١٩٥٨ عندما تم اختيار يوحنا الثالث والعشرين ـ نفس اللقب لشخصين مختلفين ـ شطب كثير من الكاثوليك البابا الأول (يوحنا الثالث والعشرين)من ذاكرتهم ومن التاريخ.

مجلس مثير للحرج

دعا الملك سيجسموند البابا يوحنا الثالث والعشرين إلى عقد اجتماع لحل مشكلة «العدد الزائد للبابوات» كما أسمى هذه المشكلة، وكان المكان المحدد لهذا المجلس هو

مدينة كونستانس الألمانية على الحدود السويسرية وكان لهذا الاختيار سببان :

أولا : أنها مدينة ساحلية تطل على بحيرة يمكن دفن جثث المعارضين بها.

ثانيا : أنها كبيرة بما يكفى لاستيعاب أعداد العاهرات اللائى كن يأتين للترفيه عن المجلس فى أوقات عدم انعقاده، وكان هذا فى عام ١٤١٤ ، وخلال هذا المجلس تم الاتفاق على أن يتم التصويت بناء على الجنسية وليس بعدد الأفراد الحاضرين، وكالعادة كان عدد الكرادلة الإيطاليين يفوق أى جنسية أخرى، هكذا وجد يوحنا الثالث والعشرون نفسه فى صف الأقلية المهزومة، كما صدر له الأمر الملكى بالتنازل عن منصبه، وقرأ يوحنا الثالث والعشرون القرار الصادر ضده والذى أحصى بكل دقة مثالبه حتى أنه اضطر للهرب تحت جنح الظلام متنكراً فى زى خادم، خاصة بعد أن ألح الكرادلة الإنجليز فى حرقه والتخلص منه نهائياً، ولكن رجال الملك استطاعوا إعادته للمحاكمة، كما تم فى هذا المجلس إقرار مبدأ هام لم تستطع الكنيسة التخلص منه حتى اليوم وهو طاعة البابا للمجلس وإدراجه تحت هيمنته، وبذلك حسمت ـ وإلى الأبد ـ الخلافات بين البابا والمجلس بخصوص بعض الفتاوى الدينية مثلاً. كما دل ذلك على أن القرارات التى يتخذها البابا بعيداً عن المجلس يمكن أن يخطئ فيها بما أن مبدأ العصمة من الخطأ أصبح مقصوراً فقط على المجلس أو على قرارات البابا التى يتخذها بالاتفاق مع المجلس.

وبعد أن وجد يوحنا الثالث والعشرون أنه موجود فى كونستانس لا محالة، قرر ألا يتراجع وأعلن عدم تنازله عن منصبه وأيده بعض كبار الأساقفة فى خفض التهم الموجهة ضده من خمس وأربعين تهمة إلى خمس فقط، ورغم ذلك لم يوافقوا على بقائه فى منصبه معللين ذلك بأنه لم يتصرف كما يجب لرأس الكنيسة، وأن الكنيسة أهم بكثير من البابوية.

ففى٢٩ مايو ١٤١٥ تم كسر ختمه دلالة فقدانه لمنصبه فى احتفال كبير، أما عقوبته فكانت الحبس ثلاث سنوات مع وقف التنفيذ.

أما الضحية الأخرى لهذا المجلس فكان هوس الذى كان يعمل محاضراً فى جامعة براج ومرشحا للبابوية، والذى أحرق بسبب كتاباته التى تعبر عن آراء مغايرة لآراء

الكنيسة، وأحرقت كتاباته معه أيضا، وكانت تهمته في رأى المجلس أخطر من تهمة بابا فاسق ضرب بكل تعاليم الكنيسة عرض الحائط رغم رئاسته لها.

وتبقى المرشح الثالث جريجورى الثانى عشر الذى كان قد بلغ التسعين من عمره، وتنازل بكامل رغبته عن المنصب، وبذلك تخلصت المسيحية من باباواتها الثلاثة . وقرر الملك سيجسموند أن هذه الفترة هى أنسب الفترات لإصلاح الكنيسة، وقبل انتخاب بابا جديد، وأوضح أن إصلاح الكنيسة كان واجب البابوات الذى أهملوه منذ زمن وآن الأوان لتنفيذه الآن، وللأسف لم يساند الملك سيجسموند فى ندائه هذا ملك إنجلترا أو ملك فرنسا، وعليه تم اختيار الكاردينال أودوكولونا الذى لقب بالبابا مارتين الخامس، وبهذا أصبح للكنيسة بابا واحداً مرة أخرى.

ولكن أى فرصة للإصلاح الجدى كانت قد ضاعت رغم أن التفكير فى تقليص سلطات البابا أصبح أمراً مستمراً.

ورغم أن مارتين الخامس كان من اختيار المجلس وكان عضواً به، وموافقاً على قراراته، إلا أنه غير رأيه بعد أن أصبح بابا وأصبح همه الأكبر هو الهروب من كونستانس (والمجلس) والعودة إلى روما حيث يستطيع أن يتخلص من قبضة المجلس المهيمنة.

واستمرت هيمنة المجلس على البابا لمدة (٤٥٠) عاماً أخرى، حتى قرر المجلس الفاتيكانى الأول أنه حلاً للمشاكل الكثيرة الناجمة عن هذا الوضع يجب إخضاع المجلس للبابا واعتباره شخصاً معصوماً من الخطأ، وكان هذا انقلاباً على مجلس كونستانس وقراراته التى دامت قروناً طويلة.

نذر العاصفة

انتهى مؤتمر كونستانس دون اتخاذ أية قرارات جدية بخصوص إصلاح الكنيسة، وبدأ التدهور الحقيقى للكنيسة عندما اشتدت قبضة البابا على كل أعضاء الكنيسة فى القرن الحادى عشر بخلاف القرن العاشر، حيث كان السائد هو تنافس العائلات الراقية على اعتلاء أبنائها لعرش البابوية كنوع من الزهو والفخر.

أما مظاهر الفساد منذ القرن الحادى عشر وما بعد ذلك فتمثلت مثلاً فى أن معظم بابوات تلك الفترة وصلوا لمنصبهم هذا ليس بسبب أفضالهم الدينية، ولكن عن طريق الرشوة والمحسوبية، وهم بدورهم ما أن كانوا يصلون للمنصب حتى يبدأوا فى تعيين أقربائهم فى مناصب لا يستحقونها عملاً بالمثل الإيطالى القائل «لابد من عمل شيء للعائلة»..كما شاع فى ذلك الوقت ـ بشكل قارب على أن يكون رسمياً وشرعياً ـ إعلان بعض أمراء المناطق مرتدين عن الدين إذا هم امتنعوا عن دفع جزية معينة سنوياً، ولم يكن فى ذلك ما يسيء إلى البابا بأى شكل.

كما أن بعض البابوات الذين اشتروا منصبهم بالمال، كان همهم الأكبر خلال فترة اعتلائهم عرش البابوية هو استرداد ما دفعوه لقاء هذا المنصب ـ بطرق غير مشروعة طبعاً ـ وكان ذلك صحيحاً بالنسبة لبقية المناصب الدينية، فقد كان لكل منصب ثمن محدد، وهو معروض لمن يستطيع دفع الثمن، وحقق البابوات عن طريق ذلك ثروات ضخمة ، ونتج عن ذلك أن تولى المناصب أشخاص غير أكفاء لها، حتى من ناحية العلم الدينى.. فكثير منهم مثلاً لم يكونوا يعرفون اللاتينية حتى يستطيعوا إقامة الصلاة بالناس، ولكن هيهات أن يمنعهم ذلك من رئاسة الصلاة، فقد بلغت بهم الجرأة والاستهتار أن كانوا يتمتمون بأى كلام فارغ أمام الناس موهمين إياهم أنهم يصلون بهم، ووصل الأمر إلى حد أنه كان من أقذع ما يوجه لشخص ما من سباب أن يقال له يا قس !! ووصل ضجر الشعب إلى ذروته أيام انعقاد مجلس كونستانس حتى أن البابا مارتين الخامس اضطر أن يعترف أن هناك خللا ما بالنظام الكنسى والبابوى وسلك رجال الكنيسة، وتبعاً لذلك تم عقد مجلس بازل عام ١٤٣٢ حيث قرر الكرادلة المجتمعون أن على رجال الكنيسة التوقف عن الرشاوى ومصاحبة الخليلات، وبيع وشراء المناصب وصكوك الغفران، ومن لا يرتدع منهم خلال شهرين يجبر على التخلى عن منصبه حتى ولو كان بابا روما شخصياً. وأن على رجال الكنيسة البعد عن التفكير فى هذه الدنيا وتوجيه فكرهم إلى آخرتهم.

ونتيجة لهذه اللهجة العنيفة عقد البابا يوجين الرابع ـ فى ذلك الوقت ـ مجلسه الخاص فى فلورنسا، ووصف أعضاء مجلس بازل بأنهم أتباع الشيطان، ولا يستحقون سوى ردهم إليه حيث مكانهم الصحيح، ورفض كل ما جاء فى توصيات هذا المجلس،

وبذلك ضيعت الكنيسة والبابوية فرصتها الأخيرة للإصلاح، إذ بعدها لم تظهر محاولة أخرى مثلها وانتهى القرن الذى بدأه يوجين برفض الإصلاحات بزعامة بابا للكنيسة حقت عليه تسمية مندوب الشيطان: الكسندر بورجيا.

تجمع السحب والعواصف

فى القرن الخامس عشر لم يجرؤ شخص واحد على الدفاع عن الكنيسة، فبخلاف تدهور أحوالها بشكل حاد فإن ذلك كان يتم بغير استحياء، كما تم اختراع أساليب جديدة للفساد تفوقت على سابقتها، فمثلاً البابا سيكستوس الرابع الذى تم انتخابه عام ١٤٧١، تفتق ذهنه عن أساليب جديدة للحصول على المال، فكان أول من أعطى تراخيص لبيوت الدعارة ليجنى منها جباية سنوية، كما أنه كان أول من باع صكوك الغفران للأموات وليس للأحياء فقط، مما جعل أهل الأموات يتسابقون لدفع أى ثمن ليضمنوا الغفران لأحبائهم، وطبعاً جنى البابا أموالاً طائلة من وراء ذلك، وزادت أيضاً عادة كانت منتشرة قبلها وهى بيع بعض الأعضاء الآدمية على أنها لقديسين لنوال البركة.

وقد علق سيمون فيش عام ١٥٩٢ على صكوك الغفران قائلاً : «إن كان البابا يستطيع الغفران للميت بثمن فهو يستطيع تقديم هذه الخدمة مجاناً أيضاً، وإن كان يستطيع المغفرة لشخص واحد فهو يستطيع ذلك للكل، وبذلك فهو يتحكم فى جهنم ونارها (وهذا كفر) وإن ترك كل تلك النفوس تتعذب حتى يتم دفع المقابل لها فهو بحق غير رحيم بالمرة ولا يستحق أن يكون خليفة ليسوع المسيح».. وفعل سيكستوس ما هو أسوأ من ذلك: فقد أقر مشروعية غزو واحتلال أسبانيا وبسبب هذا التأييد تم إحراق ما يقرب من ألفى شخص فى الأندلس وحدها عام ١٤٨٢. وتبع ذلك عدة موافقات على حروب أدت بإيطاليا إلى سلسلة منها جلبت عليها الخراب والدمار والخسارة.

وعندما مات هذا البابا تم غسله ثم لم يجد القس الوفى له يوحنا بوركهارد الألمانى سوى قميصه ليجففه به إذ كان كل ما فى القصر قد سرق، وهكذا أسهم سيكستوس فى الانحدار الأخلاقى لأوروبا، وعاد هذا عليه فى النهاية، وتم تكفينه فى ثوب قصير

وصندل مستعار، ثم جاء بعده اينوسنس الثامن والذى وإن لم يكن أفضل ممن سبقوه فإنه لم يكن أسوأهم .

كانت أخطاؤه هى أخطاؤهم : مطاردة اليهود والنساء، والمحسوبية التى أوصل ابنه بها إلى زواج مع عائلة دى ميديتشى العريقة، وأوصله لسلك الكنيسة الأعلى. وصدق عندما اقترح أحد الكرادلة عليه أن يتم وضع حظر أو محاولة حظر على خليلات رجال الكنيسة حينما قال: «إن الأمر متغلغل بدرجة أن أى محاولة فى هذا الشأن تعتبر إضاعة وقت وجهد».

وقيل القول المشهور حينئذ «لا يمكن أن تسوء الأحوال أكثر من ذلك، لقد وصلت الكنيسة إلى الدرك الأسفل فعلاً» ولكن كان هناك رود ريجو بورجيا وفترة رئاسته للكنيسة.

عين الإعصار

رغم أن تاريخ رود ريجو بورجيا لم يكن ليوصله إلى منصب البابا أبداً فإنه تم اختياره حسب أساليب ذلك الزمان: الرشوة.. فقد اشترى بورجيا المنصب بثمن باهظ جداً، إذ كان له منافسون كثيرون اضطر لرشوتهم ليتخلوا عن مطامعهم، وناخبون كثيرون كانوا ضده اضطر أيضاً لشراء أصواتهم، حتى لقد قيل إنه أفلس تماماً حين حصل أخيراً على بغيته.

كان تاريخ بورجيا مليئاً بالقتل ـ منذ أن كان فى الثانية عشرة من عمره ـ ولأتفه الأسباب، والجنس مع خليلاته وبناته وزوجات غيره والمحسوبية، حيث أوصل ابنه كعادة ذلك الزمان إلى أعلى درجات السلم الكهنوتى، وكان أسلوبه فى تنحية أعدائه هو السم أو القتل بالخنجر ثم إلقاؤهم فى نهر التيبر.

ولكن كان لبورجيا ـ الذى لقب بالكسندر السادس ـ محاسنه أيضاً: فهو قد اعترف بكل أبنائه العشرة غير الشرعيين !! كما أن خليلته ڤانوسا أقيمت لها مراسم دفن توازى دفن كاردينال بناء على توصيته !! كما أنه من حبه لجوليا فارنيزى ـ إحدى خليلاته ـ أمر برسم صورة للعذراء مريم لها وجه جوليا تخليداً لها !! كما امتد حبه لابنته لوكريسيا أنه عدل ميعاد الصوم الكبيرحتى يتمكن الشعب من

الاحتفال بعرسها بأكل اللحم وشرب الخمر والرقص !! كما أظهر حزنه الشديد على ابنه جانديا مدى حنانه على أبنائه حتى أن من حوله بكوا لبكائه ونحيبه، وكان ابنه هذا قد قتل بيد سيزار ـ ابنه الآخر ـ وكانت نهاية بورجيا درامية كحياته: فقد دخلت إليه بومة من النافذة وحطت عند قدميه، وكان هذا نذر شؤم أكيد. ومات بورجيا عندما شرب خطأ مع ابنه سيزار خمراً مسموماً كان معداً لأعدائهم.. أما سيزار فاستطاع التغلب على السم لشبابه وقوته، أما بورجيا ـ البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً ـ فلم يستطع مقاومة السم. وعانى بورجيا ويلات الموت تدريجيا، فاحمرت عيناه واصفر وجهه وأصبح جلده مخططاً كالنمر وبدأت بشرته تتقشر. أما الدهون المكونة على بطنه فسالت وأحشاؤه الداخلية نزفت.

وبعد وفاته اسودت جثته وتضخم لسانه حتى ملأ فمه فلم يستطع إغلاقه، وتورم جسده حتى أصبح عرضه مثل طوله، وبعد غسل الجثة مباشرة انفجرت بفعل السموم بداخلها وخرجت منها أبخرة كبريتية.

ولما لم يرض أحد أن يحمل أو حتى يلمس جثة بهذا الشكل تم ربطها من نفس القدم التى طالما قبلتها النساء والأمراء وتم سحبها بحبل لتقع فى صندوق الدفن.

وفى نفس الوقت كان القصر قد سرق ونهب فلم يجد مكفن البابا سوى قطعة سجاد قديمة ليغطيه بها.

وفى عام ١٦١٠ تم إخراج الجثة من كنيسة القديس بطرس نهائياً وتم دفنها بالكنيسة الأسبانية بشارع مونساراتو منتظرة بوجل يوم الحساب العسير.

الفصل السابع

إصلاح لا مفر منه

بعد رحيل بورجيا تولى كرسى البابوية يوليوس الثانى الذى جعل قصر الفاتيكان بالشكل الذى هو عليه اليوم: «متحفا للفنون»، فقد كان هو صاحب اختيار مايكل أنجلو ـ رغم معارضة الأخير ـ لرسم قبة كنيسة القديس بطرس، والذى جعلها تحفة من تحف الدنيا، وللمفارقة العجيبة فإن قصر الفاتيكان حين كان فى أبهى صوره الخارجية كان فى أسوأ أحواله داخلياً. ولا يجب أن يعطينا ذلك الانطباع الخاطئ أن اهتمام يوليوس الأول كان بالفن، ولكن الحقيقة أن اهتمامه الأول كان بالحرب وفنونها، فقد كان مقاتلاً لا نظير له، وكان يحب ارتداء أزياء الحرب ـ وهو ضد مبادئ البابوية ـ ونجح فى غزواته التى كان يقودها لصالح الكنيسة والمسيحية فعلاً، وليس من أجل مجده الشخصى أو عائلته.

وفى أحيان قليلة كان البابا يقيم الصلاة فى كنيسة القديس بطرس ولم يقبل أن تقبل قدماه ـ كما فعل البابوات قبله ـ وذلك لظهور آثار مرض السيلان عليه.

ويدلل على حبه للحرب والقتال أن مايكل أنجلو عندما صنع له تمثالاً يحمل كتاباً رفضه البابا بكل عنف وطلب تغييره إلى (يوليوس يحمل سيفاً)، وكان يوليوس الثانى مغتاظاً .من عدم تعاون ملك فرنسا معه فى غزواته، فأعد كتاباً نزع فيه حكم فرنسا من مليكها وأعطاه ـ بمقتضى الكتاب ـ إلى ملك إنجلترا بشرط أن يثبت أنه كاثوليكى متدين بتأييد غزوات البابا.

ولم يمهل القدر يوليوس الثانى لنشر هذا الكتاب، إذ وافته المنية قبلها، ولو كان غرضه قد تحقق لكانت فرنسا قد أصبحت بروتستانتية كإنجلترا.

بلاط ليو العاشر

كان ليو العاشر من عائلة إيطالية عريقة، وصل لمنصب البابا عن طريقها في سن الثامنة والثلاثين، وقد تربى في ثراء فاحش، ولم يستطع تغيير نمط حياته بعد أن أصبح رئيساً للكنيسة، فكانت هوايته المحببة «الصيد» وهو محرم على رجال الكنيسة، وكان يمتلك ضيعة خاصة وقصراً منيفاً وعدة حيوانات متوحشة بينها فيل أبيض، كما كانت حاشيته الشخصية تضم ٦٨٣ شخصا، وكانت لديه فرقة موسيقية خاصة ومسرح خاص. باختصار كانت عيشته أقرب لعيشة الملك منها إلى عيشة البابا إن لم تتفوق عليها.

وللإبقاء على هذا المستوى من المعيشة اقترض البابا ليو من البنوك بفائدة تصل إلى ٤٠ ٪ فقد كان ريع رخص بيوت الدعارة وغيرها لا يكفى إنفاقه الضخم، لذا اخترع مناصب جديدة للبيع ليتسنى له سداد جزء من مصروفاته.

فسكستوس الرابع مثلاً كان لديه ٦٥٠ منصبا للبيع أما ليو العاشر فأوصلها إلى ٢١٥٠ !! وكان يبيعها بالمزاد !! وبالطبع كان هم شاغلى هذه المناصب هو إعادة النقود التى أنفقوها على شراء المنصب ـ إن لم يكن أكثر ـ وكان ذلك يتم عن طريق النهب وسوء استغلال المنصب والرشوة، مما أدى إلى سلسلة لا تنتهى من الفساد.

ورغم سعة يد ليو فى بيع المناصب، فقد اتهمه بعض الكرادلة بأنه لم يحفظ وعده لهم بمناصب وعدها إياهم أثناء تنصيبه وكان أكثرهم حقداً عليه الفونسو بتروتشى الذى قرر مع أربعة كرادلة آخرين قتل البابا بالسم بالاتفاق مع طبيب يدعى إجراء عملية جراحية له، وعندما اكتشفت هذه المؤامرة تم شنق الطبيب وبتروتشى، أما الكرادلة الأربعة المتواطئون معه فتم العفو عنهم مقابل مبالغ باهظة جداً.

وجاء الخطر الحقيقى «لليو» ليس من الداخل كما توقع، لكن من حيث لم يتوقع أبداً، من ألمانيا البعيدة.

لوثر وصكوك الغفران

كانت ألمانيا من أكثر البلاد معاناة من مساوئ الكنيسة، فعلى سبيل المثال كانت

أملاك الكنيسة كبيرة في جميع بلاد المسيحية، لكن فى ألمانيا وصلت أملاك الكنيسة إلى نصف الممتلكات الألمانية جميعاً.

وكانت الشرارة البادئة لمشاكل ألمانيا هى رغبة الأمير ألبرت فى الاحتفاظ بكنيستى ماجدة بورج وهالبرشتاد ـ اللتين كان يرأسهما بالفعل ـ بجانب أطماعه الجديدة فى كنيسة ماينس (وكانت كنيسة ألمانية رئيسية) وهو ما كان يخالف قوانين الكنيسة، وكان ألبرت على استعداد لدفع ثمن هذا المنصب، وكان البابا ليو فى حاجة للمال لتجديد كنيسة القديس بطرس، ولأن ألبرت لم يكن يملك السيولة الكافية لدفع المقابل نقداً فإن البابا ليو سمح له بقرض كبير بسعر فائدة عالٍ فوق العادة، وكانت المشكلة هى كيف يرد الأمير ألبرت هذا الدين ؟!

لقد سمح البابا ليو للأمير ببيع صكوك الغفران لمدة ثمانى سنوات، بحيث يعود نصف عائدها للبنوك والنصف الآخر للبابا لإصلاح كنيسة القديس بطرس.

وتم تعيين القس تتسل فى مهمة التسويق لتلك الصكوك، وكان ممكنا لتتسل أن يستمر فى هذه المهمة لولا ظهور مارتن لوثر الذى لم تعجبه هذه الأحوال، ولم يقف غضبه عند حد الإنكار، وإنما إلى القول والعمل، فكتب رأيه فى صكوك الغفران وعلقه على باب كنيسة قلعة الأمير ألبرت فى فيتنبرج عام ١٥١٧ ومنها :

« إن أملاك البابا تفوق أملاك الكثيرين، وهو رجل غنى فلماذا لا يعيد بناء كنيسة القديس بطرس من ماله الخاص بدلاً من استغلال أموال فقراء المسيحيين» ؟

وحتى اليوم تشهد فخامة القديس بطرس بذلك الاستغلال.

بابوية غير قابلة للإصلاح

لم يكن مارتن لوثر الوحيد الذى وجه نقداً للكنيسة، ففى القرن الثالث شبّه الكاردينال بونا فينتورا مدينة روما بالعاهرة، وقال إنها كالعاهرة تسكر الملوك والشعوب بخمرها، وأضاف إن روما تفسد الرؤوس الكبرى للكنيسة، وهؤلاء يفسدون صغار الكنيسة، وهؤلاء بدورهم يفسدون الشعب.

ولا يجب أن ننسى دانتى الذى جعل فى كل درجة من درجات جهنم فئة من

رجال الكنيسة ومساوئهم.

وسأل البابا هادريان الرابع (١١٥٤ ـ ٥٩) جون من سالزبورى عما يقوله الناس عن الكنيسة حقيقة، فأجابه هذا بصراحة: «إنهم يقولون إنها أقرب لزوجة الأب منها للأم وإن البابا لا يطاق».

وكان رأى الفاروبيلايو ـ وكان مستشاراً لبابا أڤينيون ـ أن الكنيسة أعطت القدوة السيئة للناس، وأن الناس عندما رأوها بهذا القدر من الفساد كان رأيهم :«ولم لا نكون نحن كذلك أيضاً».

كما قرر مكيافللى قاعدة أنه «كلما كان الشعب أكثر قرباً من الكنيسة الرومانية قل دينه وتدينه».

وكتبت الأميرة كاتارينا من سينا للبابا جريجورى الحادى عشر «إننى لا أجهد نفسى فى البحث عن مقر البلاط البابوى فرائحته النتنة تصلنى أينما كنت».

وكان بروما أكبر عدد من الأبناء غير الشرعيين، وبلغ خطر رجال الكنيسة أن النساء كن يأخذن خناجر معهن حين يذهبن للاعتراف. وكتب آيراسموس فى القرن السادس عشر حديثاً خيالياً بين البابا يوليوس الذى يحاول عبور بوابة الجنة من خلال القديس بطرس الذى لا يتعرف عليه كخليفته بسبب خوذة الحرب التى يرتديها فيبدلها يوليوس بتاج البابوية الذى لا يتعرف عليه بطرس أيضاً، وأخيراً يظهر له يوليوس مفاتيحه دلالة أن له مكاناً بالجنة، وبعد أن يفحصها بطرس يهز رأسه أسفاً قائلاً إنها لا تفتح أياً من أبواب الجنة.

وعلق الكاردينال اليسوعى بيلارمين على أحوال البابوية بأنها كادت تقضى على المسيحية. وكان مفتاح فساد البابوية الرئيسى هو السلطة، وهذا يعود بنا لافتتاحية هذا الكتاب، فعندما استشرى فساد الكنيسة تم عقد مؤتمر ترينت عام ١٥٤٥ لإصلاح الكنيسة ولكن كان الأوان قد فات، فبدلاً من أن يحل هذا المؤتمر خلافات الكنيسة، أظهر مدى الانشقاق فيها، واعتبر لذلك مبرزاً لعيوب البابوية فى ذلك الحين.

والغريب فى ذلك الوقت أن لوثر آثر عدم ترك الكنيسة حتى اهتدى إلى فكرة أن مسيحية منقسمة هى بلا شك أفضل من مسيحية يرأسها بابا يعمل ضد تعاليمها، وأن

يسترشد بالإنجيل رأساً أفضل من أن يقوده بابا فاسد الذمة. وحتى اليوم يختلف المسيحيون حول جدوى الخطوة التى اتخذها لوثر، وبذلك كان حكم لوثر ودانتى واحداً: «أن مشكلة الكنيسة تكمن فى حب بابواتها للسلطة».

وفى عام ١٥١٤ قاد كالڤن ثورة الإصلاح الحقيقية التى بدأت من جنيف ووصلت رويداً إلى فرنسا وهولندا واسكتلندا. أما فى مقر البابوية ـ روما ـ فلم تظهر بوادر فهم أن هذه السلطة المطلقة تقترب من نهايتها.

وفى عام ١٥٥٥ ظهر بابا جديد أعاد للأذهان ذكرى البابا جريجورى السابع .

الفصـــل الثامن

غروب السلطة المطلقة

قال عنه الرومان: «لو علمت والدته بمستقبله لخنقته لحظة ولادته» .. تعود هذه المقولة على يوحنا بطرس كارافا الذى سمى بغضب الرب وأطلق على نفسه لقب بولس الرابع (١٥٥٥ ـ ٥٩) وكان بولس الرابع حاد الطبع عنيف المظهر وكان كثيراً ما يشبه ببركان ڤيزوف الذى ولد بالقرب منه: فلسانه السليط يرمى الناس بالحمم واللهب تماما كالبركان، وكان دكتاتوراً يطلب ممن حوله الطاعة العمياء وفوراً.

ملكة جديدة لانجلترا

فى بداية عام ١٥٥٩ ظهر السفير البريطانى أمام البابا ليعلن أن الملكة اليزابيث خلفت الملكة مارى على العرش.

وكان بولس الرابع لا يتفق مع أفلاطون فى مساواته المرأة بالرجل، ويتفق تماماً مع توماس أكويناس بأن المرأة رجل ناقص، وكان يكره النساء عامة كراهية تامة.

وكان حنقه كبيراً على تولى اليزابيث العرش: فكيف تتولاه وهى تعلم أنه من حق البابا أن يعطيه فقط لمن يشاء بموافقته هو، وهى لم تطلب تلك الموافقة؟ وألا تعرف تلك المرأة أن ذلك العرش محرم على الأبناء غير الشرعيين وهى كذلك؟ وأعلن البابا أنه مستعد للغفران للملكة اليزابيث فى كل ما اقترفت من أخطاء مقابل أن تعترف بخطئها وتستسمحه ويمكنه حينئذ أن ينظر فى أمر توليها العرش، وأعطاها مهلة لذلك، فما كان من اليزابيث إلا أن قطعت العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان!! وبذلك

تدخلت تصرفات البابا لتأكيد بُعد انجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية وانضمامها للبروتستانتية.

ورغم أن العديد من آباء الكنيسة قد أدانوا كثيراً من الأشخاص بتهمة الردة عن الدين إلا أن البابا بولس الرابع غلب الجميع في توصيف الردة فقد كانت أقرب شيء إلى قلبه وأسهل قولة عليٍ لسانه، فهو مثلاً أدان بها مثّالاً صنع تمثالاً للمسيح مصلوباً لم يعجبه، واعتبر رداءة صنعه إهانة للمسيح، كما حكم بالموت على كل من لم يقم بأيام الصيام وهكذا.

وعندما توفى بولس الرابع فى صيف عام ١٥٥٩ نزعت الجماهير تمثاله من مجلس الشيوخ الرومانى ودمره اليهود الذين لم يتعقبهم أحد كبولس الرابع، وألقوا ببقية التمثال فى نهر التيبر.

أما الجثة الحقيقية للبابا فتم دفنها ليلاً وبسرية تامة تحت قبة القديس بطرس تحت حراسة مشددة.

ولم يهتم البابا بولس قط أن يكون محبوباً لاقتناعه بأنه يسير على هدى المسيح، وأن المسيح لو كان واجه نفس المواقف لتصرف نفس تصرفاته.

وتبع البابا بولس الرابع بابا آخر لم يستطع بدوره كسب حب الجماهير.

آخر حاكم تتم إقالته

تبع البابا بولس الرابع عام ١٥٦٦ البابا بيوس الخامس الذى كان راهباً واستمرت حياته المتقشفة حتى بعد توليه عرش البابوية.

وكان يأكل قليلاً وينذر طباخه بتهمة الردة عن الدين إذا هو لم يلتزم بأطعمة الصيام أيام الصوم العديدة التى كان يصومها جميعاً.

وكان هدفه الرئيسى هو تحويل روما إلى دير كبير، وعليه فلم يكن يستمع لأحد ولا يتحدث إلى أحد سوى الله.

وكان القرار الأول للبابا بيوس هو طرد جميع العاهرات من روما رغم اعتراض القساوسة الذى كان قوامه أن السيدات لن يأمن على أنفسهن ارتياد الكنيسة بعد

ذلك!!

واقترب بيوس من اعتبار الخيانة الزوجية جريمة تستحق الشنق مما أثار عجب الكرادلة داخل الكنيسة وتساؤلها: فى أى عصر يعيش هذا البابا؟!

ثم منع بيوس مصارعة الثيران، ونشر ذلك فى كتاب رسمى من البابا وزع على جميع الأنحاء المسيحية إلا شبه جزيرة ايبيريا التى اعتذر حكامها بأنهم لا يودون إحراج الكنيسة.

ثم وجه البابا اهتمامه لانجلترا ومول انقلاباً فى شمالها ضد الملكة اليزابيث، وعندما فشل الانقلاب انقلب البابا ضد الملكة شخصياً واتهمها ـ كسلفه ـ باغتصاب عرش انجلترا من رأس الكنيسة الذى هو الحاكم الشرعى الوحيد للبلاد، ثم كانت محاولة البابا إقصاء اليزابيث عن الحكم وكانت تلك المحاولة أكثر محاولاته جرأة وأيضاً أكبرها خسارة.

وكان البابا بإعلانه عدم أحقية اليزابيث للعرش قد قرر بالتبعية عدم شرعية أى عهد أو قسم تم حلفه لها، وأوقع بذلك الكاثوليك الإنجليز فى مأزق بين ولائهم للكنيسة وولائهم للدولة، إذ كانت اليزابيث حتى ذلك الحين لم تضطهدهم، إنما كان عليهم فقط دفع جزية عدم اتباعهم للمذهب الإنجليكانى.

وزاد ضغط البابا عليهم بإعلانه أن الولاء المزدوج مرفوض تماماً.

وهكذا تحولت دعوة الحب المسيحية التى كان هدفها توحيد شعوب الأرض إلى آداة للتفرقة بين أعضاء الشعب الواحد لصراع الإنسان بين ولائه لوطنه وولائه لكنيسته.

وعندما أحس البابا باستمرار الصراع داخل الإنجليز الكاثوليك دون حل نهائى أعفاهم من واجب إسقاط الملكة، ولكنه أخذ عليهم تعهداً بمساندة الغزاة الكاثوليك فى حالة غزو انجلترا ضد الدولة البروتستانتية، ولذلك اعتبر الإنجليز الكاثوليك لفترة طويلة بمثابة إنجليز غير حقيقيين.

وفى القرن السادس عشر حدث الانقسام الكبير فى الكنيسة، وفى ذلك الحين كان المذهب البروتستانتى قد استتب وأصبح أمراً واقعاً يجب التعامل معه على هذا الأساس.

وجاءت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ لتهز أركان الكنيسة أكثر وأكثر بدعوتها للحرية المطلقة، فهى لم تقم فقط ضد نظم الحكم القديمة، وإنما ضد كل ما يحد من الحرية أو يقيدها كالتعاليم الدينية مثلاً. وكانت هذه بمثابة دعوة إلى الفوضوية من وجهة نظر الكنيسة.

ثم زاد نابليون الطين بلة بخلعه البابا بيوس السادس من منصبه ونفيه إلى ڤالنسيا حتى وفاته هناك عام ١٧٩٩ . ثم وجه نابليون ضربته التالية حين تجاهل وجود البابا بيوس السابع أثناء احتفالات تتويجه فى كنيسة نوتردام، حيث قام بوضع التاج لنفسه وللإمبراطورة أوچينى .

البابوية النهاية أم بداية جديدة

عندما تولى البابا بيوس التاسع عرش البابوية عام ١٨٤٦ قام بالإفراج عن العديد من المسجونين السياسيين، ولهذا لقب بالليبرالى.

وظن الناس أن الله قد شملهم برحمته أخيراً ليوحد أقاليم إيطاليا الثمانية تحت لواء واحد، ولكن بعد سنتين فقط تبدل بيوس من الضد للضد، لدرجة أنه ندم على كثير من أفكاره وأفعاله الليبرالية، خاصة بعد أن قام الجمهوريون بانقلاب ضده اضطره للهرب إلى نابولى ليبقى فى منفاه هناك لمدة سنتين كاملتين.

ومن دلائل تحوله اتخاذه انتونيللى مستشاراً له، وهو الذى كان معروفا بشدته وحدته، فقد كان يؤمن بسياسة كسر الخصوم بدلاً من ملاينتهم، وسياسة العقاب بدلاً من التسامح، وأدى ذلك بالإضافة إلى ضيق أفق بيوس إلى نتائج لا مفر منها.

فقد كانت هناك عدة نذر لم يتنبه لها بيوس أو قل تجاهلها عامداً منها أنه تمت الإشارة له عدة مرات بأن الملك هيرودس كان الحاكم وليس المسيح كناية عن مطالبته بعدم التمسك بالحكم الدنيوى بجانب الدينى ولكنه أبى واعتبر ذلك اتخاذاً للأفكار الحديثة التى لا يقبلها هو أبداً.

أما دعوة كافور وزير الملك ڤيكتور عمانويل لكنيسة حرة ودولة حرة فقد وصمها البابا بأنها شعوذة.

وفى عام ١٨٦٢ قدم اثنا عشر ألف قس التماساً للبابا يطالبونه بإعادة النظر وعقد سلام مع الحاكم وأخذ عوامل التغيير والزمن فى الاعتبار، فما كان منه إلا أن قام بعقاب هؤلاء القساوسة واحداً واحداً.

ولذلك عندما اقتحمت قوات الملك المدينة عام ١٨٧٠ وأنزلت عَلَم الفاتيكان ذا اللونين الأبيض والأصفر، ورفعت مكانه علم إيطاليا الموحدة ذا الألوان الثلاثة طربت الجماهير فرحاً إذ أنها لم تعد ترى فى البابا أباها الروحى وإنما رأته دكتاتوراً حانت لحظته الأخيرة.

وأظهر استفتاء بعد ذلك انحياز الشعب بنسبة ألف لواحد للملك ضد البابا.

وكانت الأوامر الصادرة للقائد كادورنا هى عدم المساس بالفاتيكان والبابا ورغم ذلك فعندما طلب الملك ڤيكتور عمانويل مقابلة البابا رفض وكان رده الوحيد هو إعلان الملك مرتداً عن الدين، وكرر البابا ذلك ثلاث مرات أخرى خلال حياة ڤيكتور عمانويل وحتى وفاته عام ١٨٧٨ .

وعاش البابا بعدها عيشة مرفهة فى قصر الفاتيكان وإن أسمى نفسه «سجين الفاتيكان» .. أما أية دعوة للمصالحة أو الحوار فقد رفضها واعتبر نفسه الضحية التى لن تقبل التفاوض إلا بعد رجوع حقها إليها، وهو الأراضى التى لا يملكها هو شخصياً، وإنما ميراث بطرس للكنيسة المهدى إليه من يسوع المسيح شخصياً!!

وكان ذلك جرأة ما بعدها جرأة إذا فكرنا أن بطرس كان صياداً فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً وميراثه الذى يدعيه البابا هو وسط إيطاليا كله !!

قبل هذا الغزو بشهرين كان البابا قد دعا لاجتماع المجلس الفاتيكانى للتصويت بشأن عصمة البابا من الخطأ وتبعية الكنيسة له. ومن بين خمسمائة كاردينال مجتمع وافق ثلاثمائة على ذلك الاقتراع، ولم يعترض عليه صراحة سوى قسين هما : القس ريشيو من نابولى والقس فيتزچيرالد بأمريكا.

وامتنع مائة وأربعون قساً عن التصويت، والملاحظ أن القساوسة الثلاثمائة الذين صوتوا لصالح البابا كانوا من العاملين بالفاتيكان ويعيشون فى كنف البابا بيوس

التاسع. أما باقى المجتمعين فلم يصرحوا برأيهم الشخصى وإنما كممثلين لكنائسهم. وكان معنى نتيجة هذا الاقتراع ألا يحاسب البابا على أى فعل يأتيه وأن تتسع الهوة بين الكنيسة والمدنية الحديثة بما فيها الديمقراطية هوةً لا يمكن ترميمها فيما بعد.

والمثير للسخرية فى هذا الاقتراع أيضاً أن الكرادلة حكموا على أنفسهم بالإعدام، ولم يقلصوا دورهم فقط بل قدموا استقالة جماعية بتسليم الأمر كله للبابا وحده دون مشورتهم.

وفسر كثير من المعلقين هذا الاقتراع ونتيجته بأنها محاولة سياسية من البابا للتمسك بعرش الكنيسة باستماتة ودكتاتورية وحب سلطة قلما شهده التاريخ.

التاريخ الأسود للكنيسة

الجزء الثانى

الحقيقــة

« لم يكن البابوات قتلة بالجملة فقط، وإنما أرسوا قاعدة أن القتل محلل بالنسبة للكنيسة المسيحية، ومن شروط خلاص النفس»

الفصل التاسـع

القضاء على المرتدين

المنزل على الناصية

هو أشبه بالمكعب ، ولونه لون الطمى، وبالرغم من أنه يلقب بالمقدس والكاثوليكى إلا أن كثيراً من الكاثوليك والحجيج لا يعيرونه أى اهتمام، ويمرون به مرور الكرام، دون إلقاء نظرة واحدة عليه. هذا هو ما يطلق عليه أهل الكنيسة « دار التفتيش » .

وبالرغم من سكونه فإن بداخله حركة دائبة لا تهدأ، وتخرج منه جميع نشرات الكنيسة وفتاواها وإصداراتها، أما حجرات التعذيب التى كانت تصاحب التحقيقات فقد انتهت ، وحل محلها المكاتب والأرشيف.

ومنذ ذلك الحين يعتبر الكاثوليك ذلك المبنى المربع عضداً للكنيسة، وإحدى أسلحتها فى سبيل نشر دعوتها. أما حقيقة ما يجرى فى هذا المبنى فلا يعرفها الكثيرون.

البابا يوحنا بولس الثانى

يحمل البابا بين جنباته بعض التناقضات مثله مثل غيره، فهو مثلاً يفيض حنانا على الأطفال واليتامى، حتى لقد سمح للأم تريزا ببناء ملجأ للأيتام بالفاتيكان، وهو لايتوانى عن الحديث عن حقوق الإنسان، وفى نفس الوقت لا يقبل المناقشة ، ويطلب ممن يتبعه الطاعة العمياء وفوراً، الأمر الذى يذكرنا بآباء الكنيسة منذ عدة عصور مضت.. ذلك لأنه لا يزال مؤمناً بأن الحقيقة لا تتبدل ، وأنه بصفته ممثلاً للمسيح يمثل إحدى تلك الحقائق غير القابلة للتغيير.

وفى مثال آخر يطالب البابا رجال الكنيسة دائماً بالبعد عن السياسة، لكن ماذا تعنى زياراته المتكررة لبولندا إن لم يكن لها مغزى سياسى؟ ومنذ متى انفصلت الكنيسة عن السياسة؟

فهى فى معظم العهود الغابرة كانت آداة سياسية، وكانت المحرك الأول للحياة السياسية فى أوربا. كما أن الفاتيكان لكونه دولة تتبادل العلاقات الدبلوماسية والسفراء مع الدول الأخرى يثبت أنهكيان سياسى بجانب الكيان الدينى.

والبابا لا يؤمن بالديمقراطية، فإن القرارات التى اتخذها خلال المؤتمر الفاتيكانى الثانى اتخذها كلها دون الرجوع إلى رجال الكنيسة المجتمعين أو مشورتهم، وهو يختلف عن سلفه بولس السادس فى أنه ليس ضحية الشكوك والتردد، ولذا فهو لا يقبل أى تعقيب على أفعاله حتى وإن كانت غير معصومة من الخطأ. فمثلاً أشهر كاتب كاثوليكى ـ هانز كونج ـ وضعه البابا فى مكانه الصحيح ـ كما يظن ـ بحيث فقد وظيفته فى الكلية الكاثوليكية بجامعة توبنجن كمحاضر كاثوليكى.

وأنذر البابا بذلك غيره من «المصححين له» بطريقة عملية. وأيضاً العالم اللاهوتى الهولندى ادوارد شيلبيكس والأب ليوناردو بوف من البرازيل قد تم توجيه إنذار لهم ووعدوا بالطاعة وحسن السير والسلوك، فإن ما يطلبه البابا من أعوانه ـ كما سبق أن قلنا ـ هو نفس ما طلبه جريجورى السابع وبيوس التاسع : الطاعة العمياء بلا تفكير حتى فى أشد المواضيع حساسية وحرارة.

الهدف اليسوعيون

لم يكن سلوك رؤساء طائفة اليسوعيين يعجب البابا بولس الثانى ، فرئيسهم كانت تحوم حوله الشبهات الليبرالية ، وذلك لأنه حاول تعديل قرارات المؤتمر الفاتيكانى الثانى بالاشتراك مع زملائه ، وعندما مرض وتم اختيار الأمريكى أوكيف بدلاً منه لم يلق قبولاً لدى البابا أيضاً ، ولذلك عين عام ١٩٨١ مندوباً له هناك فى أول سابقة من نوعها فى تاريخ الكنيسة.

وهذا هو ما دعا كارل رانر ـ بالاشتراك مع سبعة عشر زميلاً آخر ـ إلى توجيه نداء للبابا السماح لهم باختيار حر لرئيسهم . وغضب البابا لذلك غضباً شديداً فإن لم

يتوقع الطاعة العمياء من اليسوعيين فممن يتوقعها إذن؟ أليس مؤسس طائفتهم اجناثيوس من ليولا هو القائل : «يجب أن نكون على استعداد أن نتقبل ما نراه أبيض على أنه أسود إذا رأت الجهات العليا للكنيسة ذلك »

ولم يسمح لهم البابا بهذا «الاختيار الحر» إلا عندما تأكد من موافقة مرشحهم مع ميوله ، وحتى عندئذ لم يترك شيئاً للصدفة : فهو قد افتتح بنفسه المؤتمر الثالث والثلاثين للطائفة اليسوعية ، وكان وجوده هناك إنذارا أكثر منه تشريفاً ، وذلك حتى تسير الأمور حسبما يهوى .

ومرة أخرى كانت هذه أول سابقة من نوعها فى تاريخ الكنيسة وآتت ثمارها : إذ انتخب اليسوعيون شخصاً معتدلاً هو كولفنباخ الهولندى . وبعدها وجه البابا بؤرة اهتمامه إلى هدف أكبر

الهدف الكنيسة فى الولايات المتحدة الأمريكية

بالإضافة إلى هولندا التى عرفت دائماً بتمردها على الكنيسة الكاثوليكية، تأتى الولايات المتحدة في المرتبة الثانية للدول التى تظهر فيها أزمة الكنيسة بجلاء، مع ملاحظة أن هذه الأزمة تمس الهيكل فقط، وليس روح الكنيسة التى لاتزال مفعمة بالأمل والحياة.

وكما قال القس چيمس مالون عام ١٩٨٦ : «هناك نمو مطرد فى درجة ابتعاد الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية عن الفاتيكان وهو نذير بالخطر» كما أوضح القس ويكلاند عام ١٩٨٧ للبابا خلال زيارته الثانية للولايات المتحدة أنه منذ عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٨٧ هبطت نسبة مرتادى الكنيسة فى أمريكا من ٧٥٪ إلى ٥٣٪.

وكما قلنا من قبل فإن ٩٣٪ من الأمريكيين يعتقدون أن بإمكانهم أن يكونوا كاثوليك متدينين رغم عدم موافقتهم للبابا فى بعض الأمور كالطلاق والزواج الثانى واستخدام وسائل تنظيم النسل.

وعندما يتدخل البابا فى شئون الكنيسة الأميريكية فإنه يتصرف هكذا بناء على أمرين:

١ـ أن البابا بنديكت الرابع عشر أعلن أن سلطة البابا تفوق أى سلطة دينية محلية وتجبها.

٢ـ أن يمين الولاء الذى يقسمه القساوسة لا يتم للكنيسة أو للدين المسيحى وإنما يقسمون على الطاعة لسيدهم «بابا الفاتيكان» والولاء له.

وقصة القس كوران مثال آخر على بُعد الكنيسة الأمريكية عن الفاتيكان، فهو قد أبعد عن منصبه لأنه طبق بالفعل ما يراه من أن واجب رجل الدين هو «تقييم قرارات البابا فى ضوء علمه ومعرفته ثم توضيح رأيه بشأنها»، وهو ما يختلف مع رأى البابا القائل إن «دور رجل الدين هو توصيل قرارات البابا وإعلانها للعامة دون أى تحريف أو تعديل»، وقد فقد كوران منصبه بجامعة واشنطن الكاثوليكية لهذا السبب رغم تأكيدات البابا خلال افتتاح المؤتمر الفاتيكانى الثانى أن عهد تقييم القساوسة قد انتهى.

وعدم تقبل البابا لأى رأى آخر منشؤه أن ذلك يفسد مظهر التماسك والوحدة للكنيسة، وهو أول ما تحرص الكنيسة عليه، ويبدو أن عهد الشهداء فى سبيل إبداء رأيهم والإصرار عليه قد انتهى، كما أن القساوسة برضوخهم لرغبة البابا تلك يساعدون على نمو هذه الأجواء غير الديمقراطية.

ولنا أن نتساءل : ما هو مستقبل هذا الكيان الكبير الذى يقوم على مداراة الحقيقة وكبت الآراء؟

الارتطام الكبير بين عملاقين

بينما تفخر الولايات المتحدة بأنها بلد الحرية يفخر الفاتيكان بأنه دولة الطاعة، وبما أن هاتين القيمتين لا تلتقيان كان لابد من الارتطام العظيم لمؤسستيهما.

فبعد ظلام العصور الوسطى حدث تحول سياسى فى أوربا خلال القرن التاسع عشر وإن لم يصل إلى الكنيسة الكاثوليكية، فشعارات الإخاء والحرية والمساواة التى سادت وانتصرت حينذاك، وصفتها الكنيسة الكاثوليكية بأنها شعارات جوفاء تدعو إلى الفوضوية وضد مبادئ الكنيسة من نظام وسيادة القانون القائم، كما حاربت الكنيسة

بشدة فكرة انفصال الدولة عن الكنيسة، وقالت إن علاقتهما كالزواج الكاثوليكى : أبدى لا انفصال فيه.

وكان أخشى ما تخشاه الكنيسة هو تطبيق شعار حكم الشعب للشعب ومن الشعب داخل أروقتها.

ولم يكن هذا هو موقف الكنيسة إبان ظهور تلك الشعارات والتغيرات السياسية فقط، وإنما امتد لعصور بعدها أيضاً.

أما تاريخ الولايات المتحدة فيمثل العكس تماماً : فالمهاجرون الأوائل لها كانوا من المضطهدين دينياً، ورغم أن الدعوة لفصل الدين عن السياسة لم تظهر آنذاك ، إلا أن سبب مجيئهم للأرض الجديدة كان دافعاً لهم ألا يجعلوا أى سبب ـ خاصة الدينى منها ـ مدعاة لأى اضطهاد من أى نوع : فقد قرر المهاجرون أن يبدأوا بداية جديدة: دنيوياً ودينياً أيضاً، وقرروا المساواة بين جميع المذاهب الدينية الوافدة إلى أمريكا على اختلافها، وهكذا بدأت أمريكا ديمقراطية الدين.

أما الفصل التام بين الدولة والكنيسة فقد بدأ فى رود ايلاند ثم تلته ولاية ماريلاند، وكانت وثيقة الاستقلال الأمريكية بمثابة ولادة لحرية الأديان التامة فى الولايات المتحدة، وبين عامى ١٧٨٦ ـ ١٧٨٧ قنن چيڤرسون حرية الأديان فى وثيقة كانت الأولى من نوعها، والتى تم إدخالها ضمن القانون الفيدرالى الأمريكى .

وانتهت بذلك العلاقة بين الدنيا الجديدة فى أمريكا والعالم القديم فى أوروبا.

وكان هذا سبب ذهول آباء الكنيسة الكاثوليكية: فقد ازدهرت الكنيسة فى أمريكا رغم قيامها ضد أسس ومبادئ كنائس أوروبا، والتى استمرت لقرون طويلة وهو ما لم يكن فى الحسبان.

وأثناء قيام النزعة الوطنية الإيطالية عرضت الولايات المتحدة عام ١٨٦٤ على البابا بيوس الذى كان مهدداً من الوطنيين الإيطاليين اللجوء إلى الولايات المتحدة حيث يستطيع الاستمرار فى ممارسة مهامه كما تعود دائماً وبدون أى معوقات، وقبل البابا شاكراً وإن لم يستغل هذا العرض أبداً، وبذلك لم يكتب للكنيسة أن تعيش فى أجواء الديمقراطية الدينية الحديثة، والتزمت قواعد العصور الوسطى من ارتباط الدولة بالكنيسة

وسيادة الكنيسة فى هذه العلاقة.

ونشأ إحساس بين الأميريكيين الكاثوليك أنهم يجب أن يختاروا بين الهوية الكاثوليكية والهوية الأمريكية، ونظر إليهم بقية الشعب نظرة شك وريبة امتدت إلى الساحة السياسية، حيث منعت المرشح الديمقراطى آل سميث من أن يصبح رئيساً عام ١٩٢٨ وكادت تدمر الرئيس الأمريكى كيندى الذى اتهم بمحاولة ربط الكنيسة بالدولة بما لا يتفق مع المبادئ الأمريكية، والذى وقف يدافع عن أمريكيته ضد كاثوليكيته فى خطاب شهير قال فيه : «إنه ليس مرشح الكنيسة ولكن مرشح الحزب الديمقراطى الأمريكى وبالصدفة كاثوليكيا».

أزمة الكاثوليكى المعاصر اليوم

يعيش الإنسان الكاثوليكى اليوم فى صراع بين كونه كاثوليكياً وكونه معاصراً، فبصفته إنساناً معاصراً فهو مطالب بالإيمان بمبادئ الديمقراطية وحرية الرأى والاختيار الحر، أما فى الكنيسة الكاثوليكية فهو مطالب بالطاعة العمياء للبابا ولقوانين الكنيسة، ومطلوب منه ألا يعبر عن رأيه وألا يكون رأياً أصلا، وأن يستقى جميع آرائه من خلال الكنيسة.

ونحن لا نلوم على أهل الكنيسة فى هذا الصدد، فهم بدورهم ضحايا لتاريخ طويل ممتد لمؤسسة قامت لقرون طويلة على هذه الأسس، فهم بحق أسرى التاريخ ـ كما قلنا من قبل ـ والتاريخ ليس من السهل الفكاك منه، ولكن ليس من المستحيل.

والبابا الحالى يوحنا بولس يدعو للإنسانية والصدق فى حله وترحاله، وهو يعتبر أن تناقض آرأء الكنيسة ـ الذى قد ينشأ عن ديمقراطيتها غير المحبذة ـ دليل عدم صدقها ومصداقيتها. أما الالتزام برأى واحد عبر السنين والأجيال فهو يقوى مصداقيتها لدى الناس ويدلل على التزامها بقرار واحد هو القرار الصحيح.

ولهذا فإن الآراء الديمقراطية والمناقشات لا تناسبه ولكن التاريخ يناقض البابا فى التزام الكنيسة ومصداقيتها وخاصة المصداقية التى تحاول الكنيسة فرضها قسراً على الناس.

الفصل العاشر

فرض الحقيقة

هدأت حدة العنف الدينى فى مدها الطبيعى حتى ظهر أكبر منافس للمسيحية «الإسلام» وكان انتشار الإسلام أسرع من انتشار المسيحية وكان التحول الى الإسلام يتم من خلال بلدان مسيحية كاملة.

تقع مقاطعة لانجدوك في الركن الجنوبي الشرقي لفرنسا ، وهي مهد طائفة الألبيجين (نسبة إلى قلعة ألب) ، وهم مجموعة خارجة عن الديانة المسيحية لهم مفاهيم خاصة بالدين وتشريعاته ، ولأنهم كانوا من الزاهدين وأقوياء الحجة فقد كانت لهم سطوة كبيرة على الناس في تلك المقاطعة ، وكان ذلك في عهد البابا اينوسنس الثالث في القرن الثالث عشر .

وكانت تلك الطائفة تحتقر الكنيسة الكاثوليكية ، وتقلل من شأن البابا ولا تتفق معه في كثير من آرائه ، فمثلاً كان أهل هذه الطائفة ينادون بالمساواة بين الجنسين وهو ـ حسب رأى البابا ـ ضد تعاليم الإنجيل ، كما كان لهم إنجيل خاص بهم مكتوب بلغتهم ويصلون به فعلاً ، وهو ما أثار حنق البابا وأدى إلى اعتبارهم مشعوذين يستحقون القتل .

وكان منبع كل الشرور في هذه الدنيا من وجهة نظر الألبيجين هو الماديات ، لذا فقد لعنوا الاتصال الجنسي بين البشر ، وكان الجسد بصفة عامة مكروهاً لديهم كذلك كل ماديات الدين من طقوس كالمناولة أو تعليق صور دينية أو تماثيل .. إلخ ، وكان أفضل الأفعال عندهم هو الانتحار تخلصاً من سيطرة الجسد على الإنسان .

ونادى البابا اينوسنس بالتخلص من هؤلاء الألبيجين وقاد ضدهم حرباً صليبية جديدة وعد المشاركين فيها بجميع مزايا فرسان الحروب الصليبية في الدنيا وبمرتبة عالية في الآخرة إذا هم قضوا عليهم . كل هذا لأنهم تجرأوا على أن يقفوا ضد البابا

ويعلنوا رأياً مخالفاً لرأيه .

وكان الكثيرون قد اتبعوا النداء للقيام بحروب صليبية ضد الأتراك منذ عام ١٠٩٦ عندما انضم والتر إلى بطرس إيريمتيا وانضم إليهما الآلاف فى الزحف نحو القسطنطينية . وكان هؤلاء من بسطاء القوم الذين أتوا إما راكبين الحمير والبغال أو مترجلين ، وكان سلاحهم الوحيد هو إيمانهم بتلك الحرب المقدسة . وصحيح أن عشرة آلاف منهم قد ماتوا فى الطريق ، إلا أن ثلاثين ألفاً وصلوا إلى القسطنطينية فى ٢١ أكتوبر حيث أعد لهم الأتراك مجزرة لم ينج منها إلا القليل. وعندما وصلت حملة صليبية أخرى فى الربيع التالى ، وجدت أمامها أكواماً من العظام والهياكل البشرية لتلك الحملة .

وكثرت مثل تلك النداءات والحملات للجهاد المقدس ، فكانت حملة ستيفان من فاندوم عام ١٢١٢ فى فرنسا ، وحملة نيكولاوس فى ألمانيا ، وكانت كلها حملات عشوائية تلقائية وغير منظمة وإن اتحد هدفها .

أما بالنسبة لحملة البابا ضد الألبيجين ، فقد كان لها ضحايا أبرياء كثيرون ، إذ أوفد البابا ـ كمحاولة أخيرة ـ بطرس راؤول إليهم لمناقشتهم بطريقة عاقلة للمرة الأخيرة قبل إعلان الحرب عليهم ، وطلبوا من ريمون ملك تولوز أن يساندهم فى ذلك وسلطوا عليه حاشيته وشعبه ، ولكن أحد رجاله قام بقتل بطرس مندوب البابا مما حدا به إلى تحميل المسئولية للمنطقة كلها وإعلان الحرب عليها ـ الألبيجين وغيرهم ـ مما جعل لحربه المقدسة تلك ضحايا كثيرين من الأبرياء الذين لا ذنب لهم ، والذين أخذوا بذنوب ارتكبها غيرهم .

العنف فى المسيحية

تبدلت نظرة الكنيسة للحرب والعنف عبر التاريخ ، ففى البداية كان العنف وقتل الأنفس حراماً وذنباً كبيراً لا يغتفر ، وكان المسيحيون الأوائل يقولون ـ رداً على مقولة إن روما تحتاج إلى الحرب لحمايتها ـ إن روما تحتاج لملوكها لحمايتها عن طريق الحروب ولكن المسيحى الحقيقى لن يشترك فى ذلك ، وهو لا يمكن أن يصبح ملكاً لهذا السبب ، والملك بالتالى لا يمكن أن يصبح مسيحياً حقيقياً لهذا السبب أيضاً .

وكانت رسالة المسيحية الأولى هى نشر السلام ، وكان سلاح المحارب المسيحى الوحيد هو الصلاة والتضحية وليس القتل ، ولكن منذ انتصار قسطنطين على ماكسنتيوس تحت راية الصليب ،كان على المسيحيين أن يتواءموا مع فكرة دمج الدين والحرب والسياسة وأن قائدهم مسيحى يحمل السيف ويلبس خوذة الحرب . وكان حل هذه المعضلة فى اتجاهين : الأول أن يقدم القيصر والجنرالات قرابين أو فداء كلما لوثوا أيديهم بدماء ضحاياهم حتى وإن كان من أجل الحق لتثبيت مبدأ أن القتل لازال مكروهاً فى المسيحية ولو اضطراراً ، والثانى هو تخفيف أحكام القتل فى المسيحية بأن يصبح مكروهاً (فى حالات القتل من أجل الدفاع عن النفس أو إحقاق الحق) ومحرماً فى الظلم والبدء بالهجوم .

ويلاحظ هنا أن نفس هذا التطور حدث بالنسبة لنشر الدين المسيحى ، ففى البداية كان استخدام العنف من أجل نشر الدين بالإكراه ممنوعاً ، ثم مدح البابا ليو الكبير (٤٤٥ ـ ٦١) ملكاً لأنه قام بتعذيب المشعوذين من أجل مصلحة الكنيسة وبقائها . وكانت حرمة إراقة الدماء هى السبب الوحيد لعدم قتلهم لهؤلاء المشعوذين والاكتفاء بتعذيبهم فقط .

ولكن هذه الحرمة ضعفت بمرور الزمن ، وازدياد عدد المسيحيين فى الجيش ، فحتى عام ١٧٥ لم يكن هناك جندى مسيحى واحد فى الجيش ، ولكن فى عام ٤١٦ لم يسمح إلا للمسيحيين بالانضمام للجيش ، وتركت مهمة نشر السلام لأهل الكنيسة من قساوسة وكرادلة .. الخ .

ووضعت الحرب أوزارها لفترة خاصة بعد انضمام القبائل البربرية للمسيحية ، بحيث لم تعد هناك حاجة لاستخدام العنف ، كما هدأت حدة العنف الدينى فى مدها الطبيعى حتى ظهر أكبر منافس للمسيحية « الإسلام ».

كان انتشار الإسلام أسرع من انتشار المسيحية التى قيل عنها إنها انتشرت بسرعة فائقة ، وكان التحول للإسلام يتم من خلال بلدان مسيحية كاملة فى أفريقيا وآسيا واسبانيا .

وحل الرسول محمد محل يسوع المسيح فى أذهان الناس كبطل وراع لدين جديد ، وكان أكثر إيجابية . فإذا كان كل ما فعله المسيح فى حياته هو الدعوة للدين بالحسنى ثم الموت مصلوباً فى سبيل الآخرين ، فإن محمداً قام بالجهاد المقدس لنشر دينه .

كانت هذه أكبر نقطة تأثرت بها المسيحية من الإسلام ، وهى فكرة الجهاد المقدس، فبعد أن كانت المسيحية دين السلام ونبذ العنف والحرب إحياءً لمبادئ المسيح ، ظهر فجأة فرسان يحاربون ويقتلون فى سبيل المسيح تأثراً بفكرة الجهاد الإسلامية* .

وفى الطريق للأرض المقدسة حارب فرسان المسيحية عدواً ليس ببعيد وهم اليهود، فقد تذكروا فجأة أن هؤلاء اليهود هم عدوهم الأكبر وأنهم لم يدفعوا أبداً ثمن خيانتهم للمسيح ، ولذا حصدهم فرسان الحروب الصليبية حصداً فى طريقهم إلى القدس ، والحق أنه كان يتم تخييرهم بين الانضمام للمسيحية أو الموت فكانوا يفضلون الموت باختيارهم .

المذابـــح تبـــدأ

هناك أيضاً الألبيجين الذين تم القضاء عليهم فى مذبحة «ليس لها مثيل فى التاريخ الأوروبى» كما قال «لى» فى كتابه «تحقيقات فى العصور الوسطى» فقد تم حصار مدينة بيزييه ، وعندما نجح فرسان البابا فى دخولها قاموا بقتل وذبح أكثر من عشرين ألف شخص ما بين رضع ونساء وشيوخ ورجال ، رغم احتمائهم بكنيسة القديسة مريم المجدلية ، ثم تم إحراق المدينة كاملة بحيث أصبحت كومة من الرماد لم يبق على أثر واحد .

وفى هذه المذبحة تم لأول مرة ذبح رجال الكنيسة وخاصة خلال إقامة صلاة وشعائر دينية ، فقد كانت شهية فرسان الصليب للقتل وتعطشهم للدماء قد بدأت ولم ترجع لسابق عهدها أبداً .

وحتى ذلك التاريخ كان عهد القيصر ديوكليتيان يعتبر عصر شهداء المسيحية ، إذ

* من المعلوم أن الإسلام ينبذ العنف إلا فى حالة القضاء على العنف والفتنة وبشروط شرعية تدرك من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ـ المراجع ـ .

كان قد قتل منهم نحو ألفين ، أما البابا اينوسنس ـ الذى قامت تحت رعايته تلك الحملة الصليبية ـ فقد قتل أكثر من عشرة أمثال هذا العدد من المسيحيين !!

وعندما وصلته أخبار مدينة بيزييه خر لله ساجداً شاكراً له نعماءه ونصره ، ولم يخطر بباله مرة واحدة إن كان قد تعدى حدود المسيح فى القتل أو أنه يعمل ضد المبادئ المسيحية من نشر الدين ، أو الدفاع عنه بقوة السلاح !!

وفى مدينة كاركاسون قام أهل الحملة بخداع أهل المدينة ، إذ خرج نفر منها إليهم طالبين منهم السلام ، فما كان من أهل الحملة الصليبية إلا أن أخذوهم أسرى ، واعتذر قائد الحملة للبابا كتابة عن عدم وجود عدد كبير من القتلى ، وحفاظاً على سمعة الكنيسة فقد تم تقليص عددهم إلى أدنى حد ممكن ، وبدلاً من قتلهم تم فقأ عيونهم وجدع أنوفهم ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم .

وفى مينرڤ تم إشعال نار كبيرة توجه إليها الأسرى والمشعوذون من تلقاء أنفسهم دون قسر وتم إحراقهم أحياء دون صرخة واحدة منهم ، فبعض المسيحيين كان لا يزال لديهم الفكرة الصحيحة عن المسيحية ونبذ العنف ومقابلته بالسلام ، ولو كان الثمن هو التضحية بأنفسهم .

وفى مدينة لافور تم إلقاء أخت الدوق المشهورة بورعها جية فى بئر ثم ردمها بالحجارة ، كما تم إحراق الدوق وثمانين من حاشيته أحياء بالإضافة إلى أربعمائة من أعيان البلدة تم إحراقهم دفعة واحدة . كل ذلك تم تحت سمع وبصر وبمباركة الكنيسة والبابا ، أما قائد هذه الحملة دومونمفور فقد أطلق عليه لقب «رجل المسيح الشجاع » !!

واعتبرت الكنيسة حملاتها ضد هؤلاء المشعوذين ناجحة ، ولكن لم يكن ضمن ذلك النجاح تحول وثنى واحد إلى المسيحية !!

الدروس المستفادة من الحملات الصليبية

انتهت الحملات الصليبية عام ١٢٢٦ بعد ثمانية عشر عاماً كاملة ، ومقتل مئات الآلاف خلالها ، ولكن فى حقيقة الأمر فإن الحملات الصليبية لم تنته أبداً إذ بقيت

آثارها بعدها شاهداً عليها .

والدرس الأول المستفاد من تلك الحملات هو أن عدم الولاء للبابا كان يعد جريمة كبرى بالمقارنة بغيرها : فالقساوسة والكرادلة سيئو السمعة فى فرنسا كانوا أفضل عند البابا من الألبيجين الذين اختلفوا معه فى الرأى ، وتجرأوا على الإفصاح عن هذا الرأى متحدين بذلك سلطته كممثل للمسيح والكنيسة .

كما أظهرت تلك الحملات الصليبية المدى الذى يمكن أن تصل إليه الكنيسة فى محاربة أعدائها من المشعوذين وغيرهم ،كما تبين من خلال تلك الحملات أن الحقيقة فى الكنيسة الكاثوليكية نظرية ، فالبابا مثلاً استخدم جميع الأساليب ـ خاصة تلك التى يأباها المسيح ـ فى سبيل الدفاع عن المسيحية ـ ولم يجد فى ذلك أى غضاضة ، فهو مثلاً قد اعتبر جريمة الألبيجين الكبرى أن يسموه كافراً ، فى حين أنه أكد ذلك بإحراقهم بالآلاف عملاً ضد مبادئ المسيح . ولكن هل انتصر البابا بتلك الأساليب على المشعوذين والخارجين ؟ إنه لم يفعل !! لأن هذه الحركات لم تمت إنما أصبحت حركات سرية جند لها البابا جيشاً من رجاله أطلق عليهم المفتشين ، وباسم البابا قام هؤلاء الرجال بأفظع الأفعال ضد الإنسان فى تاريخ البشرية .

هيمنـــــة الرعــــب

باعتلاء البابا جريجورى التاسع عرش البابوية عام ١٢٢٧ بدأت الإبادة المنظمة للمشعوذين ، وجعلها البابا واجباً على كل كاثوليكى بأن يعمل كل ما فى وسعه للقضاء عليهم ، ووضع يده فى يد القيصر فريدريك الذى استن بعض القوانين ضدهم وزاد عليها البابا بعضاً من عنده حتى تفتق ذهنه عن قراره الخطير عام ١٢٣٢ .

الميلاد الحقيقى لمحاكم التفتيش

أصدر البابا جريجورى التاسع كتاباً بأن يحرق جميع المشعوذين وهم كل من يعترض على أى قرار بابوى ، وإن أظهروا الندم يتم سجنهم مدى الحياة، وكان منفذو هذا القرار من غير الأكفاء ، بحيث أحدثوا ظلماً كبيراً لعدد كبير من الناس ، لكن حماس البابا كان معدياً بالنسبة لهم .

وكانت وظيفة المفتشين مقصورة على شرائح معينة من رجال الكنيسة كالدومينيكان مثلاً، وفى يوليو عام ١٢٣٢ تم تعيين أول مفتشين رسميين هما بطرس سيلا وويليام آرنلد ، وفى عام ١٢٣٩ أرسل خليفتهما روبيرلوبوجى ١٨٠ شخصاً إلى المحرقة دفعة واحدة بتهمة الشعوذة .

وكانت هذه ردة إلى البربرية ، ففى عام ٣٨٤ صدر قرار بعدم استخدام وسائل التعذيب لاستخلاص الحقائق من المتهمين ، وأحيا جريجورى الكبير هذا القرار فى القرن السادس بعد أن كان قد توقف العمل به . وفى ظلام العصور الوسطى كان استخدام وسائل التعذيب محرماً . ولكن منذ عهد جريجورى السابع ظهرت فكرة عصمة البابا من الخطأ ، وبالتالى وجوب الطاعة العمياء له ، وبعدها بدأ عهد العقاب على عدم الطاعة و...عهد محاكم التفتيش .

والتاريخ لا يعضد النظرية القائلة بأن الكنيسة الكاثوليكية كانت دائماً من حماة حقوق الإنسان ، بل إنها وصلت إلى حد إحراق المشعوذين دون إعطائهم فرصة الدفاع عن أنفسهم وهذا ضد أبسط مبادئ حقوق الإنسان .

ولأكثر من ثلاثمائة عام لم يتغير هذا الوضع حتى أصبح جزءاً من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، وأصبحت الكنيسة مصدراً للرعب بدلاً من أن تكون مصدراً للحماية .

كل شىء مباح

كان كل شئ مباحاً للمفتشين ، فهم كانوا الجناة والقضاة فى نفس الوقت ، وكانوا يستلهمون سلطتهم من البابا رأساً ، لذا لم يخضعوا للقوانين المدنية أو لأى سلطة كنسية أخرى ، وكان شعارهم «من الأفضل أن يموت مائة شخص ظلماً عن أن يفلت مشعوذ واحد» . ولأنهم يستمدون سلطاتهم من البابا المعصوم من الخطأ فقد كانوا بالتالى معصومين من الخطأ ، ولذا لم يجرؤ أحد على مناقضة قراراتهم أو الاعتراض عليها ، وأكد لهم البابا أن الرحمة غير واردة مع المشعوذين ، وأنه يتحمل المسئولية كاملة أمام الرب إذا حدث سهو ما .

ولذلك انطلقوا يحرقون الناس بضمير مستريح لأنهم لا يحملون مسئولية ما يفعلون

تماماً كنازية القرن العشرين . وكان الكتاب الأسود أو بلغة العامة كتاب الأموات دليل المفتشين فى تعاملهم مع المشعوذين وجاء فيه «إما أن يعترف المتهم ويصبح مذنباً باعترافه أو لا يعترف ويصبح مذنباً بالرغم من ذلك عن طريق الشهود ضده ، ولو اعترف بكل التهم الموجهة إليه فهو مذنب ، وإن اعترف ببعضها فقط وأنكر الباقى فإن اعترافاته تدينه فيما لم يعترف به ، والتعذيب أثبت دائماً أنه وسيلة فعالة للاعتراف ، ويترك الحكم بنوع التعذيب للمفتش المشرف على التحقيق ، وإذا لم يعترف المتهم رغم استخدام وسائل التعذيب فهو بحق تابع للشيطان ولا يستحق رحمة وعطف الكنيسة وعليه أن يحرق مع الملعونين» .

ومن الصعب أن يجد المرء وثيقة تتعدى على أبسط قواعد العدل بهذا الشكل الصريح الصارخ ، وأضافت الكنيسة لذلك تهمة الردة عن الدين لكل من لا يبلغ عن مشعوذ حتى لو كان أمه أو أقرب المقربين إليه . كما كان تعذيب الشهود الذين يثبت كذبهم مباحاً ، وكان كل من يرفض الشهادة يتهم بأنه ذو ميول للشعوذة ويعذب لهذا السبب ، وامتدت تهمة الشعوذة بأثر رجعى ، بمعنى أنه كان يحق للمفتشين إطلاقها على المتوفين منذ عشرات السنين ، ثم سلب ميراث أبنائهم وذويهم بدعوى أنه لا يحق لهم . وعن طريق هذه المصادرات كان يتم دفع رواتب المفتشين .

الضحايا

تعددت ضحايا محاكم التفتيش .. على سبيل المثال من يظهر اعتراضه على النظام البابوى ولو بقدر يسير ، ومن يأكل اللحم يوم الجمعة ، ومن يقل رأياً ضد البابا حتى ولو كان مخموراً كان يعتبر من المشعوذين وأحد ضحايا محاكم التفتيش. كما كانت نوعية الشهود تدل على عدم عدل هذه الإجراءات : فمنهم من يحمل تهمة الردة عن الدين ، ومنهم من هو متهم هو الآخر بالشعوذة ، والمجنونون والمتخلفون عقلياً كانوا أيضاً ممن تسمع شهاداتهم فى محاكم التفتيش ، وكان يؤخذ بالأقوال من مصادر ثانية غير مباشرة . أما أكثر ما يثير الحزن فهو أن أفراد العائلة الواحدة كانوا يتجسسون على بعضهم البعض ، ويبلغون السلطات عن بعضهم البعض متهمين بعضهم بعضاً

بأنهم مشعوذون وذلك حتى ينفوا التهمة عن أنفسهم .

كما لم يجرؤ أى محام على الترافع عنهم بالطبع عملاً بمبدأ أن البابا لا يخطئ أبداً ، ولذا فحكمه لا يرد . أما الخطأ الأكبر الذى وقعت فيه الكنيسة هو أنها ساوت بين البابا وبين الدين المسيحى ، بحيث أصبحت تهمة الشعوذة هى «الخروج على تعاليم البابا» بدلاً من أن تكون «الخروج على تعاليم المسيحية» .

وحين كان يشتد تعذيب المتهم ولا يعترف بأفعال الشعوذة رغم ذلك ، كان لا يمكن لرجال التفتيش أن يتراجعوا فى اتهامهم حيث أن البابا لا يخطئ ، لذا أضيفت لتهمة الشعوذة تهمة التفكير المشعوذ ، وكانوا بذلك يدعون أن المتهم وإن لم يقم بأفعال الشعوذة يفكر أفكاراً مشعوذة كانت تكفى لإلقاء التهمة عليه .

سيـــر التفتيـــش

كان التفتيش يسير كالتالى : عندما يصل الدومينيكان إلى مدينة ما ، يطلبون من القائمين عليها معاونتهم فى مهمتهم ، ثم يلقون فى اليوم التالى موعظة فى الكنيسة ـ حيث يكون جميع أهالى المدينة قد تجمعوا ـ عن الشعوذة وعدم جدواها وعقاب الرب لها ، وعدم جدوى التستر على ممارسيها . كما كانوا يعدون من يعترف من تلقاء نفسه بعقوبة بسيطة أو العفو عنه . ثم ينتظرون فى مقرهم ، وأحياناً كان لا يأتيهم أحد على الإطلاق ، أما فى أحيان أخرى فكانت الجموع تصل إلى عشرة آلاف شخص كما حدث فى طولون بفرنسا .

وكان أعضاء المحكمة يتكونون من اثنين من المفتشين واثنين من الشهود وموظفى التفتيش ، وكانوا جميعهم مقنعين بحيث لا يمكن التعرف عليهم . وكانت الجملة الوحيدة على لسان المفتش هى : «قل الحقيقة» ومهما طلب المذنب من إيضاح كان لا يجد إجابة سوى ترديد نفس الجملة مراراً وتكراراً : «قل الحقيقة» .

وعندما يظهر بجلاء أن المذنب لا ينوى الاعتراف من تلقاء نفسه ، كانت تبدأ مرحلة التعذيب بالتدريج ، وكان يتم ربطه من جميع أجزاء جسده«يديه ورجليه ووسطه وأكتافه» ، وبين كل مرحلة وأخرى كان المفتش يردد : «قل الحقيقة» فإن لم يستجب المذنب يتم شد الوثاق بحيث يصبح أكثر غلظة ، فإن لم يستجب يتم تعليقه

فى حبل وسحبه لأعلى سقف الحجرة . ولكن هذا لم يكن نهاية المطاف ، فقد كان هناك نوع من أنواع التعذيب يفوق جميع الأنواع الأخرى .

التعذيـب بالمـاء

قصة الفيرا دل كامبو تعطى مثالاً لتعذيب تلك الأيام ، فقد اقتيدت هذه المرأة للتحقيق بناءً على وشاية من خدمها ترتب عليها اتهامها بأنها يهودية . أما أساس هذا الاتهام فكان أنها تغير ملابسها كل سبت ولا تأكل لحم الخنزير . ولم تكن الفيرا تدرى شيئاً عن تهمتها ، وتم تعذيبها كما سبق وصفه حتى أنها استنجدت بالمفتشين ليدلوها على تهمتها لتعترف بها ، فلم يفعلوا بالطبع ، وعندما لم تعترف الفيرا بشىء لعدم علمها بشىء قاموا بتعذيبها بالماء ، وذلك بفتح فمها عنوة بوضع حبل سميك فيه ، ثم تقطير المياه قطرة قطرة ، وكان كثير من الضحايا يموتون من جراء هذا التعذيب، ولكن الفيرا لم تمت فقد تعرفت على تهمتها واعترفت بها ، فتم تخفيف عقوبتها إلى ثلاث سنوات سجن ، وارتداء ملابس الفضيحة التى تميزها عن غيرها بأنها مذنبة . ولكن بعد ستة أشهر فقط أصيبت الفيرا بالجنون من جراء ما تعرضت له.

تاريخ محاكم التفتيش فى أسبانيا

عندما انتصر ايزابيلا وفرديناند ، واستوليا على حكم أسبانيا تحول كثير من اليهود فيها إلى المسيحية تهرباً من الجزية ، ولكن الملك والملكة ظلا لا يثقان فيهم لشكهما فى حسن مسيحيتهم وولائهم لهما . لذا طلبا من البابا سيكستوس الرابع فى عام ١٤٨٠ أن يتم إرسال مفتشين إلى أسبانيا للتخلص من هؤلاء الأعداء . وكان أشهر المفتشين فى أسبانيا هو توماس الطرقماوى الذى استمر فى منصبه لمدة خمسة عشرة عاماً ، وكان له ١١٤,٠٠٠ ضحية تم إحراق ١٠,٢٢٠ منها ، ومعظم الباقين سجنوا مدى الحياة .

كما قدر لورنتى سكرتير التفتيش فى أسبانيا من عام ١٧٩٠ إلى عام ٩٢ أنه حتى عهده بلغ عدد ضحايا التفتيش فى أسبانيا الذين تم إحراقهم نحو ثلاثين ألف شخص . وعندما غزا نابليون أسبانيا عام ١٨٠٨ اعتصم القساوسة الدومينيكان بديرهم فى

مدريد ، وعندما اقتحمه نابليون عنوة أنكر الدومينيكان وجود أى حجرات للتعذيب ، ولكن عند البحث والتنقيب وجدها جنود نابليون تحت الأرض مليئة بالمساجين وكلهم عرايا وكثير منهم معتوه ، ورغم أن القوات الفرنسية لم تكن تتميز برقة الشعور إلا أن هذا المنظر قد أثار شعور جنودها فأخرجوا المساجين وفجروا الدير بكامله .

محاكم التفتيش الرومانية

تختلف محاكم التفتيش الرومانية عن محاكم تفتيش العصور الوسطى التى امتدت لمئات السنين ، فقد بدأت محاكم التفتيش الرومانية عام ١٥٤٢ عندما وضعها البابا بولس الثالث، فى ٢١ يوليو من نفس العام ، وتحمس لها كبير الكرادلة ـ البابا بولس الرابع فيما بعد ـ حتى أنه اشترى من ماله الخاص بيتاً وأعده ليكون أول مقر لتعذيب المتهمين بالشعوذة ، ومن أقواله المأثورة : « لايجب على أى إنسان يتدنى بنفسه إلى درجة تقبل المشعوذين، ولو كان أبى ذاته من المشعوذين لجمعت بنفسى الحطب اللازم لحرقه» .

وعندما تم اختياره بابا عام ١٥٥٥ أطلق يده فى التفتيش ووسائل التعذيب ولم تكن له لذة فى الحياة سوى عمله وواجبه الذى لم يشغله عنه بشيء، كما كان من محبى مصادرة حرية الفكر، وتحديد قائمة سوداء بالممنوع منه، وقد زادت صعوبة هذه المهمة بعد عام ١٤٥٠ وإنشاء المطابع الحديثة التى أصبحت تخرج الكتب بأعداد كبيرة، ولذلك يعتبر الكثيرون المطابع الحديثة أكبر نصير للديمقراطية، ولذلك أيضاً لم تلق تلك المطابع قبولاً عند البابوات سواء حينئذ أو فيما بعد .

وفى عهد البابا بولس الرابع تم إحراق أكبر عدد من الكتب، حتى أن عمال المطابع وأصحابها خشوا انقطاع رزقهم تماماً ، أما الكتاب فقد كادوا يمتنعون عن الكتابة تماماً. وفى عام ١٥٦٤ تم إنشاء مجلس للرقابة على الكتب وضع عشرة معايير صنف تحتها كتباً يجب مصادرتها ، واستمر عمل هذ اللجنة لمئات السنين قضت فيها تقريباً على معظم الكتابات الكلاسيكية، وظهر أثر تلك اللجنة على إصدارات الكنيسة الكاثوليكية حتى اليوم ، فهى فى جميع العلوم ـ الدينية والدنيوية ـ متخلفة عن غيرها ، لأن روح البحث العلمى تختنق فى أجواء الخوف والرقابة التى كانت تبثها الكنيسة.

ولأن العلماء وطلاب العلم كانوا ممنوعين من الاطلاع على مصادر معينة بأمر الكنيسة ، فلم يكتمل علمهم أبداً ولم تبن أبحاثهم على أسس كاملة. وأخيراً تم حل هذا المجلس عام ١٩٦٦ فى عهد البابا بولس السادس.

أعاد البابا بيوس السابع محاكم التفتيش المقدسة عام ١٨١٤ لنفس الأسباب التى بدأت بها سابقاً ، وهى عدم احترام الدين أو شعائره أو رجاله . أما فى أسبانيا فقد تم التخلص من هذا النظام عام ١٨١٣ ، وفى عام ١٨١٦ منع استخدام وسائل التعذيب رسمياً أثناء التفتيش والتحقيقات وإن استمرت لمدة عشرين عاماً أخرى .

وليس معنى هذا أن الأحوال تحسنت كثيراً عن ذى قبل ، فقد كانت هناك استثناءات كثيرة تستوجب الرجوع للسيرة الأولى ، كما أن طريقة المحاكم كانت لا تزال تفتقد كثيراً من عناصر العدل : فالمتهمون لم يواجهوا بالشهود أبداً ، ولم يسمح بالدفاع عنهم ، وكان القضاة من القساوسة وحكمهم لا رجعة فيه ولا استشارة .

تقييم البابوات

إن تاريخ الجرائم التى ارتكبتها الكنيسة الكاثوليكية تجاه الآخرين لهو سجل مخجل لكل مؤسسة في الدنيا ، فعلى مدى ستة قرون أو أكثر ـ بدءاً من القرن الثالث عشر ـ كانت الكنيسة عدواً لحقوق الإنسان ولو فى صورتها البسيطة ، وعلى مدى تاريخ ثمانين بابا لم يحاول أحدهم تغيير هذا النظام للأفضل ، بل بالعكس أضاف له كل منهم ما يزيده قسوة وعدم إنسانية . وإذا كان السؤال : كيف استطاع البابوات إكمال هذا المشوار دون التفكير في التراجع ؟

فان الاجابة هي أنهم وضعوا في مأزق اسمه عصمة البابا من الخطأ ، وكان لا يمكن التراجع عما حدده بابا سابق ، ولذا لم يكن أمامهم سوى الاستمرار في نفس الطريق . وأما عن الحكام وعدم وقوفهم في وجه أخطاء الكنيسة في حق شعوبهم، فإن الدولة في ذلك الوقت كانت وحدة بين الدولة والكنيسة ، لا فرق بينهما وكانت الشعوذة الدينية تعتبر أيضاً خيانة للوطن لأنها تهدد وحدته . وهذا إن دلنا على شيء فإنما يدلنا على أن وحدة الدولة والكنيسة كان لها آثار سلبية لا يمكن تجاهلها .

ومع أن هذه الأسباب تشرح الخلفية التاريخية للوضع حينذاك ، إلا أنها لا تبرر

غرف التعذيب وعدم مواجهة المتهم بالشهود ، وعدم وجود دفاع عن المتهمين .

لقد حاول بعض المؤرخين إعفاء البابوات من جريمة محاكم التفتيش ، ولكن ذلك كان مستحيلاً : ففكرة محاكم التفتيش نبتة بابوية ، وكذلك تنفيذها ، وأهم ركن استند إليه المفتشون والمحققون كان علمهم أنهم ينفذون أوامر بابوية ويلقون مساندتهم التامة ، كما أن أصل الجريمة التى كانت تؤدى لمثول الشخص أمام محكمة التفتيش، وهى الشعوذة ، كانت الخروج على النمط الدينى الذى رسمه البابا أو تعاليمه أو تقاليد الكنيسة كما وضعها هو . كما لا يستطيع آباء الكنيسة التملص من جريمة إعادة وسائل التعذيب ضمن التحقيقات وكوسيلة من وسائل إرغام المتهمين على الاعتراف حتى بجرائم لم يرتكبوها كما رأينا فى الفصل السابق . وحجة بعض المدافعين عن محاكم التفتيش أنه لا يجب قياسها والنظر إليها بمعايير القرن العشرين الليبرالية الإنسانية ، ولكن يدحض هذه الحجة أن محاكم التفتيش كانت تمثل جريمة فى حق الإنسانية بمقاييس القرنين العاشر والحادى عشر التى كانت تمنع وسائل التعذيب عن المتهمين ، وإذا كانت الكنيسة قد عصمت نفسها والبابا من الخطأ أو اعتبرت أن أحكامها صحيحة لا رجعة فيها فلا يجوز الدفاع عنها بالحجة السابقة ، حيث يجب على أهل الكنيسة أن يختاروا : فإما أن هناك عصمة من الخطأ وثباتا على المواقف ، وإما أن هناك نسبة وتناسباً بين ما فعلته الكنيسة فى الشعوب المسيحية وبين مقاييس تلك الأزمنة !! ثم لنقارن بين الدول التى أدخلت محاكم التفتيش ضمن نظامها وبين تلك التى لم تلجأ إليها كانجلترا مثلاً : ففى انجلترا كان المبدأ السائد منذ عهد ويليام الفاتح أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته ، وهو مبدأ يحفظ الحد الأدنى من حقوق الإنسان.

كما كانت المحاكمات علنية والمتهمون يواجهون بالشهود ، وكان هناك دفاع عن المتهمين ، وجدير بالذكر أنه من الأسماء القليلة التى واجهت البابا اينوسنس برأيها المضاد علانية هو ستيفن لانجتون القس الإنجليزى ، كما أن البروتستانتى بالتازار هوبماير كتب عام ١٥٢٤ فصولاً كاملة ضد محاكم التفتيش وطغيانها .

تقييـــم المؤرخيـــن

لم يكن المؤرخون على وجه العموم من المدافعين عن محاكم التفتيش ، ووصفها «لى» مثلاً ـ وكان من طائفة الكويكر ـ بأنها سلسلة من الرعب، ووصفها لورد أكتون الكاثوليكى بأنها «قتل دينى» أما البابوات فوصفهم بأنهم «قتلة وجعلوا من القتل وسيلة من وسائل تحقيق العدالة فى الكنيسة وشرطاً أساسياً من شروط خلاص النفوس» وحتى بعد الحرب العالمية الثانية وأهوالها وصفها كولتون بأنها «أدهى الأساليب البربرية التى استخدمت فى تاريخ العالم المتحضر» .

وقد كتب أحد المؤرخين المصريين العالميين عام ١٩٧١ : «إن السخرية في محاكم التفتيش تكمن فى أنها لم تحطم أبداً المبدأ المسيحي بأنه لا إراقة للدماء فى سبيل المسيحية أو باسمها ، وذلك لأنها قامت بإحراق جميع ضحاياها ولم ترق دماءهم.» ومنذ حوالى ١٤٠ عاماً زار روبرت ريتشارد مادن ـ وهو انجليزى كاثوليكى ورع ـ أفينيون وانبهر من المساحة التى احتلتها غرف التعذيب بالنسبة لمساحة القصر البابوى ككل ، وسجل مادن مشاهداته فى كتابه «جاليليو ومحاكم التفتيش» وفيه أعرب عن فزعه من كم السواد الذى كان يحيط بالمحرقة دلالة ضخامة عدد ضحاياها ، كما رأى الحجرات العلوية التى كان يختبئ فيها كاتبو الجلسات والشهود الذين كانوا لا يواجهون المتهمين كما رأى السلاسل والقيود التى كانوا يقيدون بها . وعندما سئل عن رأيه فى المسيحية بعد كل ما رأى أجاب : «أظن أنه دين حق لمجرد أنه استطاع الاستمرار فى قلوب الناس رغم كل الأهوال التى تمت باسمه أو لاقاها الناس بسببه» . وكتب كاثوليكى مجهول : «إننى أعتقد أنه من الأفضل أن يكون الإنسان وثنياً عن أن يؤمن بدين محاكم التفتيش» . وقال آخر : «إن المسيح نفسه كان سيعتبر مشعوذاً لو كان حياً فى عصر محاكم التفتيش» .وحتى اليوم لم تتخلص الكنيسة تماماً من سلبيات محاكم التفتيش ولا تزال الديكتاتورية تسرى فيها ، وبالنسبة لستة قرون من محاكم التفتيش فإن عدم وجود آثار لها اليوم كان سيكون أكثر إثارة للدهشة من وجودها. ولكن المشعوذين لم يكونوا الفئة الوحيدة المطاردة والمضطهدة من الكنيسة، فقد تزامل معهم السحرة واليهود .

الفصل الحادى عشر

مطاردة اليهود والسحرة

كان رأى المسيحية منذ القدم أن وجود سحرة لهم قدرات خارقة تفوق قدرات البشر العادية هو من الخرافات غير المستحبة فى المسيحية .. فرغم أنه لا يوجد نص صريح فى المسيحية ضد السحرة ، إلا أن أهل الكنيسة الكاثوليكية طالما وعظوا الناس بالابتعاد عن تلك الخرافات ونبذها عملاً بمبدأ أن الرب قادر على كل شيء ، وأنه القوة الوحيدة فى هذا الكون ، كما وصف السحرة الذين كانوا يدعون لأنفسهم تلك القدرات بأنهم معتوهون وخارجون على الملة .

ورغم ذلك لم تستطع الكنيسة محو أثر تلك الخرافات من أذهان الناس تماماً ، فقد استمر بيع وشراء مشروبات المحبة والأحجبة والخواتم والمرايا المسحورة .. كما استمر خوف العامة من ظواهر خاصة فى السماء كظهور كواكب أو شهب معينة فى الليل . وكان لا ينال مدعى السحر من الكنيسة سوى الإحتقار والتجاهل التام، ولكن ذلك لم يستمر للأبد إذ تبدل الحال بعد حين .

تدخل محاكم التفتيش

أصاب القلق البابا جريجورى التاسع عندما علم بأن عدد السحرة فى اضطراد مستمر وأحس بمسئوليته كراعٍ للشعوب المسيحية الواجب عليه حمايتها من تلك الخرافات التى تبعد بها عن الدين الصحيح .

ومن دلائل قلق البابا اختياره للقس كونراد من ماربرج لتولى مهمة القضاء على

تلك الفئة ، وكونراد هذا كان مشهوراً بغلظته وحبه للتعذيب العنيف ، وبلغ تعذيبه لهؤلاء السحرة حداً أصيب معه معظمهم بالعته ، وعندئذ انطلقوا يعترفون ـ بسبب عتههم وتعذيبهم معاً ـ بجرائم خيالية مثل مصاحبتهم للشيطان ، وإتيانهم السحر لإيذاء الناس .. الخ .

وانتهز كونراد الفرصة فأخذ فى إحراقهم بالمئات بسبب اعترافاتهم المخبولة تلك. وكانت تلك الطائفة تسمي اللوسيفريين ، وكان مقرهم فى ألمانيا ، كما كان هناك طائفة أهل المعبد الذين تم القضاء عليهم بالتعاون بين ملك فرنسا والبابا : الأول للاستيلاء على أملاكهم ، والثانى لحماية الكنيسة الكاثوليكية . وهكذا تحول موقف الكنيسة تجاه السحرة من التجاهل واللامبالاة إلى اعتبارهم شراً ينذر بالخطر الذى يتهدد الدين المسيحى ، لذا يجب القضاء عليه .

السعى لتدمير السحرة

بقدر بشاعة مطاردات السحرة فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، فإنها لا ترقى إلى تطور تلك المسألة فيما بعد ، فقد أصبح اللوم يلقى على السحرة إذا جاء الشتاء قارساً أو تأخر موسم الحصاد .. إلخ . وكان إلقاء اللوم معناه إحراق هؤلاء السحرة بلا تردد .

أما الذى فجر تلك الموجة من الغضب والكراهية ضدهم فهو كتاب البابا اينوسنس الثامن الذى أصدره عام ١٤٨٤ والذى طرق فيه بصراحة لأول مرة هذا الموضوع ، وعدد فيه الأفعال الشريرة المنسوبة للسحرة كخنق الأجنة فى بطون أمهاتهم ، ومنع السيدات من الحمل ، والتفريق بين الزوجين ، وتهم أخرى كثيرة ، ولأنها صدرت في وثيقة رسمية فقد اعتبر كل مكذب بها كافر ، ودخلت ضمن نصوص الكنيسة منذ عام إصدارها ، وتولي مهمة القضاء عليهم هذه المرة هينريش كرامر ويعقوب شبرنجر بتوكيل شخصي من البابا وكتبا معاً «كتاب السحرة» عام ١٤٨٦ . وهذا الكتاب دليل فى اقتفاء أثر السحرة ومعاقبتهم ، ويعتبره المؤرخون مثالاً غير متكرر للتخريف، وهذا الكتاب ظل مرجعاً لكل قاض ورجل قانون لمدة ثلاثة قرون. أما مقدمة هذا الكتاب وطبعاته العديدة فكانت بالطبع أجزاء من كتاب البابا اينوسنس الثامن .

كتـــاب السحـــرة

يعد هذا الكتاب ـ كما قلنا سلفاً ـ من أكبر الخرافات ، ويجسد مخاوف هذين القسيسين أساساً من الجنس والنساء ، والكارثة أنهما يعطيان خيالهما الخصب وربما المريض صفة الحقيقة والواقع «العلمى» !!

ويدور هذا الكتاب بشكل رئيسى حول قدرة الساحرات على إفقاد الرجال رجولتهم والأماكن التى قد يخبئنها فيها وكيفية العثور عليها وإعادتها لأصحابها !! ويظهر الكتاب كره كاتبيه للنساء واللاتى يقول عنهن الكاتبان: « إن لم تجد النساء رجلاً يحصلن عليه فإنهن ينقلبن ساحرات شريرات يتحالفن مع الشيطان نفسه فى سبيل إحراز أهدافهن !! »

محـــاولات تصفيـــة السحـــرة

بعد أن كان عدد الساحرات قليلاً متفرقاً بين القرى والمدن ، وبسبب تعدد أنواع التعذيب وقسوتها ، بدأ حتى الأبرياء يعترفون بذنوب لم يقترفوها وبكونهم سحرة وساحرات ليتخلصوا سريعاً من التعذيب ولو بالموت !! وهكذا ازداد عدد الساحرات وعدد المعذبين وعدد المحرقين ، وازدادت أيضاً ثقة المفتشين فى صدق حدسهم وأنهم لم يخطئوا مرة واحدة فى اقتفاء أثر ساحرة واحدة .

ورغم كل ما نسب للساحرات من قوى خارقة ، فلم يشكك أحد أبداً فى عدم مقاومتهن للمفتشين والتعذيب الذى تعرضن له والمحرقة التى انتهت بها حياتهن .

وبازدياد عدد الساحرات زاد عدد المعذبين والمحرقين ، فبعد أن كانت المحاكمات تعقد للساحرات واحدة واحدة أصبحت تعقد لهن محاكمات جماعية وأصبحن كذلك يحرقن بالمئات (خمسمائة خلال ثلاثة أشهر فى جنيف وستمائة فى بامبرج وتسعمائة فى فيرتسبرج) .

وبجانب محاولات القضاء عليهم بتعذيبهم جسدياً اتخذت الكنيسة أسلوباً آخر للقضاء على تلك الظاهرة خاصة بعد أن أثبتت التصفية الجسدية عدم جدواها ، وبعد أن لمس المفتشون أن لهؤلاء السحرة أتباعاً بسبب ميل الإنسان للطقوس والمراسم

المصاحبة لها ، فابتدعت الكنيسة طقوساً خاصة بها مثل اشعال ووهب الشموع للعذراء وقرع أجراس الكنيسة وصور القديسين والأحجبة ، ورغم كل ذلك خسرت الكنيسة المعركة أو كادت، إذ ازداد عدد التابعين للسحرة أو لنقل إن عددهم لم يقل ولا سطوتهم .

والحق أن أكبر عامل وراء ازدياد سطوتهم و زيادة أو ثبات عددهم هو الكنيسة نفسها ، فبمطاردتها لهم وإجبار الناس على الاعتراف ولو خطأ بكونهم سحرة زادت من عددهم وسطوتهم بين الناس ، وأظهرتهم بمظهر المنتصرين دون قصد ، وأتت الأساليب التى اتبعتها الكنيسة بعكس النتيجة المرجوة منها فساهمت فى تقوية شوكتهم بدلاً من القضاء عليهم .

مسئولية أباء الكنيسة

من الغباء اتهام البابوية بأنها خلقت ظاهرة السحرة ، فقد كان السحرة موجودين قبل ظهور المسيحية ، ولم تستطع الكنيسة محو تلك الظاهرة تماماً.

ولكن لا يمكن إنكار دور الكنيسة فى مطاردة هؤلاء السحرة واستخدام محاكم التفتيش ضدهم عند ظهورهم الثانى بعد ظهور المسيحية .

لقد كتب دلنجر فى كتابه «البابا والمجلس» إن مطاردة الساحرات وسوء معاملتهن عامة هى نتيجة مباشرة لسلطة البابا الديكتاتورية ويؤيده «لى» فى ذلك بقوله : «إن الكنيسة جندت سلطتها لإجبار الناس على الإيمان بتعاليمها ومن ضمنها الإيحاء لرعيتها بشرور السحرة».

وقبل عهد اينوسنس الثامن كان من علامات عدم الإيمان الاعتقاد بوجود قوى خارقة للسحرة ، وأن ذلك يناقض الإيمان بأن الله هو القوة الوحيدة المتحكمة فى هذا الكون ، أما بعد ذلك فكان من عدم الإيمان عدم التصديق بقوى الساحرات الخارقة وشرهن ، لأن ذلك ينافى تعاليم الكنيسة . وكان التناقض بين الموقفين جلياً لدرجة أن الكنيسة كان لابد لها أن تجد مخرجاً من هذا المأزق ، وبرر المفتشون ذلك التناقض بأن نوعية الساحرات قد اختلفت ، وأن ساحرات الزمن الأول قد انقرضن ، وقدكن طيبات غير مؤذيات ، أما ساحرات هذا الزمن ـ اللائى تعمل الكنيسة على قمعهن ـ فهن فى

حلف مع الشيطان ، لذا يجب تتبعهن والقضاء عليهن .

وفى عام ١٦٥٧ حدث تحول جذرى فى موقف محاكم التفتيش لم يظهر له مقدمات أو تبريرات حتى يومنا هذا : فقد صدرت تعليمات تفيد بأن ثمة أخطاء قد حدثت أثناء تنفيذ أحكام محاكم التفتيش ، كاستخدام التعذيب لاستخراج الاعترافات من المتهمين مثلاً ، وبالطبع لم يأت ذكر البابا أو أى مسئولية له عن هذه الأخطاء ،كما لم تصدر كلمة رثاء واحدة لهؤلاء الذين عذبوا ظلماً حتى الموت على أيدى منفذى أحكام محاكم التفتيش .

وهكذا تم إسقاط نظرية تم العمل بها لعدة قرون دون تبرير أو تفسير ، وبالنسبة للكنيسة التى تنسب العصمة من الخطأ لآبائها كان من المستحيل الاعتراف بأنه كان هناك خطأ على مستوى آباء الكنيسة .

مطـــاردة اليهـــود

بعد توليه منصب البابوية بشهرين فقط ، أصدر البابا بولس الرابع عام ١٥٥٥ كتابه الذى لا يظهر أبداً ضمن حوليات الكنيسة ، لأنه يمثل ركناً من أركان العداء للسامية بشكل واضح وصريح .

العـــداء للســاميـــة

فى عهد البابا بولس الرابع تقلص تعداد سكان روما إلى النصف بسبب مطارداته وقتله لليهود بصفة أساسية ، فقد كان يحفظ كل توجيهات الكنيسة ضد اليهود عن ظهر قلب منذ أوائل عصور اتجاه الكنيسة ضد اليهود ، فبعد أن تخطى اليهود مرحلة العداء الأولى ضدهم خلال عهد الامبراطورية الرومانية ، تمتعوا فى ظل قانون كاركالا لعام٢١٢ بجميع الحقوق المدنية ، وعندما تحول كونستانتين إلى النصرانية بعدها بقرن واحد نشطت حركة العداء للسامية مرة أخرى ، فقد أقفلت فى وجوههم جميع الوظائف الإدارية والقيادية ، ولم يسمح لهم بتعيين مستخدمين مسيحيين وألا يتبادلوا أى خدمات طبية مع مسيحيين . أما الزواج بين مسيحى ويهودية أو العكس فاعتبر زنا ولاغياً ، وعقوبته الإعدام ، وفى أى إجراءات تقاضى بين مسيحيين ويهود

كان مسموحاً بشهود مسيحيين فقط . وفي عهد البابا جريجورى الكبير الذى كان أرحمهم باليهود رفع عنهم التعذيب ، وإن ضيق عليهم الخناق ليتحولوا للمسيحية ، فقد قرر تخفيض إيجارات مساكنهم بنسبة الثلث إذا هم تحولوا عن اليهودية للمسيحية ، وعندما نوقش البابا في ذلك باعتباره خسارة مادية قال : «إن لم نكسب قلوب جيل الآباء فسنكسب حتماً إيمان جيل الأبناء الذين سيولدون مسيحيون ، وفي سبيل إعلاء كلمة المسيحية تهون كل الخسائر المادية» .

ثم تذكر المسيحيون أن اليهود هم قتلة المسيح فحددوا لهم لأول مرة في التاريخ أحياء معينة لمعيشتهم لها مدخل واحد يغلق عليهم في المساء ، ويعين عليه حارس غير يهودى ، ثم تم تحديد مجالات العمل لهم وهى الاتجار في الملابس المستعملة والمواد الغذائية ما عدا القمح ، وسمح لهم بمعبد واحد بكل مدينة ، وتم تدمير الباقي، وكان عليهم ارتداء قبعات صفراء أثناء خروجهم للتعرف عليهم ، كما لم يسمح لهم إلا باستخدام الإيطالية واللاتينية في معاملاتهم ، ولم يسمح بمخاطبتهم بكلمة «سيد» وغنى عن القول أن الأحياء التى خصصت لهم كانت في غاية القذارة والضيق وغير صالحة للعيشة الآدمية . واستمر الحال على هذا المنوال لمدة ثلاثة قرون ، وفي القرن السابع عشر حدث تطور للأسوأ ، فتم بناء بيوت لتحويل اليهود عنوة عن ديانتهم وكان ما يجرى فيها أشبه ما يكون بغسيل المخ ، وإن كان الكبار لم يلينوا بسهولة إلا أن الصغار ـ مع إبعادهم عن ذويهم ـ كانوا غالباً ما يتحولون إلى المسيحية، وبهذه الطريقة تحول بين عامى ١٦٣٤ و ١٧٩٠ (٢٠٣٠) يهوديا في روما إلى المسيحية .

وفي القرن الثامن عشر قرر البابا بنديكت الرابع عشر أن اليهودى الذى يتم تعميده رغماً عن رغبته شخصياً أو رغبة ذويه إن كان طفلاً هو مسيحى بالتأكيد ، وعليه أن يقيم شعائرهم ، وإن لم يفعل يعتبر مرتداً مع كل ما تحمله هذه التهمة من تهديد ووعيد .

وبسبب ضيق الأحياء باليهود كانت تتم تعلية المنازل رأسياً ، لذلك فكثيراً ما كانت تحدث الانهيارات المنزلية والحرائق الكثيرة ، ولعدم إمكانية النظافة التامة لتكدس السكان نشأت مقولة إن لليهود رائحة كريهة مميزة تذهب بعد التعميد فقط. وأجرى

طبيب إيطالى بحثاً عن أحياء اليهود عام ١٧٠٠ فأظهر إصابتهم بكثير من أمراض الجهاز التنفسى والأسنان والرأس كالتى يعانى منها المساجين تماماً.

أما الأطباء المسيحيون الذين كانوا يستدعون لحى اليهود فكان واجبهم الأول تحويل المريض إلى المسيحية ، فإن لم يفعل لا يعالجه الطبيب ، وكانت شهادة رجلين مسيحيين أن يهودياً قد تكلم فى حق البابا أو أى رجل دين مسيحى أو الديانة المسيحية كافية لإعدام اليهودى .

وفى عام ١٨٤٦ حين كان اليهود قد تحرروا فى كل الدنيا كانوا لا يزال يُساء إليهم فى روما ، ويزج بهم إلى السجون لأفعال تعد جرائم بسبب واحد فقط : أن اليهود فعلوها.

وهناك قصة اليهودى ادجاردو مورتارا الشهيرة ، الذى اعترفت خادمته المسيحية (والتى كانت تعمل لديهم سراً) أنها عمدته وهو رضيع حين ظنته سيموت ، وعندما اعترفت بذلك للقس كان الطفل عمره ٧ سنوات فأُخذ قسراً من أهله رغم تدخل ملوك النمسا وفرنسا وتم إرساله إلى روما حيث تربى كمسيحى وأصبح قساً مرموقاً رغم أنف أهله .

وفى عام ١٨٧٠ عندما غزت الجيوش الإيطالية روما تم تحرير اليهود وإزالة آخر حى من أحيائهم المغلقة وظن اليهود أن عذابهم قد انتهى ، وما كان لهم أن يعلموا أن أحلك عصورهم لم تأت بعد .

بيوس الثانى عشر وسياسة الصمت التام

طاردت الكنيسة اليهود بسبب ديانتهم واضطهدتهم الفاشية بسبب جنسهم ، وكان هدف آباء الكنيسة النهائى هو تحويل اليهود للمسيحية ، أما هدف هتلر وموسولينى فكان القضاء عليهم نهائياً .

ورغم الفروق بينهما فإن العوامل المشتركة بين مطاردة الكنيسة ، ومطاردة الفاشية والنازية لليهود لا تزال واضحة جداً : ورغم أن النازية والفاشية لم تكن لهما نفس الدوافع الدينية لمطاردة اليهود ، إلا أنهما استعارتا نفس الألفاظ مثل إطلاق لقب

«جيتو» على أحياء اليهود للإيحاء بأن الحملة على اليهود هى استكمال لحملة الكنيسة ، وذلك لكسب الرأى العام . وفى عام ١٩٣٩ تولى بيوس الثانى عشر منصب البابوية ، وعندما بدأ موسولينى فى الضغط على اليهود فى إيطاليا التزم البابا سياسة الصمت التام .

وفى ٤ يونيو ١٩٤٠ تحالفت إيطاليا وألمانيا فى الحرب العالمية الثانية ، ومع نهاية عام ١٩٤١ كان ثلاثة أرباع يهود إيطاليا قد فقدوا مورد رزقهم بسبب سياسة اضطهاد الدولة لهم ، وكان الأوان قد آن لإصدار نشرة من الكنيسة حسب توقعات الكثيرين ، ولكن بيوس خيب أمل الكثيرين بأن التزم ـ مرة أخرى ـ سياسة الصمت .

ورغم أفعال النازية الشهيرة مع اليهود ومأساة أوسشفتس التزمت الكنيسة نفس سياستها السابقة وبدأ كثيرون ومنهم الكاثوليك يعدونه موقفاً مخزياً للكنيسة التى طالما نادت بأنها حامية حقوق الإنسان وحاملة رسالة السلام للأرض . وأخيراً احتجت الكنيسة الفرنسية على حملات الإبادة الموجهة ضد اليهود ، ولكن عندما قدمت حكومة بيتان معونة مالية للكنيسة حمل أسقف فرنسا الأخبار السارة إلى البابا بيوس الثانى عشر فى روما ، ولم يتم تبادل كلمة واحدة عن اليهود .

ورغم أن أسقف كانتربرى أعلن اعتراضه على ما يحدث لليهود كتابة فى جريدة التايمز إلا أن هتلر لم يأبه به لأنه كان هناك شخص واحد فقط فى العالم يخشى هتلر شهادته لوجود عدد كبير من الكاثوليك فى جيشه ولكن هذا الرجل لم ينبس بكلمة واحدة .

فى سبتمبر ١٩٤٣ دخلت القوات الألمانية روما ، وطالبت يهودها بخمسين كيلو جراماً من الذهب خلال ست وثلاثين ساعة ، وإلا يتم ترحيل مائتى يهودى إلى غرف الغاز ، وعرض البابا استكمال ما لم يتمكن اليهود من استكماله ، ولكن ذلك لم ينقذ يهودياً واحداً من مصيره المحتوم.

وفى أكتوبر من نفس العام ، وقفت القوات الألمانية على أبواب الفاتيكان بحجة حمايته ، ولكن السبب الحقيقى كان إخافة البابا ، وقد نجحوا فى ذلك فيما يبدو ، فالبابا استمر فى سياسة الصمت ، وعندما سئل عن ذلك أجاب أنه يخشى على اليهود

أن يُساء إليهم أكثر مما هو حادث إن هو أعلن عن رأيه صراحة، ولذا فضل التزام الصمت تجاه ما يحدث .

وبعث مبعوث الكنيسة الألمانية في روما إلى حكومته وكذلك السفير الألمانى فى روما برسائل تفيد أنه يجب وقف المذابح ضد اليهود ، والتى تتم تحت سمع وبصر الفاتيكان ، وإلا سيجد البابا نفسه مضطراً إلى اتخاذ موقف مضاد منها ، ولكن تلك الهموم أثبتت أنها لا أساس لها من الصحة ، ولم يصدق النازيون حسن حظهم ، واستمروا فى غيهم على نطاق واسع .

وتؤكد بعض المصادر أن البابا كان على علم مسبق بمذبحة تم فيها قتل ٣٥٥ يهودياً على يد أحد قواد القوات الألمانية نفسها ولكنه لم ينذر اليهود، أو يحاول إيقاف هذه المجزرة التى تمت فعلاً ، والتى لم يكلف راديو الفاتيكان نفسه مشقة إذاعتها .

وبعد انتهاء الحرب وتحرير اليهود انقسمت الآراء حول موقف البابا ، فالمدافعون عنه قالوا إنه أراد أن يحفظ حياد الفاتيكان وخشى أن يثقل على ضمير الجنود الألمان الكاثوليك الذين لم يكن لهم خيار فى الأوامر الصادرة إليهم ، ويقول مهاجموه : هل هناك حياد بين الخير والشر المطلق ؟!

ويتساءل الكاتب هوخهوت : «كيف يتسنى لأكبر مسئول عن الأخلاق فى أوروبا المسيحية أن يشهد إبادة شعب بالكامل دون أن يتحرك ولو بلسانه فقط ؟»

وفى داخل الفاتيكان نفسه انقسمت الآراء حول صحة حياد البابا بيوس الثانى عشر وصمته إزاء الأحداث سالفة الذكر .

أما اليهود فقد شكروا للبابا عدم وقوفه فى صف النازى صراحة ، واعتبروا ذلك وقوفاً فى صفهم يستحق الشكر عليه ، كما شكروا له إيواء الكنيسة لبعض اليهود أثناء مطاردتهم متغاضين عن سكوت البابا عن ردع الألمان عن حملاتهم ضد اليهود .

أما لابيد ـ الكاتب اليهودى ـ فقد عتب على البابا أنه لم يذكر العالم بأن قاعدة «حب أخاك كما تحب نفسك» التى علمها المسيح لحوارييه تنطبق على اليهود أيضاً قائلاً إنها كانت ستصبح أفضل من كثير من قوائم الممنوعات والشجب، ولكن حتى ذلك التلميح البعيد لم يصدر من البابا .

وخلف البابا بيوس الثانى عشر البابا يوحنا الثالث والعشرون الذى شرع فور توليه منصبه فى تحسين علاقة الكنيسة باليهود ، فمنع استخدام صفة «الخونة» التى كانت ترتبط دائماً بذكر اليهود وخيانتهم للمسيح . ولكن القدر لم يمهله ليستكمل مسيرة الصلح مع اليهود ، وتولى بعده البابا بولس السادس الذى لم ينتهج نفس سياسته ، بل ذكّر العالم مرة أخرى بجريمة اليهود فى حق المسيح والمسيحية .

وعلق أحد رجال الدين المسيحى على ذلك قائلاً : «إن رجال الكنيسة الكاثوليكية على استعداد للصراخ بكل ما أوتوا من قوة : لا تعذيب لليهود بعد اليوم، لا إبادة لشعوب بالكامل! ولكنهم لن يستطيعوا أبداً غفران خيانة اليهود للمسيح» .

أطول رحلة للبابا يوحنا بولس

فى ربيع عام ١٩٨٦ قام البابا يوحنا بولس بأطول رحلة فى تاريخه ، فقد عبر الشارع أمام الفاتيكان ليصل إلى المعبد اليهودى بروما لمقابلة الحاخام الأكبر للجالية اليهودية بروما ، وفى هذا اللقاء شجب البابا «كراهية ومطاردة اليهود مهما كان مصدرها» وكرر البابا هذه الكلمات الأخيرة مما دفع جمهور المجتمعين للبكاء : فقد تذكر اليهود أهليهم الذين قتلوا ظلماً وعدواناً ، وأحسوا أن البابا ـ وهو بولندى الجنسية ـ يحس بآلامهم أكثر من غيره : فقد كان هناك ثلاثة ملايين يهودى بولندى ضمن الضحايا .

وفى نهاية اللقاء أقيمت صلاة جماعية فى صمت : كل يصلى لربه ويقيم شعائره فى نفس الوقت ونفس المكان ، ليتذكر المجتمعون العوامل التى تجمعهم وإنسانيتهم المشتركة ، وينسوا الخلافات والحقد الذى زرع جذوره منذ قرون طويلة. أما دولة إسرائيل فلم يذكرها البابا بتاتاً «لأنها مسألة سياسية لا تخص الدين» كما قيل فيما بعد . وشعر اليهود من خلال هذا اللقاء أن البابا يحمّل الكنيسة وشعبها جزءاً من ذنب اليهود الذين اغتيلوا ظلماً . وظهر نتيجة لذلك اللقاء تفسير يقول : إن المسيح لم يمت فداء أخطاء اليهود فقط وإنما أخطاء البشرية جمعاء وإن تحميل اليهود وحدهم هذا الذنب لهو من الظلم .

وأخيراً : هل من القسوة أن نقول إن مطاردة الكنيسة لليهود هو نوع من الشعوذة؟!

الفصل الثانى عشر

آباء الكنيسة المخطئون

«كان كثير من آباء الكنيسة من المخطئين » بالنسبة لكثير من الكاثوليك تبدو هذه المقولة متناقضة مع نفسها كقولنا مربع مستدير أو دائرة مربعة ، كما ينسبها كثير من الكاثوليك للبروتستانت، ولكن الحقيقة أن صاحب هذه المقولة هو البابا هادريان السادس فى عام ١٥٢٣ : «عندما يتصرف البابا كرأس الكنيسة وراعيها، فله أن توصف أقواله وأفعاله بأنها معصومة من الخطأ، أما أن يتصرف البابا بوحى من تفكيره الشخصى كآدمى عادى قد يصيب وقد يخطئ فإن الأخطاء قد تصدر عنه ، وعلى ذلك فإن كثيرا من البابوات كانوا مخطئين، وآخرهم كان البابا يوحنا الثانى والعشرون (١٣١٦ - ١٣٣٤)» .

وفى زمن ما كان اعتبار بعض البابوات مرتدين عن الدين شيئاً مألوفاً ولكنه قل كثيراً بعد عام ١٨٧٠ ، وحتى اينوسنس الرابع قال : «رغم أن كل المخلوقات أدنى درجة من البابا باعتباره ممثل الرب على الأرض وتجب له لذلك الطاعة العمياء إلا أنه فى الأمور التى تهدد وحدة الكنيسة لا تجب له الطاعة أبدا، لذلك فإن المسيحيين لا يجب أن يطيعوا لأن البابا أمر، وإنما لأن الكنيسة أمرت، وهو حينئذ (لن يخطئ أبدا) .» هذه الكلمات التى دونها اينوسنس الرابع فى كتابه « التعليق » محيت من طبعات لاحقة .

الآبـــاء المخطئـــون

مسألة عصمة البابا من الخطأ مسألة حديثة نسبياً. ولمدة طويلة كان خطأ البابا شيئا

متوقعا وغير مستهجن ،أما فكرة عصمة البابا من الخطأ فكان يمكن ان تكون محل سخرية وتفكه. أما العصمة من الخطأ فكانت محفوظة للكنيسة، ولكن فى قراراتها التى يستقر عليها بعد أخذ ورد وعند الوصول للقرار النهائى المقنع، وكانت العادة ألا يتخذ البابا أى قرار يتعلق بالدين وحده وإنما باستشارة مجلس كامل.

أما جملة القديس أغسطينوس « روما قررت والملف أقفل » التى يستند إليها كثير من أنصار ديكتاتورية البابا فإننا إذا قرأناها فى إطار خلفيتها التاريخية فسنعلم أن أغسطينوس كان يقصد القرار الذى يصدر بعد جلستين كاملتين للمجلس الكنسى وبعد كثير من الجدل ، حسماً لموقف مائع يجب أن يتم الانتهاء منه.

والتاريخ يثبت أن المجلس الكنسي وقف أمام البابا ستيفان فى قرار يخص الكنيسة الافريقية وكسب الجولة، وأن هذا كان عادياً فى تلك الأيام. والتاريخ يثبت أيضا أن القديس أغسطينوس قضى شطرا كبيرا من عمره فى مناقشات مع الدوناتست (جماعة مسيحية منشقة عن الكنيسة) ولم يتهمهم مرة واحدة بالردة عن الدين لاختلافهم معه أو اعتبرهم مخطئين لخروجهم على تعاليمه شخصيا، وهو موقف ينافى ما حدث بعد ذلك من كثير من آباء الكنيسة وحتى اليوم.

وخلال القرون الستة الأولى للمسيحية، كانت كلمة وتهمة الشعوذة متداولة ولكنها لم تنسب أبداً لمعارضى البابا شخصيا أو الخارجين عليه، وإنما للخارجين على ما تعارفت عليه الكنيسة كمجلس ومؤسسة.

طابــــور طويــــل من البابــــوات المخطئين

تبدأ رحلة أخطاء آباء الكنيسة منذ تاريخها المبكر، فليبيريوس مثلا (٣٥٢- ٦٦) اشترى عودته من منفاه بتشهيره باثناسيوس ـ وكان من أكبر فرسان الأرثوذوكسية ـ وتسفيهه لرأى صحيح له وبذلك أصبح خطأ ليبيريوس دليلاً خلال العصور الوسطى على أن احتمال وقوع البابا فى الخطأ أمر وارد.

وهناك آباء آخرون أفتوا فتاوى غريبة مثل : كل مولود يتوفى قبل تعميده فمصيره إلى جهنم رأسا ويعانى من شتى أنواع العذاب، وأضاف عليها جيلاسيوس الأول (٤٩٢-٩٦٠).أن كل رضيع لم يقم بعملية المناولة فمصيره إلى جهنم أيضا.

وهناك فيجيليوس الذى ظل يعدل آراءه ويبدلها فى مسألة وجود طبيعة أو طبيعتين للمسيح حسب ضغط الامبراطور أو القيصر عليه حتى ضاق به شعب إيطاليا ذرعا ورفض دفنه فى كنيسة القديس بطرس بعد وفاته.

وكان المجلس الكنسى العام قد نفاه قبلها لنفس الأسباب، وأعلن أنه مرتد عن الدين، وهذا يبين لنا ديمقراطية العصور الوسطى، ويؤكد أن المجلس أعلى شأنا من البابا متفرداً وقراراته ملزمة له، كما لم تكن فكرة عصمة البابا من الخطأ واردة، بل كان يجب عليه أن يثبت مصداقيته وأهليته لمنصبه وصحة فتاواه كغيره تماما.

البابـــا المخطـــئ هونوريـــوس

تولى هونوريوس منصب البابوية من عام ٦٢٥ : ٦٣٨ وكان رئيسا جيدا للكنيسة وقائدا مشرفا لها ولرعيتها وكان دائما ما يقارن بجريجورى الكبير.

أما خطؤه الوحيد فكان أنه كان رجلا عمليا لا يحب الجدال وكثرة المناقشات، ولذا احتد على مجلس الكنيسة عندما أثار نقطة «هل للمسيح إرادتان أم ارادة واحدة» وذلك بعد أن تم حسم نقطة «هل للمسيح طبيعتان أم طبيعة واحدة» .. فقد اعتبر هونوريوس ذلك مضيعة للوقت الذى يمكن أن يستثمر بشكل أفضل لخدمة الكنيسة ورفض المشاركة فى تلك المناقشات السوفسطائية البيزنطية كما أسماها... ثم حسما للنقاش أعلن أنه لا يوافق على وجود طبيعتين للمسيح وعلى ذلك فليس له إرادتان. واعتبر رأيه هذا مخالفا لرأى مجلس الكنيسة الذى كان قد قرر ان للمسيح طبيعتين واعتبر مشعوذا منذ ذلك الحين خاصة أنه لم يقدم تفسيرا لرأيه هذا.

وأثناء انعقاد المجلس الكنسى العام السادس (نوفمبر ٦٨٠ ـ سبتمبر ٦٨١) تم الاتفاق على أن أصحاب الرأى القائل بوحدانية المسيح طبيعة وارادة ومنهم هونوريوس، ومتهمون بتهمة الشعوذة تبعا لذلك. والذى يعنينا من هذه القصة أن نبين ما يلى :

١ – أن المجلس الكنسى كان أعلى من البابا لدرجة تقييم أفعاله وآرائه لدرجة الاتهام.

٢ – أنه لم يرتفع صوت واحد خلال تلك الحقبة ينادى بعصمة البابا من الخطأ أو الاكتفاء بأن هذا الرأى صادر من البابا حتى لا تتم مناقشته واعتباره نهائيا.

القـرارات البابوية المشعوذة

جرت العادة منذ القرن الثامن الميلادى على اعتبار كل قرارات أى بابا متهم بالشعوذة لاغية. فمثلا البابا فورموسيس لم يتم فقط نبش قبره وإعادة محاكمته باعتباره مشعوذا وانما تم إلغاء كل القرارات الصادرة منه، واعتبرت كأن لم تكن. وقد اتفق على هذا الرأى كل من البابا ستيفان السابع وسرجيوس الثالث.

وجد على ذلك فى القرن الحادى عشر اعتبار كل قرار بابوى تم لقاء مبالغ مدفوعة باطلا ، ولو أخذ هذا الكلام مأخذ الجد لألغيت تقريبا كل قرارات البابوات خلال تلك الفترة وما سبقها.

ثم ظهر الرأى القائل إنه فى حالة تعميد بابا مشعوذاً لطفل يصبح فيما بعد قسا أو رجل كنيسة يقوم بالمراسم الدينية فإن جميع مراسمه لاغية، لأن تعميده لاغ ما دام البابا الذى عمده كان مشعوذا وبالتالى لا يؤخذ بأفعاله وقراراته!!.

ولكن حتى الكنيسة أكثر المؤسسات تمسكا بظاهر الأمور لم تقبل هذا الوضع أو تنفذه عمليا.

وبالنسبة للزواج والطلاق تضاربت أقوال البابوات... فمنهم من سمح بالطلاق فى حالة زواج مسيحى من أمة كرأى ستيفان الثانى (٧٥٢) وكان رأى البابا اوربان الثالث انه توجد ظروف تسمح بطلاق مسيحى من مسيحية وأوضح البابا كولستين الثالث أن أحد تلك الظروف يمكن أن تكون اتهام أحد الطرفين بالشعوذة.

ولكن البابا يوحنا الثانى والعشرون كان من أبرز أمثلة البابوات المشعوذين غير العادية.

شعوذات البابـــا يوحنا الثانى والعشرين

تولى يوحنا الثانى والعشرون عرش البابوية وعمره اثنان وسبعون عاما، ولذا كان من المتوقع له ألا يعيش طويلا خاصة أنه كان شاحب اللون مريضا، ولكن هذا البابا عاش لمدة ثمانية عشر عاما أخرى ، وأثبت أن لديه حبا للحياة يفوق الشباب ، وكان يحب الملذات ورغد العيش، لذا كانت حاجته للنقود دائمة وملحة، خاصة أن سلفه

كليمنس الرابع كان قد ترك خزانة الفاتيكان خاوية عند وفاته. لذا اخترع يوحنا لكل ذنب تسعيرة للعفو، ولم يكن فى عهده ذنب لا يمكن غفرانه، لذا انطلق الفرنسيون يذنبون ويدفعون مقابل العفو عنهم وهم مطمئنون، وامتلأت خزانة البابا مرة أخرى وصار ينفق النقود كيف يشاء، وكان من أوجه الإنفاق المحببة إليه الحروب وخاصة تلك التى خاضها ضد ايطاليا حتى قيل إن الدماء التى سكبها كانت كفيلة بصبغ مياه البحر باللون الأحمر، وإن جثث القتلى كادت تصنع جسرا بين شطآنه.

وحاول يوحنا الثانى والعشرون تبرير إنفاقه وإسرافه بأن المسيح والحواريين لم يعيشوا فى فقر، وجرت عليه تلك النظرية حربا شعواء من ملك المانيا الذى خلعه وعين بدلا منه ببير دى كوربايو، ولكن يوحنا تمكن من الانتصار فى النهاية وأصبحت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية الرسمية تقول : «المسيح والحواريون لم يعيشوا فى فقر».

وفى عام ١٣٩١ عندما كان عمره ٨٧ عاما اخترع البابا شعوذته التالية وهى : إن الارواح الطيبة لا ترى الله بعد وفاتها مباشرة ، خلافا للرأى السائد حينئذ أن الأرواح الطيبة ترى الله بعد صعودها مباشرة. ولم يجرؤ شخص واحد على الاعتراض أو مصارحة البابا بأن هذه شعوذة ضد ما آمنت به الكنيسة طوال تاريخها.

ثم أطلق البابا شعوذته التالية بأنه لا عذاب للمذنبين حتى تقوم القيامة ولا عذاب قبلها ، متحديا بذلك أيضا تعاليم الكنيسة ومثيرا لدهشة مرتاديها.

وأخيرا جدا أعلن أحد كبار الأساقفة الفرنسيسكان أن البابا على خطأ واتهمه بتهمه الشعوذة وعضده القيصر الألمانى وخلع البابا يوحنا الثانى والعشرين بموافقة ملك فرنسا فيليب دوفالوا الذى أبلغ البابا أنه إن لم يتراجع عن آرائه الخاطئة فسيتم إحراقه ، وطالبت جامعة باريس بذلك بشدة. وعرض البابا مكافأة سخية لكل من يعثر فى الكتاب المقدس أو أى مرجع رسمى على ما يؤيد نظريته، وبالطبع لم تظهر تلك الأدلة التى لا وجود لها. وحاول يوحنا التملص من آرائه جزئيا بأن أعلن أنه لم يدل برأى قاطع فى هذا الشأن وإنما ترك الباب مفتوحا، ولكن حتى هذا التراجع الجزئى لم يغفر له عند معارضيه.

واختلفت الآراء بشأن نهايته فمن قائل إنه تخلى عن آرائه تلك عند وفاته وأعلن توبته عنها، ومن قائل إنه تمسك بها ومات عليها خاصة أنه صدر كتاب باسمه بعد وفاته يعلن تراجعه وتوبته، ولكن كثيرا من الناس تشكك في نسبته إليه.

البابا الذى أعاد كتابة الإنجيل

عندما تولى جريجورى الثالث عشر منصب البابوية عام ١٥٧٢ اعتزل الكاردينال الفرنسيسكانى مونتالتو الحياة العامة وأشاع أتباعه أنه مريض مرض الموت ولا يبتغى شيئا سوى انتظار الموت في هدوء.

وكان الكاردينال محنى الظهر خفيض الصوت ضعيفه، دائم السعال كأن روحه ستزهق لساعتها، ولذا عندما توفى جريجورى الثالث عشر ١٥٨٥ لم يجد الكرادلة المجتمعون أفضل منه لاختياره لمنصب البابا فهو عازف عن الدنيا وكبير في السن مريض لن تطول مدة شغله لمنصبه ، كما كان مسالما غير محب للمشاكل والجدل.

وقد أيقن المجلس خطأ تقديره في نفس لحظة اختياره للبابا، فقد نسى أمراضه المزمنة وشد قامته وصرخ بصوت جهورى «أنا القيصر» قبل أن يبدأ الصلاة بصوت واضح قوى .

والعجيب أن سيكستوس الخامس هذا أنجز في خمس سنوات ما لا يمكن إنجازه في خمسين سنة، فقد كان ممتلئا حيوية ونشاطا حتى كان مساعدوه يلهثون من فرط متابعته وملاحقة أفكاره وتنفيذها. ومن أعماله تجديد قبة كنيسة القديس بطرس وبناء مكتبة الفاتيكان... الخ، حتى أطلق عليه لقب «العاصفة المقدسة» وكان على نشاطه هذا مفرطا في الأنانية وحب السلطة فنصب نفسه رئيسا لكل الملوك والأمراء. وعندما ألمح روبرت بيلارمين – أكبر مدافع عن البابوية منذ عصر توماس أكويناس – أن للبابا سلطة غير مباشرة على الحكام منع البابا كتاباته من الإصدار والنشر ومنع كذلك كتابات فيتوريو الذى رأى أنه يجوز عدم طاعة البابا اذا كانت أوامره غير عادلة.

الفولجاتا هى الترجمة اللاتينية للإنجيل التى قام بوضعها القديس هيرونيموس في القرن الرابع الميلادى، وبمرور الزمن تسللت إليها الاخطاء تباعاً بسبب عدم دقة الكتبة في نقل نصوصها ونسخها ثم ظهرت الترجمة الخاصة بالبروتستانت، ولذا كان لزاما

على الكاثوليك الانتهاء الى صيغة موحدة للإنجيل تحسم جميع المسائل الدينية المعلقة.

لذا اجتمع مجلس ترينت عام ١٥٤٦ وقرر العمل على إصدار صيغة موحدة للإنجيل. وتولى أحد عشر بابا منصب البابوية دون أن يتم هذا الإنجاز الضخم إلى أن جاء سيكستوس الخامس للمنصب فقد قدم إليه الكرادلة المكلفون بهذه المهمة نسختهم النهائية عام ١٥٨٨ أى بعد ثلاث سنوات من وصوله لكرسى البابوية .

ولم تلق هذه الترجمة قبولا لدى البابا وقرر أنه هو الوحيد القادر على إنجاز هذه المهمة على وجهها الصحيح . وشرع البابا فى العمل فوراً وأنجز مهمته بعد ثمانية عشر شهراً فقط . ولكن كان بترجمته ثلاثة عيوب :

أولا: أنه أهدر بعض النصوص تماماً غالبا عن اهمال .

ثانيا : أنه لم يلتزم بالترجمة فقط وإنما قام ببعض الإضافات الموضحة للنص حسب رأيه الشخصى .

ثالثا : أن ترجمته لم تسر على وتيرة واحدة إنما كانت حسب مزاجه وأحواله النفسية .

وأخيرا ظهرت النسخ الأولى لترجمته إلى الوجود وأعجب البابا بغلافها أشد الاعجاب ولكن ما إن شرع فى القراءة حتى تبين له الكم الهائل من الأخطاء الإملائية التى قام بها الكتبة . ومرة أخرى قرر البابا أن يصحح هذا الخطأ بنفسه فقام بلصق وريقات التصحيح فوق الأخطاء لمداراتها واستغرق هذا العمل حوالى ستة أشهر أخرى .

وقبل توزيع النسخ المنقحة أصدر البابا كتابه الذى بموجبه اعتبرت هذه الترجمة هى النص الرسمى للكنيسة الكاثوليكية وأن من يحد عنه ولو بمقدار هين يعاقب بتهمة الردة عن الدين .وفى منتصف أبريل تم أخيراً توزيع النسخ على الكرادلة والمبعوثين وتوفى سيكستوس الخامس بعد إنجاز مهمته الجليلة بأربعة أشهر فقط . فى خلال هذه الفترة كانت أخطاء البابا فى ترجمته تلك قد ظهرت للجميع وبشكل واضح، ونصح بيلارمين البابا الجديد بأن يتم تصحيح الترجمة سريعا مع وضع اسم

البابا سيكستوس عليها واضافة مقدمة تفيد أنه نظرا لعامل السرعة والرغبة فى وصولها سريعاً لرعية الكنيسة فقد وقعت بعض أخطاء يتم تداركها من خلال النسخ الجديدة . وبذلك يتم حفظ مقام الباباوية والبابا سيكستوس شخصياً .

وكانت هذه كذبة كبرى : فالبابا سيكستوس لم يكن يوافق أبدا على النص الجديد الذى يهدم جزءاً كبيرا من آرائه الشخصية، كما أن السبب وراء الأخطاء الواردة بترجمة سيكستوس لم يكن عامل السرعة وإنما عامل عدم الدقة والحرص فى العمل، أما الطباعون والكتبة الذين ألقى باللوم عليهم فلم يكن الخطأ خطأهم بل خطأ البابا .

وبعد اقتراح هذه الكذبة أصبحت المشكلة هى كيفية استعادة نسخ الطبعة الأولى من أصحابها . واقترح بيلارمين مرة أخرى شراء هذه الأناجيل من أصحابها مهما غلا ثمنها ، وكان ذلك مضحكاً ، إذ كان البروتستانت حينذاك يوزعون أناجيلهم ، مجاناً ورغم جهد الكنيسة الكاثوليكية فلم يسفر البحث عن استرداد أكثر من عشر نسخ على الأكثر .

ولم يخلد التاريخ ذكر بيلارمين بسبب دفاعه عن البابا والكنيسة وإنما لمساهمته فى القضاء على مسيرة علم شخص من أشهر شخصيات التاريخ .

أكبر فضيحة فى تاريخ المسيحية

فى عام ١٦٤٠ كان جاليليو قد بلغ السبعين من عمره وكان قد فقد بصره تماما ورغم ذلك كان جواسيس محاكم التفتيش لا يزالون يقتفون أثره ويتلصصون على زواره وكانت إقامته محددة فى فلورنسا، وعندما طلب من البابا السماح له بالذهاب إلى روما للعلاج قوبل طلبه بالرفض. وكانت ابنة جاليليو قد توفيت فى سن الثالثة والثلاثين حسرة على حال أبيها وما آل إليه. ورغم كف بصره كان جاليليو لايزال يملى على سكرتيره أبحاثه عن الفلك. فقد كان لايزال يتذكر ما رأته عيناه من خلال التليسكوب ولم يره غيره وإذا كانت الكنيسة قد منعته من إصدار كتابات جديدة أو إعادة طبع كتاباته السابقة فإن حماسه لم يفتر ولم يمنعه أمر الكنيسة من الاستمرار فى الكتابة ولو لنفسه فقط .

كان جاليليو طالب طب . لكنه اكتشف حبه للرياضيات بشقيها البحتة والتطبيقية

، وكان حبه للرياضيات هذا وراء اختراعه جهاز قياس درجات جاذبية الأجسام المختلفة للأرض .

وعمل جاليليو كأستاذ لمادة الرياضيات فى كل من جامعة بيزا وجامعة بادوا. وفى تلك الفترة طور التليسكوب الذى كان مخترعه هولنديا .ولكن جاليليو جعله أكثر دقة ومكبرا للصورة آلاف المرات .

وفى احتفال رسمى قدم جاليليو التليسكوب هدية لحاكم فنيسيا وتم استخدامه كجهاز حربى لرصد الأعداء قبل رؤيتهم بالعين المجردة بمسافات طويلة . وكوفئ جاليليو على هذا الاختراع بمضاعفة مرتبه وتثبيته على درجة الأستاذية .

ثم توجه جاليليو بجهازه إلى النجوم والسماء وخرج إلى العالم بنظريته الشهيرة فى الفلك والتى قلبت الموازين القائمة رأساً على عقب، مما حدا بكثير من العلماء ألا يؤيدوا نظرياته بل أن يقفوا ضدها ويحاربوا جاليليو. أما بعض أصدقائه من رجال الدين فقد نصحوه أن يسمى نظرياته تلك «تجارب» أو « نظريات غير نهائية » حتى يتجنب غضب العلماء. وتشجع جاليليو بفضل هذا التأييد فهاجم آراء أرسطو الفلكية وأتباعه صراحة وأعلن صحة نظريات كوبرنيكوس القديمة التى لم يلتفت إليها أحد . وحذره كثير من أصدقائه والمتعاطفين معه أن بيلارمين لايزال يؤمن بتضاد نظريات كوبرنيكوس مع الكتاب المقدس .

ورغم ذلك لم يعاقب جاليليو بشكل مباشر وإنما عن طريق منع نشر أو تدريس نظريات كوبرنيكوس التى تبناها جاليليو .

ولكن فى عام ١٦٢٣ بدأ جاليليو كتابه الجديد « المخترع» أو « صاحب التجربة» فى صيغة حوار بين أحد الجهلاء وأحد المتعلمين وأخطأ جاليليو بأن وضع جميع آراء الكنيسة والبابا وأرسطو على لسان الجاهل، أما المتعلم فكان ينطق بآراء كوبرنيكوس . وهنا ثارت ثائرة البابا أوربان الثامن لأن تلك كانت آراءه الشخصية التى نقلها جاليليو حرفيا تقريبا .

وانتظر جاليليو حتى عام ١٦٣٢ لاستصدار إذن من الكنيسة لنشر الكتاب، وكانت النتيجة تقديمه لمحاكم التفتيش وكان عمره وقتها سبعين عاما وأيقن جاليليو عندئذ أنه

لا فرصة هناك للدفاع عن نفسه فاعترف أنه أخطأ فى علم الفلك وأن الكنيسة على حق ولكنه احتفظ لنفسه بحق الاعتراف له بأنه لم يخرج عن المذهب الكاثوليكى ولم يتعمد مناقضة قرار سابق للكنيسة .

ومرة أخرى لم يلاق جاليليو صنوف العذاب المعهودة فى زمنه فقد تم تحديد اقامته بالبيت الذى مات به بعد ذلك بثمانى سنوات ورفض البابا أوربان الثامن اقامة أى تكريم له أو تمثال بدعوى أنه سيعتبر ذلك تحديا لشخصه ولأن جاليليو رغم نفيه كل ما وهب حياته له كان قد أثار بآرائه المساندة لكوبرنيكوس زوبعة فى الكنيسة .

وهكذا قطعت الكنيسة صلاتها بالعلم بأن اتخذت اتجاها مضاداً له وأجبرت الكاثوليك إما أن يكونوا صالحين أو علماء ،أما الجمع بينهما فكان مستحيلا كما تبينه قصة جاليليو .

الخطأ الكبير لكليمنس الحادى عشر

تم انتخاب كليمنس الحادى عشر عام ١٧٠٠ وعمره واحد وخمسون عاما وكان الظاهر أن اختياره صحيح وجيد : فهو قس ملتزم ومتعلم ويتصف بالحياد وينام قليلا ويأكل قليلا ويقوم بواجباته الدينية بانتظام.

ولكن بقدر ما كان لهذا البابا من قرارات صائبة بقدر ما كان له من قرارات جلبت عليه السخرية فيما بعد. منها مثلا أنه حرم قراءة الإنجيل على كل الناس وذلك لأن كثيرا منهم كانوا يخطئون القراءة أو يسيئون الفهم . وبدلا من توصيل المعلومة لهم أو تدريس القراءة الصحيحة فضل البابا منعهم من القراءة تماما « حتى لا تحدث أخطاء » على حد قوله. أما أكبر خطأ ارتكبه البابا كليمنس الحادى عشر فكان خطأه بشأن الصين. فالصين كانت قد تقبلت الديانة المسيحية بصدر رحب بعد طول عناء وبسبب صبر ومثابرة الآباء اليسوعيين الذين كانوا يدعون للمسيحية هناك، وبعد طول دراسة قرروا أن الصينيين لا يؤمنون حقيقة بالأوثان إنما يتخذونها رمزاً لآلهتهم وتم إيجاد صيغة تفاهم مشترك بين الثقافة الصينية الدينية وبين الثقافة المسيحية مما أدى إلى رضا الطرفين.

وقرر البابا إيفاد مندوبه الشخصى لتقصى ذلك الأمر ولم يفهم هذا المندوب ثقافة الصين واتهم أهلها بعد زيارة قصيرة بأنهم وثنيون وذوو ثقافة تتعارض مع المسيحية. وتعجب ملك الصين من تصرف هذا المسيحى المضاد لكل ما عرفه عن المسيحيين المتواجدين فى الصين، فما كان منه إلا أن قام بسجنه . واعتبرها البابا إهانة شخصية له فرقى مندوبه إلى درجة كاردينال واعتبره شهيدا عندما توفى فى السجون الصينية. وفوق ذلك أصبح من واجب كل رجل دين أن يلعن الثقافة الصينية ويعلن كفرها وألا يتقبل ترحيب اليسوعيين بها ومحاولة مزجها بالمسيحية . وأعلن أن عدم التسامح هذا هو ما سيؤدى إلى نزع جذور الكفر من الصين .

وكان هذا خطأ كليمنس الكبير الذى جعل أيام المسيحية فى الصين معدودة وأنذر ببداية النهاية . وفى عام ١٩٣٩ تراجعت الكنيسة عن رأيها السابق الذى بدأه كليمنس الحادى عشر ، ولكن كالعادة كانت قد وقعت فى مأزق عصمة البابا من الخطأ وتعذر عليها إيجاد تبرير منطقى .

ولولا البابا كليمنس لكان من الممكن أن تكون الصين اليوم كاثوليكية كبولندا أو ايرلندا مثلا .. ولأن الكنيسة تحارب تحديد النسل كان يمكن أن يكون هناك ثلاثة مليار كاثوليكى صينى بدلا من مليار صينى شيوعى ولكن كانت مشاكل العالم ستتفاقم أكثر مما هى عليه الآن بسبب زيادة النسل، وعلى ذلك يمكن القول أن البابا كليمنس بوقفه دخول المسيحية إلى الصين أنقذ العالم من كارثة !!!

الخلاصة

تظهر لنا هذه النظرة السريعة أنه من الممكن لآباء الكنيسة أن يخطئوا وأن بعضهم ارتكب أخطاء جسيمة وأنهم كانوا يناقضون تعاليم الكنيسة، وبعضهم البعض، وأنفسهم فى بعض الأحيان . ولذلك لم يكن من المستغرب فى العصور المسيحية الأولى أن يخطئ البابا ، وإن اختلفت آراء البابا عن تعاليم الكنيسة فيجب عليه هو أن يعدل آراءه وليس على الكنيسة أن تبدل تعاليمها وإذا امتنع البابا عن ذلك فلن يكون رئيس الكنيسة لأنه ليس مسيحيا بالقطع من يخرج على تعاليم الكنيسة .

ولكن علماء الدين اليوم يرسمون خطاً فاصلا بين البابا عندما يبدى رأيه كرجل

دين أو يعبر عن رأيه الشخصي ولكن ذلك لم يكن مطروحا في العصور المسيحية الأولى حيث كانت القرارات هي قرارات المجلس الكنسي والبابا هو المتحدث الرسمي لها ، لذا لم يكن له سوى رأيه الشخصي الذى لم يحفل به أحد أو أن يكون بوقا لآراء مجلس الكنيسة .

ولكن متى بدأ « البابوات » في التحدث باسم الكنيسة معبرين عن آرائهم الشخصية ؟ بالتأكيد ليس خلال الألف عام الأولى للمسيحية، وقد يقول البعض ليس قبل ١٣٠٢ أو ليس قبل ١٨٥٤ وإن كان هذا صحيحا فإن آباء الكنيسة لم يخطئوا لسبب بسيط هو أنهم لم يقوموا بهذه المهمة .

ولكن هذا ليس صحيحا فإن البابوات قد بدءوا اتخاذ قرارات باسم الكنيسة قبل المجلس الفاتيكاني الأول . أما بيوس التاسع فلا يمكن فهم البابوية الحديثة دون إفراد فصل كامل له .

الفصل الثالث عشر

أول بابا معصوم من الخطأ !!

في ١٨ ديسمبر ١٨٥٢ أعلن البابا بيوس نقاء السيدة مريم من أى ذنب ولا يوجد ما يمسها فيما يختص بحمل والدتها بها، وأن واجب جميع المسيحيين أن يؤمنوا بذلك بكل وعى وتصديق.

وكان هذا الاتجاه لتبرئة ساحة السيدة مريم وإعلاء شأنها أحد أخطر التحركات السياسية فى التاريخ الحديث.

الحمل الذى لم تشبه شائبة

في القرن الثالث عشر كان الاعتقاد السائد بين المسيحيين، كما قال البابا جريجورى الكبير، هو أن المسيح وحده هو الذى تم الحمل به دون ذنب، وأن جميع البشر مولودون بميراث الذنب، بما فيهم من قديسين، وأن الاستثناء الوحيد هو المسيح. وبالتأكيد كان ذلك يعنى أن السيدة مريم مولودة بميراث الذنب كذلك ، ولم يكن ذنبها فى أنها حملت بالسيد المسيح ، ولكن فى أنها هى شخصيا كانت نتاج عملية مباشرة جنسية. وكانت تلك العملية تحمل فى طياتها دائما قدرا من الذنب سواء للفاعل أو للنتاج ... وعلى ذلك فالسيدة مريم كانت نتاج عملية جنسية فهى تحمل ميراث الذنب. أما السيد المسيح فلا يحمل ميراث الذنب، لأنه ليس نتاجا لمثل هذه العلاقة .

كان هذا الاعتقاد راسخا لدرجة أن القديس أنسلم لم يكن يكف عن التفكير فى

معضلة كيف أن المسيح ولد من حاملة ميراث ذنب؟

والتزمت الكنيسة اليونانية والروسية الأرثوذوكسية بهذا الاعتقاد. أما فى الغرب فقد نما الاتجاه لتقديس السيدة مريم خلال العصور الوسطى بسرعة كبيرة واعتبر الكاثوليك أن يسوع المسيح أقرب للرب منه لوسيط بين الرب والبشر. ورغم ما فى ذلك من تقديس له، إلا أنه أصبح بعيدا عنهم. أما السيدة مريم التى عانت معاناة البشر وصبرت مثلهم، فقد كانت قريبة منهم، وهكذا ارتفع شأنها بين البشر، وبين الكاثوليك بصفة خاصة.

وكانت فضائل مريم المعروفة هى أنها أم المسيح التى حملته بين يديها وكانت مثلا للعذرية فى كل العصور، وقد أضيف لها دور جديد أكثر أهمية.

لم يكن رجال الدين يساندون العامة فى تقديس مريم وإعلاء شأنها، إنما كانوا لا يزالون يعتبرونها من حاملى ميراث الذنب حتى تبنى البابا بيوس نظرية «نقاء الحمل بالسيدة مريم». لقد فجر البابا بنظريته حربا بين الفرنسيسكان (مؤيدى البابا) والدومينيكان (مؤيدى الرأى القائل بذنب مريم).

وتدخل ملوك مثل كارل السادس الذى أخذ صف البابا والفرنسيسكان وقام بطرد الدومينيكان من باريس واعتقل كل من لا يصدق بنقاء الحمل بالسيدة مريم.

وأمر البابا سيكستوس الرابع بإقامة احتفالات بكل الكنائس للاحتفال بالحمل بالسيدة مريم مما أشعل نار الحرب بين الدومينيكان والفرنسيسكان، ومن أجل تهدئة الأمور أوضح البابا أن الاحتفال ليس لتقديس السيدة مريم وإنما هو لمجيئها إلى الدنيا وأن على الدومينيكان تقبل ذلك وإلا اعتبروا من المرتدين، أما إذا قام الفرنسيسكان بإثارة الدومينيكان بهذا الأمر فسيطردون من الملة.

ولكن الدومينيكان تمسكوا برأيهم الذى أملاه لهم رئيسهم توماس، ولذلك أطلق عليهم الفرنسيسكان «أصحاب نظرية الحمل غير الطاهر بالسيدة مريم».

ثم جاء الحادث الذى رجح كفة الدومينيكان، فقد ظهرت السيدة مريم عام ١٥٠٧ لأحد رهبان الدومينيكان بمدينة برن بسويسرا لتعلن غضبها على الفرنسيسكان الذين ينادون بحملها الطاهر النقى، واعترفت له السيدة مريم أنها كانت تحمل ميراث

الذنب كغيرها إلا أنه تم تطهيرها منه بعد الحمل بثلاث ساعات وأيدت رأى توماس الأكوينى فى هذا الشأن. وليدلل الراهب على صحة قصته أهدته العذراء صليبا ومزجاً بدماء المسيح وثلاث قطرات من دموعه التى سكبها على مدينة أورشليم كما أعطته خطابا موجها للبابا يوليوس الثانى الذى كان يحارب فى إيطاليا فى ذلك الوقت.

وبعدها فوجئ الشعب المسيحى بهذا الراهب يطلب الحماية من إخوانه الدومينيكان الذين اكتشف أنهم يمثلون عليه تلك التمثيلية ليثبتوا بشكل عملى خطأ نظرية الحمل الطاهر بالسيدة مريم وهددوه بالإيذاء إذا أبلغ بهذه الواقعة.

وتم تقديم المتهمين لمحاكم التفتيش التى أمرت بتعذيبهم وإحراقهم. أما الدومينيكان فقد أعلنوهم شهداء وردوا على إحراق شهدائهم بإصدار كتاب يضم نخبة المفكرين المعارضين لفكرة طهارة الحمل بالسيدة مريم، وكان من بينهم عدد كبير من بابوات الكنيسة وكبار علماء اللاهوت وكثير من رجال الدين الفرنسيسكان ومنهم القديس بونافينتورا والقديس أنطونيوس من بادوا.

ثم تضاربت آراء آباء الكنيسة بهذا الموضوع ولم يتوصلوا إلى حل نهائى وإن كانوا قد جنحوا الى عدم الميل بشدة إلى أحد الرأيين لتجنب ردود أفعال المتطرفين من الجانبين حتى تولى بيوس التاسع منصب البابوية والذى كان من مؤيدى نظرية طهارة الحمل بالسيدة مريم وقد استغل البابا بيوس التاسع فرصة إثارة هذا الموضوع ليؤكد عصمة البابا من الخطأ، عصمته شخصيا وليس عن طريق الكنيسة، كما استغل عصمة البابا من الخطأ، فى فرض رأيه القائل بالحمل الطاهر بالسيدة مريم، على المسيحيين.

فالكنيسة الفرنسية والمسيحيون غير الكاثوليك مثلا، لم يكونوا يؤمنون بعصمة البابا من الخطأ ولا بنظرية طهارة الحمل بالسيدة مريم.

أما البابا فقد حدد عقوبة الفصل من الكنيسة لكل من لا يؤمن بهذه النظرية واعتبره خارجا على الكنيسة ملعونا. وهكذا حول البابا هذا الموضوع الجانبى الى مسألة أساسية لخلاص النفوس غير عابئ بكم القديسين ورجال الكنيسة وعلماء الدين الذين عارضوها.

وتبين لنا مسألة الحمل الطاهر بالسيدة مريم المدى الذى يمكن للبابا أن يصل إليه فى تناقضاته مع ما سبق ومع رأى أساسى من آراء الكنيسة بخصوص الحمل غير الطاهر بالسيدة مريم، كما يبين لنا مدى الدكتاتورية التى يمكن أن يصل اليها آباء الكنيسة بسبب نظرية أخرى هى عصمة البابا من الخطأ يعضدون بها مواقفهم.

ورغم الدلائل التى تشير إلى أن هذه المسألة مسألة فرعية إلا أنها أثرت فى الكنيسة بشكل أكبر وخاصة فى مسائل ميراث الذنب والجنس بحيث نجد أن العزوبة فى المسيحية يعتبرها رجال الدين أفضل من الزواج، لأن هؤلاء العزاب بامتناعهم عن الزواج يقللون من عدد حاملى ميراث الذنب. ونتيجة لذلك نجد أيضا تحريم الإجهاض لأنه قتل لنفس بشرية كاملة بدليل أنها تحمل ميراث ذنبها منذ لحظة خلقها.

قائمة الشعارات الخاطئة

أصدر البابا بيوس التاسع هذه القائمة بعد عشر سنوات من إصداره نظرية طهارة الحمل بالسيدة مريم، وتظهر لنا هذه القائمة ميل هذا البابا للديكتاتورية ومعارضته لكل الشعارات الحديثة حينذاك، وبخاصة الشعارات التى أطلقتها الثورة الفرنسية.

ومن أمثلة الشعارات التى عارضها البابا :

١ـ كل شخص حر فى اختيار الدين الذى يتبعه بناء على رغبته وتفكيره الحر.

٢ـ ليس للكنيسة الحق فى فرض سلطتها وليس لها سلطة دنيوية مباشرة أو غير مباشرة.

٣ ـ إن إلغاء سلطات الكنيسة الدنيوية هو من أجل حريتها وصالحها.

٤ ـ ليس من المناسب للعصر الحاضر أن تكون الديانة الكاثوليكية هى الدين الوحيد المعترف به فى دولة ما مع عدم الاعتراف بالأديان الأخرى.

٥ ـ على راعى الكنيسة الكاثوليكية أن يتواءم مع التقدم والحرية والمدنية الحديثة.

وغنى عن الذكر ردود الأفعال التى قوبلت بها تلك القائمة. فقد أظهر كل من الرئيس الأمريكى لنكولن وجلادستون رئيس وزراء إنجلترا، دهشته وامتعاضه من أن

يلعن رأس الكنيسة مبادئ الحرية والمدنية الحديثة. كما كانت الصحافة الانجليزية من أشد مهاجميه علانية وكان من ضمن ما قالته صحيفة التايمز : «إنه لا يوجد نظام حكم فى اوروبا لا يخضع للعنة البابا بسبب تمسكه بشعارات الحرية والمدنية الحديثة».

وخلال القرن التاسع عشر بأكمله حاولت البابوية ممارسة الضغط على الحكام لحرمان شعوبهم من الحقوق التى لم تكن مكفولة لشعب الفاتيكان وروما وهاجمت كذلك جميع الدساتير الحديثة فى النمسا وفرنسا وبلجيكا بأنها ملحدة لأنها لم تقم على أسس دينية وسمحت بحرية الصحافة والرأى وإقامة برلمانات حرة وساوت بين جميع أفراد الشعب أمام القانون بغض النظر عن دينهم أو مذهبهم.

ورغم ذلك نجح البابا فى إقناع بعض الحكام بوجهة نظره لاسيما حكام الأقاليم الإيطالية القريبة منه... فمثلا أقنع حاكم توسكانا عام ١٨٥٢ بمنع الأطباء اليهود من ممارسة الطب. ولكن رغم ذلك لم ينجح البابا فى وقف زحف الذيمقراطية التى وصل عبيرها إلى الفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية نفسها فأصابها بقدر ضئيل من الحرية.

السلطة العليا للبابا

قرر المجلس الفاتيكانى الأول المنعقد فى ٨ ديسمبر ١٨٦٩ أن البابا هو القائد الأعلى لجميع الكنائس فى العالم أجمع فى كل ما يتعلق بإدارتها ونظامها، وعلى ذلك فسلطته ممتدة بشكل مباشر أو غير مباشر لكل كنيسة وقس ومرتاد للكنيسة.

ويعزو المجلس هذه السلطة إلى «الإشارات الواضحة فى الكتابات المقدسة والتى تتفق مع قرارات المجلس الكنسى والبابوات السابقين».

ونحن ندعى أن هذه المقولة لا تستند على أسس صحيحة ولا تحتمل البحث الجدى. فبالنسبة للبابوات السابقين لم يجد أحدهم فى الكتابات المقدسة ما يشير إلى هيمنة شخص واحد على مجريات الأمور فى جميع كنائس الدنيا، بل إن هناك أدلة على أنه لكل راع أن يحكم كنيسته بما يراه صالحا لأجوائها، وأن محاولة بابوات روما حكم كنائس العالم أدت إلى انشقاق الكنائس الشرقية التى لم تعترف قط بهيمنة بابا

روما عليها.

أما بالنسبة للمجالس الكنسية فإن مجلس كونستانس مثلا فى القرن الخامس عشر، جعل سلطة المجلس فوق سلطة البابا. والمجالس الثمانية الكنسية بدءا بعام ٣٢٥ كان الملك هو الداعى لها وهو المؤشر على قراراتها. كما قرر مجلس عام ٣٢٥: «أن لكل راعى كنيسة أن يحتفظ بحكم كنيسته كالسابق». فهيمنت كنيسة الإسكندرية مثلا على مصر وليبيا وغيرها، كما أن البابا ليو الكبير عندما طالب بسلطات أكبر عام ٤٥١ رفض المجلس طلبه.

وكان البابا ليو الأول هو أول من أسمى نفسه بالرئيس الأعلى ، أما فيما قبل فلم يستخدم هذا اللقب.

والخلاصة أن المجلس الفاتيكانى الأول عندما عين سلطات البابا ووصفه بأنه السلطة الأعلى لكنائس العالم ، فإنما فعل ذلك بمفاهيم قد تكون مقبولة فى العصور الوسطى ولكنها لا تستند الى أى أساس تاريخى أو دينى .

عصمة البابا من الخطأ

ترتبط عصمة البابا من الخطأ بالمجلس الفاتيكانى الأول الذى اعتبرها جزءا من سلطات البابا العليا التى لا ينازعه فيها أحد .

وهاهم الدلائل ضد عصمة البابا من الخطأ نوردها باختصار كما يلى :

لم يرد قط ذكر عصمة بطرس من الخطأ ، وعلى ذلك فهناك اتفاق على

أن بطرس كان مخطئا ، شأنه فى ذلك شأن غيره ، وحيث إن البابوات هم خلفاء بطرس ، فهم لا يملكون أى سلطة أو قوة لم يكن يملكها ولا يحق لهم ذلك . ونرى كذلك أن جميع القرارات الدينية المهمة ، وبخاصة فى مجال الإيمان والتصديق ،

كانت نتاج المجالس الكنسية وليست البابوات. ففى القرن الأول الميلادى لم يكن البابا ليجرؤ أن يعمم فكره على الكنيسة كلها ، ولذلك فعندما ابتكر المجلس الفاتيكانى الأول هذه الفكرة كان عليه أن يجد مبررات عديدة لها حتى يقنع الكاثوليك بها ، وكما قال الكاردينال نيومان عام ١٨٧٠ إنها كانت « ... احتمالا قائما ... ومتروكة للرأى الشخصى ، أن يؤمن بها الكاثوليك أم لا يؤمنوا ... » دون أن يمس ذلك كونه كاثوليكيا تقيا أم لا .

أما اخر مرة استخدم فيها البابا سلطته كمعصوم من الخطأ – أى أنه أفتى بشىء دون إيجاد تبرير سوى أن على الكاثوليك تصديقه لأنه معصوم – كانت عام ١٩٥٠ وصدرت من البابا بيوس الثانى عشر عندما أعلن أن السيدة مريم قامت فى أخريات حياتها برحلة إلى السماء جسدا وروحا ، وعند سؤاله : هل توفيت أم رفعت فقط ؟ لم يجب البابا وإنما أضاف

إضافته الشهيرة : « إن كل من تسول له نفسه عدم تصديق ما قررناه فى هذا الشأن أو التشكيك فيه ، فليعلم ، هذا الشخص ، أنه خارج على المسيحية والكاثوليكية.....»

والملاحظ أن مجالات استخدام عصمة البابا من الخطأ لم تسعف البشرية فى أمور حياتها المهمة . فأسئلة مسيحيى القرن العشرين مثل : هل مشاركة الكاثوليكى فى البحوث والتجارب النووية حلال أم حرام ؟ لم يجب عنها البابا من خلال سلطاته، كما لم يستخدم البابا هذه السلطة فى حث الناس على التبرع لإخوانهم فى الإنسانية الذين يموتون جوعا كل يوم . إذ كان فى إمكانه مثلا أن يفتى قائلا : « إن كل من يستطيع أن يطعم جائعا أو يسهم فى تراجع المجاعات فى العالم ولا يفعل ، هو خارج عن الدين المسيحى أو الكاثوليكية » . لكن شيئا من ذلك لم يحدث .

فواضح أن عصمة البابا لم تزد من خدمات الكنيسة لمريديها . إذن ما هى وظيفتها

الحقيقية ؟

ترتبط فكرة عصمة البابا من الخطأ بمسألة الحقيقة أكثر من مسألة السلطة . فالبابا فى الكنيسة الكاثوليكية هو رمز وحدتها ، وأى مناقشة تؤدى إلى تشويش هذه الوحدة وهذا التناغم والتناسق . وعصمة البابا هى أحد أساليب إغلاق المناقشات ورسوخ وحدة الكنيسة ، ولكن ، للأسف ، فى أحيان كثيرة يكون الثمن هو الحقيقة التى لا تظهر إلا عن طريق المناقشة والحوار .

بيوس التاسع وسلطة العزل

نشرت صحيفة « المدنية الكاثوليكية » رد البابا بيوس التاسع على مهاجمى فكرة ربط سلطة البابوات فى عزل الحكام بعصمة البابا من الخطأ، وعلل ذلك بأنهم هم الذين قاموا بربط هاتين الفكرتين اللتين لا يوجد رباط بينهما ـ أو قل إن رجال الدين والبابوات لم يوجدوا هذا الرباط ـ وأطلق على هؤلاء المهاجمين تسمية « الكاثوليك ذوو النوايا السيئة » .

وعضد بيوس التاسع فكرة « أن زمن ما بعد المجلس الكاثوليكى الأول أصبح غير مناسب لبعض الأفكار (العجيبة) – على حد قوله – والتى وإن كانت مناسبة لعصر ما ، فإنها ليست مناسبة لذلك العصر . »

وكان ذلك استثناءً كبيرا من البابا بيوس التاسع ، فمعظم آباء الكنيسة منذ عهد جريجورى السابع ادعوا أن سلطة عزل الحكام موهوبة لهم من الرب . فالبابا يحكم سواء فى مسائل الدين أو السياسة نيابة عن الرب ، وسلطات الرب لا حدود لها . كما برهنوا على أن هذه السلطة ليست معطاة لهم من الشعوب أو المجتمعات المسيحية .

وقد عد أحد مؤرخى القرن الثامن عشر خمسة وتسعين بابا ادعوا أن سلطة خلع الحكام هى هبة من الرب ، واستندوا فى ذلك إلى ما ورد فى الكتاب المقدس « حكمك على الأرض » ، فقالوا إن ذلك يشمل جميع من فى الأرض : الحكام والمحكومين .

واستند إلى ذلك كل من جريجورى السابع فى خلع هنرى الرابع ، وبيوس الخامس

في عزل إليزابيث الأولى . وعندما ألمح بيلارمين إلى ضرورة الحد من استخدام هذه السلطة أدرجه البابا سيكستوس الخامس في القائمة السوداء .

والحق أن السبب في ربط فكرة عصمة البابا من الخطأ وسلطة عزل الحكام هم البابوات أنفسهم وليس الكاثوليك ذوو النوايا السيئة ، ولكن بيوس التاسع لا يشير إليهم لأنهم يهدمون نظريته .

إزاء أدلة قوية كهذه قد تجاهد أي مؤسسة أخرى لإصلاح أخطائها والاعتذار عنها ، معللة ذلك بأن أسلافها قد أخطأوا ، وتتعهد بعدم تكرار مثل هذا الخطأ .

أما الكنيسة الكاثوليكية فقد وضعت نفسها في مأزق عدم الاعتراف بالخطأ والعصمة من الخطأ بحيث ألقت التبعة على ذوي النوايا السيئة .

وقد توفي بيوس التاسع عام ١٨٧٨ وبعدها بخمسة وعشرين عاما تولى عرش البابوية بيوس آخر كان مثله مقتنعا أشد الاقتناع أنه لم يوجد بابا مخطئ ولا هو نفسه

الفصل الرابع عشر

التنظيـــف الكبيـــر

في أغسطس من عام ١٩٠٣ أجريت انتخابات اختيار خليفة للبابا ليو الثالث عشر، وفي أثناء مراسم الانتخاب طلب كاردينال بولندا والنمسا الكلمة ، وأبلغ من خلالها رسالة القيصر فرانس جوزيف للمجتمعين باعتراضه على ترشيح الكاردينال رامبولا سكرتير الفاتيكان . أثار هذا التدخل سخط المجلس المجتمع إذ كان تدخلا سافرا فى أخص شئون الكنيسة .

الأب الأبــــدى

تعتبر مدة تولى البابا ليو الثالث عشر لمنصب البابوية من أطول الفترات التى شهدها هذا المنصب ، حتى قال عنه مستشاروه : « كنا نظن أننا باختيار البابا ليو قد وجدنا أبا روحيا مقدسا فإذا بنا قد حصلنا على أب أبدى . »

وعند افتتاح ارشيف الفاتيكان قال البابا ليو الثالث عشر : « إن الكنيسة لا تخشى التاريخ » وعرف عنه منذ ذلك اليوم أنه ليبرالى ، ولكن هذا لم يكن صحيحا ، إذ كان البابا يطالب بالطاعة العمياء له : « حتى إن طالبتك الكنيسة أن تقول إن مجموع اثنين واثنين هو ستة » .

فى عام ١٨٩٦ قرر البابا ليو الثالث عشر أن المذهب الإنجليكانى غير معترف به ، وبذلك نزع منه جميع السلطات ماعدا التعميد ، وكان أساس تفكيره أن الكنيسة الإنجليكانية لا تتبع حواريا بعينه ، وعلى ذلك فلا أساس لمذهبها . وأطلق على أسقفها حتى عام ١٩٥٠ فى صحيفة الفاتيكان «أسقف كانتربرى » وكانت تتم كتابة اللقب بأحرف صغيرة وبين قوسين دلالة على قلة شأنه .

ورغم ذلك ـ وخلافا للبابا بيوس ـ بدأ البابا ليو بالاعتراف بأنظمة الحكم الحديثة في أوروبا ، ومن ذلك إصراره على اعتراف الأساقفة الفرنسيين بالجمهورية الفرنسية وعدم التباكي على أيام الملكية. وهكذا مس نسيم الحرية الرقيق أجواء الفاتيكان .

البـــابـــا الفـــلاح

انتخب المجلس الكنسي المجتمع القس سارتو بدلا من رامبولا الذي أثار اعتراض قيصر النمسا على اختياره مشكلة داخل المجلس . وكان اختيار سارتو مخرجا من المشكلة أو حلا وسطا . ورغم ذلك كان رأي البعض أن سارتو ليس مهيئا لمنصب البابوية ، فمنذ قرون عديدة كانت الكنيسة قد وضعت معايير لاختيار رئيس للكنيسة ، وكانت المشكلة هي: كيف يصل المجلس بالبابا المرشح للسلطة والبابا في الأصل يملك سلطة الكنيسة كلها في يديه ؟ وكانت الإجابة أن المجلس يحدد المرشح فقط ، أما إذا وافق المرشح نفسه فإن السلطة المخولة له من الرب تصبح من حقه بشكل رسمي، وكانت المشكلة أن يوافق سارتو الذي كان يحمل هم المنصب أكثر من حبه له ، وتحت ضغط العديد من القساوسة قبل سارتو المنصب متخذا لنفسه لقب بيوس العاشر .

وبعد مراسم التنصيب لم يبارك البابا الجموع المحتشدة من شرفته المطلة على ميدان بطرس وإنما من البهو الداخلي للكنيسة في إشارة رمزية إلى أنه أعطى ظهره للدنيا في نفس اللحظة التي نصب فيها بابا للكنيسة .

نشـــأة بسيطـــة

ولد جيسيبي سارتو (البابا بيوس التاسع) عام ١٨٣٤ في بلدة صغيرة بشمال إيطاليا وتلقى تعليما دينيا وتدرج في المناصب الدينية وكان مشهورا عنه بشاشته وحسن استقباله لرعيته ، ولكن على الرغم من هذا اللين والبشاشة أظهر هذا الرجل أنه ذو بأس شديد إذا تطلب الأمر ذلك .

ومن ذلك رأيه في سلطات البابا التي لا حدود لها وطلبه الانقياد الأعمى لآرائه ، وذلك حتى قبل أن يتولى منصب البابوية . ومن ذلك أيضا هجومه الشديد على

الليبراليين لاسيما الكاثوليك منهم الذين سماهم : « ذئاب فى ثياب حملان » .

وحين كان سارتو كاردينالا كلف بحمل جرس الكنيسة إلى كنيسة القديس بطرس واستقبلته الجماهير بالهتافات وزينت كل مبانى المدينة ابتهاجا بقدومه ما عدا مبنى مجلس المدينة الذى كان موظفوه من أعداء الكنيسة ولم يغفر لهم سارتو هذه الواقعة قط .

وعلى عكس سابقيه لم يكن سارتو كاردينالا نهما للمال أو للسلطة إنما كان يعتبر دائما أن مال الكنيسة هو ميراث الفقراء على حد تعبيره ، وعضد القول بالفعل فعاش حياة بسيطة وكانت متطلباته بالحد الأدنى .

ورغم ذلك استمتع سارتو بتلك الحياة لمدة تسع سنوات هادئة حتى دعى إلى روما لانتخاب خليفة للبابا ليو الثالث عشر واعدا رعيته أن يعود إليهم سريعا . فكان هذا هو الوعد الوحيد الذى قطعه فى حياته ولم يوفِ به .

غريب فى الفاتيكان

عاش سارتو كالغريب فى روما ، فطوال حياته كان اختلاطه بالبسطاء وعيشته بسيطة ومشاكله قليلة ، أما فى روما فكان حزينا لانفصال الكاثوليك عن الرب وكان حديثه العام والخاص عن الانحدار الأخلاقى وتدهور العالم أجمع ، قاصدا عالم العصر الحديث . . عالم ما بعد الثورة الفرنسية وشعاراتها .

وأحس بيوس العاشر أن قوى مختلفة تضافرت جهودها ضد الكنيسة مجملة فى أصحاب الشعارات الحديثة بالاتفاق مع مفسرى الإنجيل وعلماء الدين المتفتحين ، وأحس بيوس بثقل واجبه فى الوقوف ضد كل هذا الحشد وحيدا ، وكان يتعجب من اختيار الرب لفلاح مثله لمثل هذه المهمة . فشعر بالغربة فى روما وسط جموع من البشر كانت حمى مبادئ العصر الحديث تصيبهم إلا هو .

حقائق الإنجيل بالنسبة للكاثوليك

حتى قبل عهد بيوس العاشر كثر الجدل فى الكنيسة حول تفسير أجزاء من الكتاب المقدس تختص بنشأة الإنسان والأرض . وحسما للجدل قررت الكنيسة عام ١٨٩٧

الانحياز لتفسير دون آخر مغلقة بذلك باب البحث الأكاديمى اللاهوتى أمام علماء الدين وأعلنت أن الطاعة العمياء لرأى الكنيسة هى السبيل للوصول إلى التفاسير الصحيحة . واستمر هذا الوضع لمدة ثلاثين عاما حتى خففت الكنيسة من قبضتها حين قررت السماح لعلماء الدين بالإعراب عن رأيهم بالنسبة لمدى أصالة بعض الأجزاء ، وذلك إذا تعهدوا بالالتزام برأى الكنيسة وتفسيراتها فيما يخص هذه الأجزاء . وهكذا انحصر دور علماء الدين فى توصيل قرارات البابا إلى رعية الكنيسة دون أى تدخل منهم .

وعندما أدرك ليو الثالث عشر خطأ هذا الوضع شكّل ما سمى بلجنة الإنجيل المكونة من واحد وأربعين مستشارا، منهم كثير من الليبراليين .

وعندما تولى بيوس العاشر السلطة أحل بعض العلماء الرجعيين محل هؤلاء الليبراليين وهكذا اتخذ هذا المجلس بين عامى ١٩٠٦ و ١٩١٤ عددا من القرارات الخاطئة واضطر علماء اللاهوت إلى الالتزام بها . وبسبب مركزية شئون الكنيسة والدين منذ المجلس الفاتيكانى الأول ، عاش علماء الدين فى رعب من أى خطأ يصدر منهم أمام تلاميذهم أو زملائهم الذين قد يشون بهم إلى البابا واتباعه وكان السبيل الوحيد للتعبير عن آرائهم هو ادعاء أنها آراء بروتستانتية واستعراضها بهدف نقدها ظاهريا . كما كتب ڤولتير نقدا لهذا الوضع بالكنيسة ولكنها كانت قد وضعت اسمه وكتاباته ضمن القائمة السوداء منذ زمن بعيد ، فلم يسمح بنشر فكره .

وفى عهد بيوس العاشر تعرض علماء الدين الكاثوليك للمراقبة الشديدة والمطاردات العنيفة ، وكان السبب الأساسى وراء ذلك هو فكرة بيوس العاشر عن «المعاصرة» .

الهجـــوم على فكـــرة المعـــاصـــرة

هاجم بيوس التاسع جميع الاتجاهات الليبرالية فى كتابه الذى أصدره بهذا الشأن ، كذلك شن بيوس العاشر هجوما ضاريا على ما أسماه «التحديث» ، فى كتابه الصادر عام ١٩٠٧ خاصة التفسيرات الحديثة للسلطة والإنجيل وأصدر بدوره قائمة بالأفكار المرفوضة من جانبه ، ومنها :

١) لايمكن تحت أى ظرف رفض تفسير الكنيسة للإنجيل ، ورغم ذلك فمن حق

رجال الدين وعلمائه تقييم تلك التفاسير .

٢) إذا أراد عالم الدين أن يدرس علوم الإنجيل بطريقة علمية فعليه أن يطرح وراء ظهره كل الآراء المسبقة التى فرضتها الكنيسة وأن يتعامل مع الموضوعات الدينية كأى موضوعات علمية أخرى .

٣) إن أحاديث يوحنا المتضمنة فى الإنجيل هى بمثابة أفكار صوفية تنقصها الحقائق التاريخية المعضدة لها .

٤) إن علماء الدين غير الكاثوليك قد توصلوا للفهم الصحيح للكتاب المقدس أفضل من زملائهم الكاثوليك .

٥) إن المسلمات التى تعتنقها الكنيسة ، ليست حقائق واردة من السماء وإنما هى تفاسير وقائع دينية توصل إليها الذهن الإنسانى بعد جهد وبحث وعناء .

٦) إن التكوين العضوى للكنيسة قابل للتغيير والمجتمع المسيحى كالمجتمع الإنسانى قابل للتطور باستمرار .

وباستثناء القليل من تلك الأفكار فإنها تعبر عما يدور فى خلد معظم علماء اليوم .

وتدلنا هذه القائمة على أن البابا بيوس العاشر فضل دفن رأسه فى الرمال وتجاهل الإجابة عن تساؤلات المدنية الحديثة والسير فى تيار التطور .

وساوى البابا بين دعاة التطور والخارجين عن الدين ، فوصفهم بالكفر بالله وبالدين المسيحى وبالإنجيل وادعى أن هناك مؤامرة ضد المسيحية تضافرت أطرافها من داخل الكنيسة وخارجها ، فى جميع المجالات : العلوم الطبيعية والفلسفة وعلوم الدين والسياسة .

وبالطبع لم يكن لهذه المؤامرة المزعومة أى أساس من الصحة ، والحقيقة هى أن العلوم الطبيعية كانت قد بدأت ترد على تساؤلات كانت تقتصر الإجابة عنها على الكنيسة فقط فى الأزمان السالفة ، فاعتبرت الكنيسة ذلك تدخلا فى شئونها فى حين

كانت الكنيسة لا تقدم تلك الإجابات الشافية المقنعة للعقل البشرى المتقدم .

ورغم تقبل العالم أجمع لتلك الحقيقة ، إلا أن الكنيسة كانت لاتزال تعيش فى العصور الوسطى ولم تتقبل فكرة أن تتولى أى مؤسسة غيرها اختصاصا من اختصاصاتها .

وحتى العهد القديم والعهد الجديد يدللان على أن التطور هو سنة الحياة وسمة العالم الذى نعيش فيه .. ففكرة الرب عند اليهود مثلا ، بدأت برب محدود السلطة والأتباع ثم مالبث أن زاد أتباعه حتى أصبح رب القبائل اليهودية ثم تطور ليصبح رب العالم أجمع وخالق الكون . ولكن البابا بيوس لم يؤمن بهذا التطور وإنما ظل على اعتقاده بالثبات الأبدى للأشياء والأفكار، وتوقف الزمن والتاريخ عند نقاط معينة .

اثنـــان مـــن دعـــاة العصـــريـــة

من أفضل الطرق لتقييم الحكام بحث طريقة تعاملهم مع المثقفين فى عهدهم . ففى عهد البابا بيوس العاشر مثلا ، تعرض المثقفون الكاثوليك لاضطهاد عظيم . منهم الأيرلندى جورج تيريل الذى توجه لانجلترا فى سن الثامنة عشرة حيث أصبح كاثوليكيا وعضوا فى جماعة اليسوعيين التى برز من بين أعضائها، حتى استرعى انتباهه أن كتابات توماس الأكوينى لا تجيب عن تساؤلات إنسان العصر الحديث .

وعبر تيريل عن آرائه فى كتب صدرت تحت أسماء مستعارة حتى تم ضبطه والتعرف على حقيقة شخصيته وطرده من جماعة اليسوعيين ولكنه لم يخرج من الكنيسة بصفة نهائية على شرط ألا ينشر أى رد على أى تساؤلات دينية وأن تخضع جميع مراسلاته لرقابة الكنيسة .

وعندما لم يلتزم تيريل بذلك الشرط لم يتم طرده من الكنيسة وإنما جُرِّد من جميع سلطاته ، فأصبح كالواقف على أعتابها لا هو داخلها ولا خارجها .

وعند وفاته منحه صديقه القس بريمون الخلاص من جميع ذنوبه ولكن لم تقم له صلاة جنازة تليق برجل دين لأنه لم يخضع للكرسى المقدس . كما لم يصرح له بالدفن فى مقابر الكاثوليك ، فتم دفنه بمقابر الإنجيليكان، وجوزى القس بريمون

الذى مدحه على قبره بأن منع من قراءة الصلوات فى الكنيسة منذ ذلك الحين .

أما رجل الدين الآخر الذى تعرض للاضطهاد خلال عهد بيوس العاشر فكان الأب لوازى الذى أصدر عام ١٩٠٣ كتاب الإنجيلية والكنيسة، فصادره البابا على الفور . وعندما كتب لوازى إلى البابا محاولا استسماحه لم يرد البابا على رسالته ، وإنما كتب إلى كاردينال باريس أن على لوازى أن يحرق بيديه ما كتب وإلا فلن يغفر له أبدا . وفى عام ١٩٠٨ تم فصله من الكنيسة ومنع الكاثوليك من التعامل معه نهائيا بصفته الدينية أو غيرها . وبذلك اعتبره البابا بيوس العاشر ميتا .

وعندما تم انتخاب القس بريمون صديق تيريل ولوازى فى الأكاديمية الفرنسية قال فى كلمة ألقاها إنه عمل تحت أربعة بابوات : بيوس التاسع وليو الثالث عشر وبنديكت الخامس عشر وبيوس الحادى عشر ، وأغفل تماما ذكر بيوس العاشر إشارة إلى ما فعله بصديقيه الحميمين .

الخـــاتمـــة

لم يكن تيريل ولوازى ضحيتى بيوس العاشر الوحيدتين ، فقد شدد الرقابة على كتابات رجال الدين الذين كان عليهم استصدار إذن خاص عند الكتابة للجرائد أو الصحف كما تم تشكيل لجنة مراقبة فرعية فى كل أبراشية بالاضافة إلى لجنة سرية يساندها البابا للقضاء على ما يسمى باللجنة السرية لأعداء المسيح .

كما كان يجرى تقييم أساتذة الجامعة بشكل دورى ، وقياس درجة ولائهم وعزلهم واستبدالهم بغيرهم بهم فى حالة عدم إظهار ولائهم بالدرجة المطلوبة .

كما قام بيوس العاشر بتأليف قَسَمٍ ضد العصرية يقسم به كل رجال الدين والمدرسين ،ففاق فى هذا المجال محاكم التفتيش . ورغم ذلك يعتقد كثير من الكاثوليك ، وحتى اليوم ، أن بيوس العاشر هو منقذ الكنيسة .

يقول البعض إن البابا بيوس تمكن من القضاء على مظاهر العصرية تماما فى عام ١٩١٠ ولكن الحق أن العصرية لم تقم لها قائمة قط فى عهده .

أما أبوَا الكنيسة التاليان : بنديكت الخامس عشر وبيوس الحادى عشر، فلم يقدما

كثيرا للكنيسة لكى تلحق بركب العصرية الذى فاتها منه الكثير إن لم يكن كله .

أما البابا بيوس الثانى عشر فكان أفضل من غيره بكثير ، وتمت على يديه بعض الإصلاحات ، ولكنه لم يتمكن من التخلص من فكرة أن بيده وحده حل أى مشكلة قائمة .

وعندما توفى بيوس الثانى عشر عام ١٩٥٨ نعتته الكنيسة الكاثوليكية بأنه لن يستطيع أحد شغل الفراغ الذى تركه ... ولكن فى اللحظة المظلمة حدثت المعجزة .

التاريخ الأسود للكنيسة

الجزء الثالث

المحبــة

« لم يحدث الشيطان ضررا بالكنيسة بالقدر الذى أحدثته بنفسها

بفرض نظام عزوبة رجال الدين »

الفصل الخامس عشر

البابا الذى أحب العالم !!

لم تظهر معجزة انجيللو رونكالى فى بداية توليه عرش البابوية عام ١٩٥٨، فقد كان مظهره ينبىء بأنه عجوز إيطالية طيبة أكثر منه راعى الكنيسة الكاثوليكية .

كما أن اللقب الذى اختاره لنفسه أثار دهشة وجدلا مثيرا . فقد اختار لقب « يوحنا الثالث والعشرون » والعجيب فى ذلك أنه كان يوجد من قبل بابا يحمل ذات اللقب والذى محا الفاتيكان اسمه من سجلاته للعار الذى ألحقه به . والأعجب أنه لم يوجد قط بابا يحمل لقب يوحنا العشرين لأن البابا الذى اختير عام ١٢٧٦ وكان من يجب أن يحمل ذلك اللقب قد لقب نفسه بيوحنا الحادى والعشرين لاقتناعه بأن التاريخ أغفل أحد البابوات فى القرن التاسع الميلادى .

ورغم أن الناس قد ظنوا أن البابا الجديد يجب أن يحمل لقب يوحنا الرابع والعشرين بدلا من الثالث والعشرين فالحق أنه كان يجب أن يحمل اسم يوحنا الحادى والعشرين .

ورغم فقر وكثرة عدد إخوة انجيللو رونكالى (١٣) إلا أن ذكرياته حملت فى طياتها دائما جميع المساكين وعابرى السبيل الذين كانت والدته تدعوهم وتوجد لهم مكانا بين أولادها ولقمة من طعامها . وكان تفسير والدته أن هذا الغريب عابر السبيل ليس إلا يسوع المسيح . فتعلم منها أولادها الإيثار وحب الآخرين .

وعندما قرر انجيللو فى سن العاشرة أن يسلك طريق التعليم الدينى كان ذلك يمثل إرهاقا ماديا كبيرا للأسرة وتضحية من جميع أفرادها . وبعد التعليم سارت به الحياة

العملية سيرها الطبيعى .

كان رونكالى رجل دين مثقفا يتحدث الايطالية واللاتينية واليونانية والفرنسية والبلغارية بطلاقة ، ويجيد بعض الاسبانية والتركية والرومانية ، كما كان متمكنا من القراءة باللغات الانجليزية والألمانية والروسية .

وعندما عين فى سن الرابعة والعشرين بالسلك الدبلوماسى للفاتيكان حقق نجاحا مبهرا فى كل من البلقان وباريس وتركيا وهى البلاد التى أوفد إليها .

ورغم عدم تناسق وجهه كأن أجزاءه جمعت من وجوه مختلفة ، إلا أن كل شيء فيه كان كبيرا : وجهه وأذناه وعيناه ولاسيما قلبه .. . قلبه الكبير الذى كان إحدى معجزات الخالق .

ولم يفقد براءته وطفولته قط رغم امتداد العمر به ، وبخاصة أنه كان متطلعا إلى المستقبل فقط كالأطفال ، دون النظر إلى الحاضر والماضى . علاوة على ذلك لم يكن يهاب التقلبات وكان مفعما بالتفاؤل .

ومن الأقوال المأثورة عنه ما قاله فيه من اختلفوا معه فى وجهات النظر ، ولا نقول من عادوه إذ لم يكن له أعداء ... مثلا ، إدوار هيديو زعيم حزب الراديكاليين ، حين قال فى مناسبة تكريمه : «لو أن جميع القساوسة مثل الأب رونكالى لمحى أعداء الكنيسة من الوجود » .

ومن أقواله المأثورة : « لا تنظروا إلىّ على أننى سياسى ، بل إننى راعيكم وحامل همومكم » .

فقد كان أولا وأخيرا – إنسانا ومسيحيا ، ولذلك قيل عنه إنه أول بابا غير إيطالى لأن همومه لم تنحصر فى ايطاليا فقط وإنما اعتبر العالم كله رعيته ومستحقا لعطفه واهتمامه . وبقدر ما لعن الآباء السابقون الدنيا وأصدروا التحذيرات والقوائم السوداء بقدر ما ابتسم هو للدنيا وأحبها . ويمكن القول إن عصر نهضة البابوية بدأ به .

ومن أمثلة إنسانيته أنه ترك الفاتيكان فى عيد القديس اسطفان عام ١٩٥٨ ليذهب إلى سجن ريجينيا كولى قائلا للمسجونين هناك : « أنتم لا تستطيعون المجيء إلىّ

لذلك أتيت أنا إليكم » .

وبصدد إصدار شارة جديدة للفاتيكان خاصة بعهده ، عرض عليه نموذج أولى لها، عبارة عن أسد ينشب مخالبه رفضه البابا قائلاً : «إنه عنيف بعض الشيء بالنسبة لشخصيته» ونال الرسم النهائى موافقته عندما رسم الأسد وديعاً .. «لا يخيف أحداً» على حد قوله .

ولعلها المرة الوحيدة التى حسد فيها البروتستانت الكاثوليك على قائدهم . ورغم أوجه الشبه العديدة بين بيوس العاشر ويوحنا الثالث والعشرين (فالاثنان من أصل ريفى ويملؤهما الإيثار وحب الله ، ولم تشب حياتهما الشخصية شائبة) إلا أنهما اختلفا من حيث مفهوم كل منهما لمهمته : فبيوس العاشر تطلب من رعيته الطاعة العمياء باعتباره قائدهم ، إذ كان يكرر باستمرار أنه ممثل المسيح ليؤكد على حقه فى طاعة رعيته له .

أما يوحنا الثالث والعشرين فقد اعتبر نفسه مسيحياً بسيطاً كما لم يحمل نفسه مسئولية حل مشاكل العالم أجمع ؛ لأنه لم يعط نفسه سلطة أعلى من غيره ورأى أن كل مؤهلاته التى أهلته لهذا المنصب هى قدرته الكبيرة على الحب والتسامح ، موضحاً ذلك من أول خطاب ألقاه بعد انتخابه ، ولذلك أيضا لم يضطر إلى فرض سلطته لأن سلطاته كانت هى الحب الذى وصل للجميع دون قهر أو إجبار ، وعلى عكس مبدأ «عصمة البابا من الخطأ» شكل يوحنا الثالث والعشرون مجلساً استشارياً مكوناً من ١٨ كاردينالاً ، وكان أكثر المندهشين هم الكرادلة أنفسهم .

المجلس يبدأ أعماله

فى الجلسة الافتتاحية للمجلس قال البابا يوحنا الثالث والعشرون فى كلمته : « إن الكنيسة يجب أن تطور نفسها وبشكل جذرى ، والحرب الباردة بين الكنائس والمذاهب المسيحية يجب أن تنتهى للتوحد تحت راية يسوع المسيح» .

وقد أعطى تواجد غير الكاثوليك فى قاعة المجلس مصداقية لقوله ، وقيل فى هذه المناسبة : إنه لو كان كل البابوات كيوحنا الثالث والعشرين لتزاحم الناس كى يكونوا كاثوليكيين» .

بدأ المجلس أعماله وسط معارضة كبار رجال الدين الذين لم يروا داعياً لهذه «البدعة» على حد تعبيرهم ، فأحوال الكنيسة كانت على ما يرام ، وتكثر باستمرار أعداد العائذين بها من التحرر المتزايد للمدنية الحديثة . لذا دعوا إلى الاستمرار على نفس النهج الذى أثبت نجاحه ، وتجنب الدخول فى تجارب جديدة غير مأمونة العواقب . كما أن قوة الكنيسة كانت فى استمرارها ومحافظتها على عاداتها القديمة والأصيلة ، لا فى استحداث طرق جديدة .

وتلقى أصحاب هذا الرأى هزيمتهم الأولى بسبب شجاعة اثنين من الكرادلة هما كاردينال كولون وكاردينال ليل ، وكان اعتراضهما على أن جميع لجان الكنيسة يشكلها كبار رجال الدين فقط ، فقوبل هذا الاعتراض بتأييد كبير من أعضاء المجلس ، وهكذا أثبت يوحنا الثالث والعشرون أن كبار رجال الدين لا يمثلون فكر الكنيسة الكاثوليكية . واستمر المجلس فى مناقشة تساؤلات إنسان العصر الحديث . أما أكثر الموضوعات التى أثارت كبار رجال الدين فكانت مناقشة المجلس لتنظيم النسل ، وهو موضوع كان قد اعتبر منتهياً فى الكنيسة ، فقرر كبار رجال الدين أنهم لن يسمحوا أبداً بتغيير شرع الله مهما تكن النتائج التى يصل إليها المجلس المذكور .

وخلال هذا المجلس تألق البطريرك مكسيموس الرابع بطريرك إنطاكية الذى كان يؤمن بتحرير الكنيسة ، فبدأ بتغيير الشكليات بأن خاطب أعضاء المجلس بالفرنسية بدلاً من اللاتينية وانتهى بإثارة عدة موضوعات حيوية ، مثل: جمود الكنيسة وتحركها فقط من خلال القوانين التى لا تمت إلى المحبة التى دعا إليها المسيح بصلة ، وأن ذلك الشكل الرسمى جعل العلاقة بين الكنيسة ورعيتها جامدة لا حياة فيها لأنها تفتقد الروح الإنسانية . كما كان رأيه أن التهديد بالعقاب بنار جهنم لكل خروج على تعاليم الكنيسة مهما قل شأنه ، لا يتفق والمنطق والعقل الإنسانى. ومحا المجلس قوائم ممنوعات البابوين بيوس التاسع والعاشر وكأنها لم تكن ، رغم أنها كانت تعتبر مقدسة وغير قابلة للتغيير . وتحولت صورة الكنيسة من مؤسسة محافظة على التقاليد والتراث إلى مبتدعة تقاليد جديدة ومتطورة مع الزمن.

ولكن بقيت مشكلة «الحقائق الأبدية الثابتة» والتى بسببها كاد المجلس أن يرفض أن

يقرر صراحة أن هناك تغييرات وإنما سماها «تحولات تدريجية» أو «تطورات» ، وهو ما كان ينطبق على بعض الموضوعات ويتنافى تماماً مع موضوعات أخرى .

وبسبب تأييد الروس له ، نال البابا يوحنا الثالث والعشرون جائزة بالزان للسلام فى مارس ١٩٦٣ ولقب كذلك بالبابا الشيوعى ، والحق أنه كان من أفضل البابوات من حيث العلاقة بالاتحاد السوفيتى (السابق) حتى إن جريدة ازفستيا نشرت كلمته الافتتاحية فى المجلس كاملة .

وفى نفس العام نشر البابا كتابه «السلام على الأرض» مرحبا فيه بتطور الكنيسة ومؤيداً حرية الأديان : «لكل حسب ضميره أن يقيم شعائر دينه جهراً أو سراً» .

ومع ظهور هذا الكتاب كانت بداية نهاية البابا الذى عانى نزيفاً داخلياً ، وتوفى فى ٣ يونيو ١٩٦٣ تاركاً وراءه فراغاً لم يتمكن أحد من سده .

وخلف البابا يوحنا الثالث والعشرين الكاردينال مونتين من ميلانو متخذاً لقب بولس السادس .

الفصل السادس عشر

فضيحة جاليليو الجديدة

كان أحد أهم أهداف البابا بولس السادس زيادة سلطة البابا فيما يختص بقرار الكنيسة بشأن استخدام وسائل منع الحمل ، وتم ذلك بالتدريج . ففى البداية استكمل المجلس مناقشة هذا الموضوع . وعندما وضح اتجاهه فى السماح باستخدام هذه الوسائل ، بل والإلحاح فى ذلك ، سحب البابا صلاحيات المجلس الكاملة فى هذا الشأن وأوضح أن رأى المجلس استشارى وعليه أن يعرض توصياته على البابا الذى يبت فيها ويكون صاحب الرأى النهائى فى الكنيسة . وكان هذا قرارا مستغربا من المجتمع المسيحى وغريبا فعلا فى ظل الأجواء الديمقراطية الاستشارية التى ابتدعها البابا يوحنا الثالث والعشرون .

كان هذا التصرف خطأ كبيرا ظهرت آثاره المدمرة على الكنيسة فيما بعد.

وبذلك أعاد المجلس الفاتيكانى الثانى ذكريات المجلس الأول وهى قراره بأن سلطة البابا هى أعلى سلطة فى الكنيسة وجميع الأعضاء الآخرين تحت إمرته.

وكتب الأب ميرفى عام ١٩٦٨ – قبل أن يعلن البابا بولس السادس قراره النهائى – « ان سكوت كبار رجال الدين عن الإدلاء برأيهم فى موضوع استخدام وسائل تنظيم الأسرة يكاد يكون جريمة وأن ترك القرار للبابا وحده لا يعد صحيحا ولا مقبولا»

وأقنع البابا القساوسة المجتمعين بأن يعضدوا رأيه وألا يعارضوه علانية لأن ذلك يسيء لمظهر الكنيسة أمام العالم الخارجى كرمز للوحدة والتماسك .

واعتقد كثير من القساوسة أن البابا لن يمكنه الوقوف أمام تيار الرأى السائد فى المجلس ، وقد أثبت هذا التفكير خطأه ، إذ إن البابا وقف أمام التيار ، بل جذبه معه .

وعلى هؤلاء القساوسة أن يتحملوا وزر امتناعهم عن الوقوف في وجه البابا أمام محكمة التاريخ وذلك لأنهم لم يعلنوا حقيقة تفكيرهم وهو واجبهم الأصلى .

ولكن بعض القساوسة كسروا هذه القاعدة وأعلنوا للعالم رأيهم الصريح .

تمـــــرد صغيــــر

ساد المجلس توتر شديد على أثر قيام ثلاثة من الأساقفه بإلقاء محاضراتهم عن « الكنيسة فى العالم الحديث » .

كان الرأى الأول للكاردينال ليجى من مونتريال الذى اقترح أن استخدام وسائل تنظيم الأسرة ليس حراما لأنه لا يجب النظر إليه على أنه قطع للنسل خلال الزيجة كلها فوسائل تنظيم الأسرة لا تتعارض مع الغرض الأساسى للزواج وهو التناسل وحفظ النوع .

أما الرأى الثانى الذى أثار حرجا واسعا ، فكان رأى البطريرك مكسيموس الرابع ، والذى جاء معبرا عن هموم الليبراليين حين قال إن هناك فجوة تتسع بين آراء الكنيسة وأسلوب معيشة المسيحيين اليوم . وأن مسيحيى اليوم يجدون أنفسهم مضطرين للعيش بعيدا عن ظلال الكنيسة لأنها لا تجيب عن تساؤلاتهم وهموم جيلهم . بل تتحدث عن مشاكل قديمة نظرية بعيدة عن واقع اليوم ، وأن الكنيسة بذلك تفقد رعاياها يوما بعد يوم . وأكد أن تعريف الكنيسة للجنس بأن هدفه هو التناسل فقط ، لا ينبع من الإنجيل ، وأن عليها أن تراعي أيضا أغراضه الجانبية وهى التواصل والمحبة بين الزوجين .ثم جاء الدور على الفريدو أوتافيانى كبير مفتشى محاكم التفتيش وكان من المحافظين رافضا لجميع الاتجاهات الليبرالية التى عرضت فى هذا المجلس قائلا إنه لم يسمح قط بفكرة اختيار الأزواج لعدد أطفالهم . ولم يكن هذا صحيحا ، فقد أجاز المجلس فكرة « الأبوة المسئولة » بمعنى أنه من الأفضل ألا يكون هناك أطفال إذا كانوا نتاج الخطيئة . وأثار هذا التعليق تساؤل الكثيرين حول ارتباط كبار رجال الدين بباقى الكنيسة وعن جدوى تمثيلهم لرأى الكنيسة إذا كان يخالف رأيهم ، وما السبيل

لإصلاح ذلك خاصة إذا كان البابا يعتمد على هؤلاء فى النصح والشورى ؟

وحسما لهذا الجدل قرر الكاردينال أجاجيانيان يوم ٣٠ أكتوبر أن يتم الاقتراع وكان وقتها كثير من الأساقفة يتناولون القهوة خارج قاعة الاجتماع . ورغم ذلك قرر أجاجيانيان الأخذ برأى العدد الموجود .

وكانت تلك آخر مرة ناقش فيها رجال الدين الكاثوليك هذا الموضوع بصراحة وعلى الملأ وتم بعدها إصدار التعليمات لهم وللنساء بالتزام الصمت حينما يفتح هذا الموضوع .

وانتهت المناقشات إلى أن الرأى الأخير هو للبابا (ولم يتم مناقشة ذلك) ولم يفهم كثير من الكاثوليك حينئذ جدوى الجدل الذى ساد طيلة هذه المدة .

وفى ٢٥ نوفمبر ، أى بعد شهر من انعقاد هذا المجلس ، أضاف البابا خمس إضافات للنص الخاص بالزواج غيرت من المغنى الذى كان ثلثا الأعضاء قد وافقوا عليه . واعترض كثير من الأساقفه على ذلك ومن ضمنهم الكاردينال ليجى والكاردينال جارون وكان أكثر ما أثار أعضاء المجلس ليس مصادرة رأيهم ، بل إعلان رأى البابا على أنه رأيهم !!

هاملت يبدأ العمل

حمل البابا نفسه مسئولية إصدار قرار يخص هذا الموضوع الشائك وتفرد به وأعلن مرارا أنه موضوع محرج وكان كذلك فعلا ، لاسيما لرجل دين عزب لا تربطه بهذا الموضوع صلة مباشرة .

ورغم أنه لم يصدر قراره مباشرة إلا أن اتجاهاته كانت واضحة من خلال أحاديثه التى كان يلقيها فى شتى المناسبات . فمثلا عندما وقف أمام الأمم المتحدة قال : « إننا نطالبكم بتقديم خبز أكثر للجياع فى العالم بدلا من محاولة إنقاص المواليد حتى يكفى الخبز الموجود . »

وكانت فرصته الوحيدة لإصدار قرار سليم هى مشورة المجلس الذى نحاه هو جانبا واتخذ مستشاريه من الكرادلة المعروفين باتجاهاتهم المحافظة بل الرجعية والذين لم يوافقوا

على فكرة المجلس الاستشارى منذ البداية .

وفى عام ١٩٦٦ ، أى بعد عامين من انعقاد المجلس ، كان البابا لايزال يدرس ويفحص الأوراق والبيانات والإحصائيات للوصول إلى قرار نهائى ... وفى هذا الصدد كان دائم الثناء على مجهودات المجلس شاكرا لهم تعاونهم معه .

واحتار المراقبون للموقف ، فمن ناحية يقدر البابا مجهودات المجلس ويثنى عليها ولكنه لا يأخذ بقراره ويعلن أنه وحده صاحب القرار ، فلِمَ كان المجلس منعقدا طيلة هذه الفترة ؟

ومن ناحية أخرى فهو يتخذ مستشاريه من رجال الدين المحافظين ولكنه لا يأخذ برأيهم أيضا ولا يعود لآراء البابوات الأوائل كنصيحة مستشاريه له !! وفسر كثير من العامة تردد البابا وطول مدة اتخاذ القرار بأنه ليس واثقا من قراره كما يظهر من خطبه وأحاديثه . وأن كثرة المعارضين للرأى الرسمى للكنيسة جعله غير واثق بقراره . كما أن فشل الطرق الطبيعية لمنع الحمل والعزل اللتين نادت بهما الكنيسة ، وعدم إمكانية الاعتماد عليهما أدى إلى قلة ثقة العامة فى آراء الكنيسة فى هذا الموضوع وبدلا من انتظار رأى البابا الذى طال أمده ، بدأ الكاثوليك يفكرون فى طرق وأساليب تناسب واقعهم أكثر فأكثر .

ولم يجد البابا تبريرات كافية لقراره بتجريم وسائل منع الحمل وأحل استخدامها فى أغراض طبية أخرى غير منع الحمل فاستند إلى آراء الكنيسة فى العهود السابقة ، ولكنه فوجئ بأنه حتى رجال الدين المحافظون يعارضونه فى عدم كفاية هذه التبريرات وعدم اقتناع العامة بها وسجلوا رأيهم هذا فى تقرير خاص رفعوه للبابا .

التقـــريـــران

كان تقرير غالبية مستشارى البابا يقول فى مجمله إن وسائل منع الحمل لا تعتبر حراما على العموم وإنما هناك بعض الاستثناءات على عكس رأى الكنيسة التقليدى القائل بحرمة هذه الوسائل تحت أى ظروف وأن استخدامها لا عذر له .

كما تحدث التقرير عما سماه « مبدأ الكل » فقال إنه يجب النظر إلى الزواج

والجنس نظرة شمولية واحدة ، فإذا نتج عن هذا الزواج أطفال فهو لم يخل بشرع الله مهما استخدم هذان الزوجان من وسائل منع الحمل ، فهما إذن لم يمنعا الحمل تماما من هذه الزيجة ، وعلى ذلك لم يرتكبا إثما.

كما أيد التقرير مبدأ « الأبوة المسئولة » أى حق الآباء فى تحديد عدد الأطفال الذى يرغبونه وذلك باستخدام وسائل منع الحمل طبعا .

هذا التقرير الذى قدمناه باختصار شديد كان معضدا بالأسانيد والحجج القوية ولكنه لم يلق قبولا لدى البابا بولس كتقرير الأقلية .

يبدأ تقرير الأقلية بسؤال : « هل استخدام وسائل منع الحمل حرام ؟ » ويرد التقرير قائلا : نعم ، وبشدة ، مستشهدا أساسا بتاريخ رأى الكنيسة لاسيما رأى البابا بيوس الحادى عشر الذى اعتبرها « جريمة يعاقب الله عليها بالموت ، وليس لها أى مبرر مهما كان » .

وأضاف أن الكنيسة تقف شامخة وسط طوفان الانحدار الأخلاقى لهذا الزمن لحماية قدسية العلاقة الزوجية والأسرة وأهدافها السامية .

كما استشهد التقرير بالبابا بيوس الثانى عشر فى قوله « إن رأى الكنيسة لن يتغير فى هذا الصدد ليس لجمودها ولكن لأن هذا قرار إلهى ثابت وليس إنسانيا قابلا للتغيير » .

وبعد هذا الاستعراض التاريخى توجه التقرير بالنداء للبابا بولس بعدم امتهان كرامة الكنيسة وإهدار تاريخها العريق بالموافقة على موضوع طال رفض الكنيسة له وماسيسببه ذلك من حرج بالنسبة لنقطة عصمة البابوات السابقين من الخطأ وأن ذلك سيفتح بابا أمام تغييرات أخرى لا تقرها الكنيسة فى الوقت الحاضر .

ولكن اهتزاز سلطة البابا وتشويه صورة البابوات السابقين كان من أكثر الأسباب تأثيرا فى نفس البابا بولس .

وعندما انتهى البابا من قراءة التقريرين علم أنه واقع فى مشكلة كبيرة : فإذا أيد رأى الأقلية فسيثير ضده الأغلبية التى لاقبل له بها ، وإذا أيد رأى الأغلبية كان فى

ذلك نهاية البابوية : ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وظن العالم أجمع أن قرار البابا وشيك بانتهائه من قراءة التقريرين ولكن هيهات فتردده الهاملتى استمر لمدة عامين آخرين .

كان من نتائج إعلان الكنيسة حرمة استخدام وسائل منع الحمل فى عهد البابا بيوس الثانى عشر فى أواخر الخمسينات أن زادت نسبة الإجهاض فى الدول الكاثوليكية لاسيما الفقيرة منها مثل دول أمريكا اللاتينية واستتبع ذلك ارتفاع نسبة وفيات الأمهات أثناء الإجهاض .

كما أن تقدم الطب وانخفاض نسبة وفيات الأطفال وارتفاع متوسط عمر الإنسان أدى ذلك كله إلى ازدياد مطرد فى نسبة النمو السكانى مما أنذر بانفجار سكانى على مستوى العالم . وظهر بجلاء أنه إن لم يكن استخدام وسائل منع الحمل هو حل المشكلة فإنه لا يوجد حل بدونها .

وهكذا لم تبق الكنيسة إلا على الأساليب الطبيعية لتحديد النسل وهى العزل وطريقة كناوس أوجينو (أى حساب أيام الخصوبة حسب درجة حرارة المرأة) .

وكانت هذه الطرق – لاسيما لدول العالم الثالث – إما غير مقبولة، أو غير محتملة أو عملية . وكانت تلك الدول هى أشد الدول حاجة إلى تخفيض معدلات زيادة السكان بها .

وهكذا ثبت بالدليل العملى القاطع أنه لا حل للعالم سوى استخدام وسائل منع الحمل . ولكن الكنيسة تجاهلت كل تلك الأدلة كما ظهر من تقرير البابا النهائى الذى خرج للوجود أخيرا فى عام ١٩٦٨ بعد طول انتظار.

دواء مـــــر

خرج تقرير « حياة الإنسان » إلى الوجود فى ٢٥ يوليو ١٩٦٨ وكانت افتتاحيته تدل على فحواه إذ كتب فيها البابا : « ... إن واجب استمرار الحياة البشرية ... » كما أشار فى موضع آخر إلى هذا « الواجب » وقال أيضا إنه توصل إلى محتوى هذا الكتاب بعد تفكير عميق وهو كالآتى : أن طريقة كناوس– أوچينو المشار إليها سابقا

حلال إذا رأى الزوجان أنهما يريدان منع الإنجاب لفترة زمنية محددة . أما الإجهاض وإجراء عمليات التعقيم فهو حرام أو أى وضع أو تصرف يؤدى إلى منع التناسل . كما أكد أن الغاية لا تبرر الوسيلة وعلى ذلك فكل الأسباب التى يوردها أنصار تنظيم النسل كالحد من الانفجار السكانى وغيره غاية لا تبررها وسيلة استخدام وسائل منع الحمل . وهو يحكم على مستخدميها بالموت حتى لو قال الأطباء لوالدى ذلك الطفل القادم إنه سيولد معاقا أو به مرض وراثى أكيد ... إلخ . أو حتى إن كان إبنا لفقيرين سيزدادان فقرا بوجوده وبالتأكيد ينتظره مستقبل مظلم . وحتى إن كان الموت يهدد الأم أو يصيبها بعجز أكيد إذا هى أنجبت طفلا آخر .

والأدهى من ذلك أن البابا لم يجد سندا واحدا فى الإنجيل يعضد به هذه القرارات التى توصل إليها . أما إشاراته كلها فلكلمات الآباء السابقين والمجالس الفاتيكانية السابقة .

وكان من ضمن تبريرات البابا لعدم استخدام وسائل منع الحمل أن الله بحكمته قد أوجد فواصل زمنية طبيعية بين كل ولادة وأخرى ، وعلى ذلك فلا حاجة لتدخل الإنسان . ولم يفهم كثير من الكاثوليك ما يقصده البابا فهل كان يتوقع مثلا أن تحمل السيدة فى مارس وأبريل ومايو وهكذا ، وأن حملها مرة يمنع حملها مرة أخرى حتى تلد ؟ وهل هذا ما كان يقصده بالفواصل الزمنية الطبيعية ؟ وإذا كان هذا هو ما يقصده فهو يبنى نظريته على تساوى الإنسان والحيوان الذى له أوقات محددة للخصوبة لأن الهدف الأساسى من الجنس عند الحيوان هو حفظ النوع ، أما عدم وجود فترة معينة للخصوبة عند الإنسان فيدل على أن الجنس عنده ليس هدفه استمرار النوع فقط وإنما تدخل فيه المشاركة الوجدانية والعواطف .

وبذلك حرم البابا « التدخل فى مسار الطبيعة » وهو الوصف الذى أطلقه على استخدام وسائل منع الحمل . ولكنه لم يحرم عمليات زرع القلب والكلى واستخدام الأدوية رغم أن ذلك يعتبر تدخلا فى مسار الطبيعة بنفس المنطق السابق . وتساءل كثير من الكاثوليك ساخرين « وماذا عن النظارات الطبية ؟ هل هى حرام أيضا وتدخل فى مسار الطبيعة ؟ »

ووجه البابا فى نهاية تقريره نداء إلى حكومات الدول ألا تصدر قوانين ضد قوانين الرب كالقوانين التي تبيح الإجهاض مثلا ، كما وجه نداءً إلى رجال الدين أن يطيعوا البابا فيما يأمر به لأنه موحى إليه من قدس الأقداس وليس للأسباب التى يوردها البابا فى تبرير النتائج التى توصل إليها !! فهل كان هذا اعترافاً من البابا بضعف الأسانيد التى أوردها للدفاع عن وجهة نظره ، لاسيما أنها لم يكن لها أى سند من الإنجيل ؟!

ردود الفعـــل الأولـــى

كان رد فعل الصحافة متوقعا إذ لم تسنح لها مثل هذه الفرصة منذ نشر قائمة الأخطاء عام ١٨٦٤ ففي انجلترا كتبت صحيفة الجارديان عن تقرير «حياة الإنسان» أنه .... « واحد من أسوأ الأخطاء التى ارتكبت فى العصر الحديث. » وأظهرت استفتاءات للرأى العام أن ما بين نصف وثلثى الكاثوليك فى الدول المتقدمة لا يعتبرون آراء الكنيسة فى موضوع استخدام وسائل منع الحمل صحيحة ولا ينوون اتباعها وأن طول تردد الفاتيكان فى إصدار رأيه الأخير بهذا الشأن أدى إلى تشجيع القساوسة لترك الأمر للاختيار الشخصى.»

كما علقت عليها كل من جريدة التايمز وجريدة الايكونومست تعليقات مماثلة وهاجمتها أيضا بعض الجرائد الكاثوليكية .

ولكن كان للبابا أنصاره أيضا الذين أيدوا عدم تأثره بالاحصائيات التى تشير إلى ملايين الجوعى فى العالم وآلاف الأمهات اللاتى يمتن خلال عمليات الإجهاض . كما كتب الكاردينال هينان من ويستمنستر : « إن معظم قرارات الأغلبية خاطئة .... فالأغلبية النازية هى التى اختارت التعقيم الإجبارى للمعاقين والقضاء على اليهود » . وقد أساء الكاردينال إلى صورته كثيرا بهذا التشبيه إذ لم يفهم كثير من القراء العلاقة بين الموضوعين . كما كان رأى الأسقف كارديف أن وسائل منع الحمل تشجع الرجل على عدم تحمل مسئولياته .

كما هوجم التقرير من العامة ووصف بأنه : « غير واقعى .. غير عاقل .. مذهل فى تجاهله لحقائق الحياة .. » .

وأحس الكثير بلا مبالاة الكنيسة والفاتيكان أمام مشاكل العالم الإنسانية، ولكن الكاثوليك المحافظين من العوام أعلنوا ارتياحهم لأن البابا بولس أكد على ذلك كحافظ للقيم الأخلاقية . أما الكاثوليك الليبراليون فقد أحسوا أن البابا قد ضرب بكل الآراء عرض الحائط عدا آراء مجلس كبار رجال الدين. وقد كان هدف هؤلاء الليبراليين إيجاد صيغة مشتركة أو تقبل تنظيم الأسرة من خلال إطار مسيحى . أما البعض الأخير فاعترض على أن يكون هدف النقاش الرئيسى هو وسائل منع الحمل وكان رأيهم أنه كان يجب منع الإجهاض بالأولى .

ردود فعل متأنية

وتتابعت ردود الأفعال بعد ذلك ، فخمسة وخمسون قسا بعثوا برسالة مهذبة إلى جريدة التايمز أعلنوا فيها عدم موافقتهم على ما ورد بتقرير «حياة الإنسان» .

وشكل سبعة وثمانون رجل دين أمريكى كاثوليكى مجموعة قررت أن يكون لها دور أنشط وأكثر إيجابية من مجرد الموافقة على قرارات الفاتيكان . وقالت هذه المجموعة إن انفراد الفاتيكان بالقرارات أدى إلى كوارث كثيرة وظلم كبير لفئات عديدة مثل اليهود وضحايا محاكم التفتيش ثم هاجمت تلك المجموعة تقرير « حياة الإنسان » أيضا .

ولم يلق قرار فاتيكانى مثل هذا الهجوم ولا حتى قائمة الأخطاء التى أصدرها البابا بيوس التاسع وذلك لأن ذكرى البابا يوحنا الثالث والعشرين وديمقراطيته كانت لاتزال حية فى النفوس والمقارنه بها دائمة .

وقد كان خطأ البابا بيوس الأكبر هو انفراده بالقرار واعتماده الاساسى على آراء سابقيه وليس على آراء مستشاريه . وآراء سابقيه تلك لم تكن بالضرورة صحيحة كما أنها لم تكن فى إطار العصر الذى يعيش هو فيه ولذا جاء قراره متناقضا مع كل ما يعيشه إنسان العصر الحديث وغير متفهم البتة لمشاكله وظروفه . ودمر البابا أيضا وحدة الكنيسة عندما نحى جانبا كل ما أشار عليه به المجلس بحيث حدث انقسام فى الكنيسة ، بدلا من توحيد آرائها.

وكما أظهر رجال الدين الليبراليون رفضهم لتقرير « حياة الإنسان » كذلك أظهر

الأساقفة امتعاضهم وأعربوا عن ألمهم للانقسام الذى أحدثه هذا التقرير فى صفوف الكنيسة . وبسبب هذا التقرير غير كثير من رجال الدين موقفهم من محافظين متشددين إلى ليبراليين لعدم موافقتهم البابا على ما جاء بتقريره وأعربوا عن أسفهم لموقفه من المجلس حين نحى رأيه جانبا لأن المجلس كما قالوا « أمد البابا برأيه الاستشارى النابع من حبه وتوقيره له وكدليل على زمالتهم لأخيهم الأكبر فى إدارة شئون الكنيسة » .

وأعرب الأساقفة البلجيك عن اعتقادهم بأن هذا التقرير لايدخل ضمن القرارات المعصومة من الخطأ وعلى ذلك فهم لا يرون مبررا للانصياع الأعمى له .

ولكن كان بجانب هؤلاء ، فئة من رجال الدين الذين أنصاعوا للبابا تماما وأخذوا يدعون رعيتهم لترك هذه الوسائل دون محاولة جدية للحديث إليهم بالمنطق والاقناع وإنما كانت أسبابهم تقليدية تنحصر فى وجوب الطاعة لما يأمر به البابا .

وأيقن كثير من العامة أنهم أكثر علما، فى موضوع وسائل تنظيم الأسرة واستخدامها من البابوات الأعزاب الذين كانت علاقتهم بالموضوع نظرية فقط وفتح ذلك أسباب الجدل حول ضرورة عزوبة كبار رجال الدين واقترح بعضهم أن تكون عزوبة كبار رجال الدين اختيارية . وشهدت فترة ما بعد ظهور هذا التقرير أكبر عدد من رجال الدين المطالبين بإعفائهم من مناصبهم وكان عدم إمكان استمرار العزوبة من أكثر الأسباب شيوعا ضمن أسباب هذه الاستقالات .

كما أن الجماعات النسائية وقفت ضد هذا التقرير بالطبع وتفاقم إحساسها بأن الكنيسة لا تعمل لصالح رعاياها أو على الأقل فئة النساء منهم فهى لا تمس مشكلاتهن ولا تشاركهن همومهن وتصدر قرارات دون النظر لمصلحتهن .

وفى عام ١٩٧٧ صدر كتاب « الأمريكى الكاثوليكى » لأندرو جريلى وفيه علل انحدار شعبية الكنيسة الكاثوليكية وتدهور أعداد أتباعها إلى موقفها فى شأن استخدام وسائل تنظيم الأسرة والمسائل الجنسية عامة وكذلك مطالبة البابا للكاثوليك بالطاعة العمياء له ولآرائه دون اللجوء للإقناع والمنطق وعلى ذلك فقدانه لمصداقيته لدى رعيته. وعند احتفال الأمم المتحدة بمولد الطفل رقم ٥٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فى العالم

أعلن البابا مجددا : « إن قرار الكنيسة بشأن استخدام وسائل منع الحمل غير قابل للمناقشة الحرة من قبل رجال الدين . فإذا اجتمعوا لمناقشة هذا الأمر فيجب أن يكون ذلك من منطلق أنه لا تغيير ، وبما أنهم غير مستعدين لمناقشته من هذا المنطلق فاتباع سياسة الصمت من جانبهم أفضل .

وليس هناك أمل فى تغيير قريب فالبابا مازال مصرا على رأية وقد ملأ الكنائس فى العالم أجمع بقساوسة وأساقفة إما يساندونه بكل قوة أو على الأقل لا يظهرون معارضتهم له وعلى ذلك فتعاليمه ستبقى حتى بعد أن يرحل هو .

وحديثا تدخل عامل جديد فى الموضوع وهو انتشار مرض الإيدز والذى يمنع انتشاره ولو جزئيا استخدام وسائل منع الحمل .

ولازال البابا يؤكد أن الغاية لا تبرر الوسيلة !!!

الفصل السابع عشر

نظرة غير متعاطفة مع الجنس

اشتهر أغسطينوس بكتاباته الصوفية فى القرن الرابع الميلادى ، وكذلك بأنه كاتب النص اللاتينى للإنجيل الذى استمر مع العالم لمدة ١٥ قرنا . وهو يعد أيضا من أعظم علماء الدين المسيحى الذين أنجبهم الغرب .

وقد سجل أغسطينوس معظم أفكاره فى شكل خطب كانت سبب شهرته فقد كان محدثا لبقا وموصلا جيدا لأفكاره .

رهبته من الجنس

كان لأغسطينوس مقاييس متشددة فى مجال الجنس فهو لم يقبل أدنى انحراف فيه ، وطبق نفس المقاييس بالنسبة للرجال والنساء ووصل به الأمر إلى ربط الجنس بالذنب حتى من خلال الزواج .

وكان ذلك كله مرجعه إلى سيرته الأولى قبل أن يتجه إلى الدين . فقد كان فاسقا مشهورا بحبه للعنف والنساء وتعدد علاقاته ، فلما اتخذ الاتجاه الجديد لم ينس ماضيه بل تأثر به تأثرا كبيرا .

وكان من تشدده أنه لم يتعامل مع امرأة قط ـ بعد اتجاهه للدين ـ إلا فى حضور آخرين ، وطبق ذلك حتى على أخته الكبرى .

وارتباط الجنس بالذنب فى تعاليم الكنيسة الكاثوليكية منبعه ذلك الرجل، الذى آمن بذلك إيمانا لا حدود له . وكانت الرغبة فى الجنس فى رأيه هى عقوبة آدم على

عدم طاعته لربه ، وعلى ذلك فهى ذنب أو عقاب على ذنب ارتكب .

وتقبل الجنس فقط باعتباره الوسيلة الوحيدة لاستمرار النوع . ولذلك قدر أغسطينوس العذرية والعزوبة ، فهما نظيفتان مما يعلق بالجنس من ذنب وبالتالى أقرب إلى الرب .

وعلى ذلك ، عندما علم أغسطينوس أن بعض الكاثوليك بدءوا فى استخدام طريقة « الأيام المأمونة » ـ أى التى تقل فيها خصوبة المرأة ـ أعلن أن ذلك ذنب كبير ، إذ تتم من خلاله الممارسة الجنسية بغرض المتعة فقط وليس بهدف الإنجاب .

واستمر هذا التفكير مهيمنا على الكنيسة ورعاتها حتى اعتبر البابا بيوس الثانى عشر عام ١٩٥١ أن هذه هى الطريقة الوحيدة الحلال لمنع الإنجاب .

فضائل الزواج

فى عام ٤٠١م كتب أغسطينوس مقالا عن « فضائل الزواج » الذى كان له أكبر الأثر فى التعاليم المسيحية ، وفيه حدد الفضائل الثلاث للزواج وهى : الإنجاب والوفاء والترابط الأبدى . واستخدمها بعده بخمسة عشر قرنا البابا بيوس الحادى عشر فى عام ١٩٣٠ ليؤكد أن الزواج يتألف منها ، وبدون أى منها لا يكون الزواج صحيحا أو حقيقيا .

وبالطبع كانت ميزة الزواج الرئيسية هى استمرار النوع ... فماذا إذا كانت المرأة لا تنجب ؟ فضيلة الزواج حينئذ أنها تقى الرجل شر الانزلاق فى مهاوى الرذيلة ويكون الرجل بذلك قد اختار أهون الذنبين . ولكن يعيب ذلك التفكير أنه يقع تحت «الغايات التى تبرر الوسائل» رغم أن الكنيسة رفضت دائما هذا المبدأ ومنطقه .

وحرم أيضا بنفس المنطق معاشرة الزوجات الحوامل ، فإن الهدف من تلك المعاشرة لا يكون الإنجاب بالتأكيد !! وكان دليله على منافاة ذلك للفطرة أن الحيوانات لا تفعل ذلك !!

ولكن يبررها مرة أخرى منطق الغاية التى تبرر الوسيلة ، أى أن ذلك أفضل من الانزلاق فى الرذيلة ، فهو يتقبله على مضض.

وكان ارتفاع شأن العزوبة والعذرية عند القديس أغسطينوس منشأ فكرة عزوبة رجال الدين التى بدأت كشىء مستحب وانتهت كواجب ملزم لكبارهم .

ومحاولة ايجاد تبرير للزواج تدل على أن أغسطينوس كان يراه ذنبا يجب إيجاد تبرير لعدم حرمته ، ولم يكن أغسطينوس هو المتفرد بمثل هذا التفكير فى عصره وإنما كان أبعدهم أثرا .

يقول ليفى فى كتابه « تاريخ الأخلاق فى أوروبا » إنه لم يجد سوى ثلاث مناسبات ضمن مجموعة ضخمة من الكتابات ، ثم ذكر الزواج فيها بالخير ووصفه وصفا جميلا !!

ولكن مثل هذا التفكير الذى قد نستغربه اليوم لم يكن مستغربا حينذاك ، بل كان هو التفكير المنتشر الراسخ بين رجال الدين والعوام على السواء .

ولم يستثن من مثل هذا الفكر أحد البابوات ولا حتى البابا جريجورى الأول .

البابا جريجورى الكبير

كان البابا جريجورى الأول إحدى معجزات عصره ، لذا لقب بجريجورى الكبير . وهو أول من أعلى من شأن آراء أغسطينوس بالموافقة عليها . فقد وافقه على أن المعاشرة الزوجية خلال شهور الحمل حرام ، وزاد عليها شهور الإرضاع . وحرم على الرجال دخول الكنيسة بعد المعاشرة الزوجية إلا بعد الاغتسال .

كما وافق أغسطينوس على ربطه بين الجنس وميراث الذنب الذى كان أول من حمله آدم ثم حمله أبناؤه من بعده .

وتساءل الناس : « أولا يتطهر الإنسان من ميراث الذنب بالتعميد ؟ وكيف يحمله لأبنائه وهو طاهر منه ؟ » فأجاب جريجورى : إن الإنسان لا يحمله بعد التعميد ولكن الطبيعة الإنسانية تحمله ، وورود طفل عن طريق المعاشرة الزوجية يحمل الوليد ميراث الذنب بالتأكيد .

وبعث إلى أسقف انجلترا كتابا يقول فيه : « كل معاشرة زوجية تحمل معها ذنبا يجب التكفير عنه .»

ومن أقواله المأثورة : « نحن نأتى إلى هذه الدنيا من الفساد وللفساد ، ونحمل الفساد معنا أينما كنا وفى داخلنا . ويسوع المسيح هو الاستثناء الوحيد ؛ لأنه لم يأت نتيجة معاشرة زوجية ، وعلى ذلك لا يحمل ميراث ذنب كما أنه لم يورثه لأحد ».

ويتضح من الرأى السابق عدم موافقة جريجورى على نظرية « طهارة الحمل بالسيدة مريم. »

وكل ما سبق لا يقصد به الإساءة إلى جريجورى الكبير ، فقد كان شخصا عظيما كما أن أفكاره السابقة التى اعترضنا عليها شاركه فيها كثير قبله وبعده . ولكن المشكلة كانت فى كونه بابا معصوما من الخطأ تحمل آراؤه صفة القدسية وتوجب على الكاثوليك الطاعة العمياء له ، والإيمان الخالص بآرائه دون مناقشة .

ما بعــد جريجـــورى الكبيـــر

كان جريجورى الكبير من أكبر المدافعين عن نظريات القديس أغسطينوس،وفى العصور الوسطى لم تلق تعاليمهما أى معارضة ولم يرد ذكر العاطفة مرة واحدة مقرونا بالممارسة الجنسية بين بنى الإنسان للتفريق بينها وبين نفس الممارسة بين الحيوانات .

وفى عام ١٩٦٦ صدر كتاب مترجم عن الألمانية بعنوان : « تنظيم الأسرة والاعتقادات الكاثوليكية » استعرض فيه كاتبه آراء الكنيسة الكاثوليكية عن موضوع الجنس وتنظيم الأسرة عبر العصور وأظهر هذا الاستعراض عدم وقوف الكنيسة عند رأى واحد فى هذا الموضوع ، وعدم فهم أو تفهم رجال الذين لموضوع كتاباتهم ولاسيما كتابات أسلافهم .

ورغم أن البابا بيوس فى تقريره الذى أصدره عن هذا الموضوع عام ١٩٣٠ اعتمد على كتابات البابا جريجورى ، إلا أنه خرج عنها عندما سمح فى الفقرة رقم ٥٩ بممارسة الزوجين علاقتهما دون النظر إلى الإنجاب معترفا بذلك أن للزواج « أهدافا ثانوية » على حد تعبيره ، ورغم أنه فى فقرة سابقة (رقم ٥٤) تحدث عن « استمرار التقاليد والأعراف المسيحية ».

وفى العصر الحديث وبعد تفسيرات فرويد التى أثبتت أن الجنس ليس حاجة جسدية

فقط وإنما هو تبادل مشاعر وعواطف ، أيقن رجال الدين أن عليهم تعديل نظرتهم السابقة وبدلا من تعديل القديم تمت إضافة بعض الأجزاء الحديثة ، مما جعل المحصلة شيئا شاذا ومشوها . والأدهى أن هذه التوليفة لم تقدم الحل ، أو كان من الصعب بل من المستحيل تطبيقها لتناقضها .

فالحل الجديد وضع العواطف والمشاعر فى المرتبة الثانية من الممارسة الجنسية ، أما المرتبة الأولى فكانت أداء هذه الممارسة على الوجه الأكمل مما يجعلها موفية للحقوق الزوجية .

أما الحل الثانى فكان كتاب البابا بيوس عام ١٩٣٠ والحل الثالث الذى دمج الأول والثانى معا فكان كتاب البابا بولس السادس « حياة الإنسان » الذى ظهر عام ١٩٦٨ .

وجاء الانحراف الكبير عن التقاليد الكنسية فى هذا المجال عندما أعلن بيوس الثانى عشر أن طريقة الأيام المأمونة هى الوحيدة الحلال لمنع الإنجاب فى المسيحية بناءً على الرأى القائل بأن أهم ما يجعل المعاشرة حلالا هو اكتمالها جسديا « رأى البابا بولس السادس » وعلى ذلك فكل ما لا يقطع هذا الاكتمال لا يصبح حراما .

وبذلك تكون الكنيسة اليوم فى مأزق : فهى لم تستكمل مسيرة التقاليد الكاثوليكية القديمة ولم تخضع لمفاهيم الحياة الحديثة ، وفوق كل ذلك لم تقدم الحل الذى ينشده كثير من الكاثوليك ، وذلك بسبب عدم فهم البابوات لحقيقة ما قاله أسلافهم ، حيث خرجوا عنهم وهم يظنون أنهم يستكملون مسيرتهم .

ميراث الذنب وتحديد النسل

كان القديس أغسطينوس بمساندة البابا جريجورى الكبير هو واضع العرف الكنسى بأن التعميد شرط أساسى لخلاص النفوس . وأن الأطفال الذين يتوفون قبل التعميد مصيرهم إلى جهنم رأسا . وكذلك بالطبع جميع الشعوب الوثنية . ولم يحاول رجال الكنيسة إيجاد حل للأطفال الذين سيذهبون إلى جهنم دون جريرة أو للشعوب الوثنية التى لم تسمع عن المسيحية قط . فقد كان الخلاص من خلال الكنيسة وكانوا يقصدون الكنيسة الكاثوليكية فقط . وقد عاقبت محاكم التفتيش كل من شكك فى

ذلك بالموت حرقا .

ويعلق ليفى على ذلك قائلا : « أن يولد الطفل وهو يحمل ميراث ذنب جده الأكبر وبسبب قصر أجله لا يتم تعميده ويتحمل ذلك الذنب ويعاقب بالنار الأبدية ، فذلك حكم لا يتفق والرب الذى يمثل الرحمة والعدل ... وأقرب لكونه من أحكام الشيطان فى أقسى صورها » .

والسؤال ليس عن هذه الأحكام والأقوال التى أصدرها بابوات الكنيسة الأوائل ووافقهم عليها خلفاؤهم ، وإنما عن الشعوب الكاثوليكية التى سكتت طويلا على هذا الظلم البين والأحكام المنافية لأى منطق أو عقل . والإجابة هى سلطة الكنيسة المهيمنة على الشعوب الكاثوليكية والتى توطدت بقرارات بابوية أخرى مثل عصمة البابا من الخطأ ووجوب الطاعة العمياء له وأن يحل العقاب بمن يفكر فقط بقلبه فى أن يعارض أحكام الكنيسة .

ونفس الشيء ينطبق على مسألة تحديد النسل . فبناءً على رأى الكنيسة الكاثوليكية أن الله يتوعد الكاثوليك الذين يحددون نسلهم بعقاب أليم لأسباب تتنافى والعقل والمنطق ، ولكن الفرق أن كاثوليك اليوم يعارضون هذا الرأى بصراحة .

ولأن رجال الدين بدأوا أيضا فى مناقشة أحكام أسلافهم فى أمر تحديد النسل ، فإن الأمل مازال قائما فى أنهم ربما يغيرون تدريجيا تفكير الكنيسة بشأن مسائل أخرى مثل الإجهاض والطلاق .

الفصـــل الثـامــن عشــر

البابوات أول من نادى بالطلاق

والزواج السياسي !!

تنتشر بين الكاثوليك وغيرهم مقولة إن الكنيسة الكاثوليكية لا تسمح بالطلاق وإن الزواج الذى يعقد فى السماء بأمر الرب لا يلغيه انسان وإن الزواج بطبيعته غير قابل للحل .

ويقول آخرون فى الخفاء : « بل توافق الكنيسة على الطلاق فى حالات معينة وقد فعلتها من قبل على مر التاريخ . »

ورغم ذلك فإن نسبة الطلاق فى العالم الغربى ـ لاسيما الولايات المتحدة ـ فى ازدياد مستمر .

وإذا كان جون ميلتون فى رفضه لعدم الطلاق فى القرن ١٧ قد أعرب عن رأيه الشخصى آنذاك ، فإنه اليوم يتحدث بلسان الملايين حين يقول : «ماذا لو اكتشف الزوجان مرض أحدهما أو عدم توافق طباعهما أو ما يستجد فى الحياة الزوجية ، من جنون أحد الطرفين مثلاً، أو سوء طباعه أو اختلافها مع الطرف الآخر ؟ هل نقول عن مثل ذلك الرباط الذى يعانيه البشر إنه تم بأمر الرب فى السماء ولا حل له ؟! ».

البابا وحده له حق التزويج ؟؟ حل الزواج

قديما كان الكاثوليك المطلّقون يعتبرون أنفسهم كاثوليكيين سيئين وأنهم يعيشون فى الخطيئة إن تزوجوا ثانية ، واعتبرتهم الكنيسة ملعونين ، فكانوا يعانون ـ بالإضافة إلى المتاعب النفسية للطلاق ـ من الإحساس بالذنب تجاه تعاليم الكنيسة .

ولكن ذلك الوضع قد تغير اليوم ، فكما يقف الكاثوليك اليوم صراحة ضد رأى البابا فى استخدام وسائل تنظيم الأسرة ، فإنهم لم يعودوا يشعرون بذنب الطلاق إذا وقع . وللتدليل على ذلك نجد أن نسبة الطلاق بين الكاثوليك لا تختلف كثيرا عنها بين البروتستانت . ولذلك يطالب كثير من الكاثوليك الكنيسة الآن بإقرار الطلاق لأنه لصالح جميع الأطراف : الزوج والزوجة وبخاصة الأطفال .

والحقيقة أن الكنيسة تبيح الطلاق .. تبيحه تحت مسمى مختلف هو «حل الرباط الزوجى » ، والذى يقرر الطلاق من عدمه هو البابا والبابا فقط وليس أى شخص آخر فى الدنيا : لا الطرفان أو الحكومة أو أى فرد آخر من رجال الدين .

وكما أعادت الكنيسة استخدام أساليب التعذيب كذلك كانت الرائدة فى إعادة إقرار الطلاق خلال القرن ١٦ بعدما ظل لمدة مئات السنين إجراءً غير قانونى .

والتاريخ يبين لنا أن الكنيسة كثيرا ما سمحت بالطلاق فى أحوال تجيزها هى وتقتضيها « المصلحة الكاثوليكية » كما يسميها البابا حينئذ والذى يتصرف فى مثل هذه المواقف على أنه مندوب الرب على الأرض والعامل بصلاحياته التى لا يملكها غيره . أما المبدأ العام فهو أنه لا طلاق فى الكاثوليكية ولكن التاريخ وحتمية تطور المجتمعات تبين لنا أنه لا ثبات على مبدأ واحد وأن ما كان يجوز منذ آلاف ومئات السنين لا يجوز اليوم وقد لا يجوز غدا فى أغلب الأحوال .

تعاليم يسوع المسيح الخاصة بالزواج

يقر كثير من آباء الكنيسة لاسيما الشرقية منها أن الطلاق بسبب الخيانة الزوجية مباح بالطبع وذلك بناء على بعض أقوال المسيح فى هذا الشأن فى خطبة الجبل ، وعلى ذلك فإن مقولة إن الكنيسة لم تسمح أبدا بالطلاق قول غير صحيح ومردود . وعندما حاول مجلس ترينت أن يقرر ذلك فى عام ١٥٦٣ ذكّره مندوب جمهورية فنيسيا وبكل لباقة بأن الكنيسة الشرقية تبيح الطلاق وأن هذه الإباحة لم تنتقد من الكنيسة الكاثوليكية أو تلقَ أى معارضة من البابا أبدا مما كان له أثره فى تغيير قرار المجلس .

وعندما تحدث المسيح عن علاقة الزواج الأبدية بين الرجل والمرأة كان يتحدث عن

الوضع المثالي وعن أن خطأ الإنسان فى حق هذه العلاقة يعتبر خيانة لها ، وعلى ذلك فكان يجب أن يؤخذ هذا الحديث مأخذ الجد وليس حرفيا كما فعلت الكنيسة مرارا .

أما الأسئلة الفرعية والنواحى القانونية لهذا الموضوع فلم تثر اهتمام المسيح، ذلك لأنه كان رسولا يضع الخطوط العريضة ويبين الحلال والحرام والمباح وغير المباح ، أما تفاصيل الموضوعات ومتاهاتها فلم تكن من اختصاصه ، إذ لم يكن مشرعا بل كان رسولا .

والغريب أن الكنيسة تدعى أن المسيح وضع فى خطبة الجبل تشريعا عاما لا استثناء له وأن على الكنيسة الحفاظ على ذلك التشريع فى حين أن الخطبة لم يرد بها ما يفيد ذلك بالمرة . بل إنها جرت فى أجواء لم تكن الكنيسة لتقبلها فى أيامنا هذه : فخطبة الجبل هذه كانت موجهة للحواريين وهم يهود غير معمدين ولم يتم تعميدهم قط . والمفترض أن عدم إباحة الطلاق وجهت إلى هؤلاء اليهود الذين تبيح الكنيسة اليوم طلاقهم فى حالة تحول أحد الزوجين إلى المسيحية !!

وهكذا صنع البابوات لأنفسهم استثناءً من قاعدة يقولون هم عنها إنها لا استثناء لها !!

التعاليم الأولى للطلاق

كان للكنيسة والحكومات الرومانية وجهات نظر مختلفة بالنسبة للطلاق . ففى حين كانت الكنيسة تحرمه إلا فى بعض الحالات القصوى التى تقررها هى ، كانت الحكومات تبيحه لأى شخص يرغبه . وفى حين كانت الكنيسة تعاقب المطلقين أحيانا إلا أنها لم تقم بذلك أبدا مع علية القوم كالقياصرة : قسطنطين أو كارل الأكبر مثلا . واستمر هذا الانقسام حتى القرن الثامن عشر الميلادى حينما نجحت الكنيسة فى اجتذاب الحكومة لصفها وتم منع الطلاق على المستويين معا .

ومجال الزواج المختلط من المجالات التى شهدت تحولات عنيفة من الضد إلى الضد على مر القرون . فقبل المسيحية كانت التفرقة بين الأديان شيئا غير ذى بال وعلى ذلك لم يدقق الناس كثيرا فى ديانات أزواجهم واعتبر ذلك حرية شخصية لا أثر لها على الزواج .

ولكن مع ظهور المسيحية وانتشارها بدأت التفرقة الواضحة بين المسيحيين فى كفة وكل غير المسيحيين فى كفة أخرى . ومنع تزاوج المسيحيين بغيرهم لأن كل من كان غير مسيحى فهو كافر ومصيره جهنم ، وربط مصير المسيحى به هو نوع من الانتحار أو إيذاء الذات بالنسبة للشخص المسيحى وأولاده . وعليه أطلقت الكنيسة اسم « الزنا » و « الخيانة الزوجية » على الزواج المختلط وحكمت محاكم التفتيش ببطلان زواج الكاثوليك والبروتستانت أيضا ، باعتبار البروتستانت خارجين على الكنيسة الكاثوليكية . ورغم ذلك انتشر زواج الكاثوليك والبروتستانت فى بلاد كألمانيا وإنجلترا حيث كان الكاثوليك أقلية بها ولا مجال للزواج بالنسبة لهم إلا من الأغلبية البروتستانتية .

وأقرت الكنيسة فى أحيان أخرى زواج كاثوليكى من بروتستانتية لأسباب سياسية كما حدث فى عام ١٦٠٤ حينما وافق البابا كليمنس الثامن على زواج نبيل كاثوليكى بأميرة بروتستانتية « للصالح العام » كتعليل لذلك الاستثناء .

ولمداواة هذه الاستثناءات اتخذت الكنيسة بعض الاحتياطات كأن يعمل الطرف الكاثوليكى كل جهده لتحويل البروتستانتى عن مذهبه وأن يكون مذهب أولاد هذا الزواج هو الكاثوليكية وأن يتم إقرار ذلك كتابة لضمانه .

وفى القرن ١٩ حدث تطور آخر وهو ضرورة الحصول على موافقة الكنيسة على تزاوج الكاثوليك والبروتستانت والحق أن هذه الموافقة كان من السهل الحصول عليها وتعطى لكل من يطلبها .

وهكذا أصبح الوضع المحرم من الكنيسة وضعا اعتياديا وأصبحت تعاليم الكنيسة فى جهة ، والتصرف الواقعى فى جهة أخرى كما يحدث فى كثير من أمور الكنيسة .

وبناءً على ذلك يمكن أن نقول إنه لم يحدث تطور بل تغيير جذرى فى موقف الكنيسة فى هذا الشأن .

وفى عام ١٨٧٧ صدرت قائمة تضم ١٦ سببا وجيها – على حد رأى الكنيسة – فى تزاوج الكاثوليك والبروتستانت وثبت أن كثيرا منها غير جدى بالمرة مثل بلوغ المرأة الكاثوليكية سن الرابعة والعشرين دون زواج وعزم الطرف الكاثوليكى على الزواج من

الطرف البروتستانتى سواء بموافقة الكنيسة أم بغير موافقتها (مثال جيد لجزاء عدم الطاعة !) . ومنذ عام ١٩٧٠ لم يعد يطلب إقرارات كتابية من الكاثوليك بل يكفى تعهدهم الشفوى ببذل أقصى ما فى وسعهم لتنشئة الأطفال تنشئة كاثوليكية ، كما تم السماح للكاثوليك بالزواج أمام قس بروتستانتى .

وهكذا ثبت أن الكنيسة قد غيرت رأيها تغييرا جذريا فيما يخص الزواج المختلط .. ولكن ماذا عن الطلاق؟

حكم البابوات بالطلاق فى «الزواج غير تام الأركان»

قرر البابا الكسندر فى منتصف القرن ١٢ أن شرط الزواج الصحيح هو قبول الطرفين له وليس دخول الزوج بالزوجة . وعلى ذلك فالزواج الذى تتم مراسمه ولا يدخل الزوج بزوجته إنما يتجه للدير مثلا - كما حدث فى واقعة حقيقية - فإن الزواج صحيح ولا يحل للزوجة طلب الطلاق أو الزواج بغيره .

ولما تساءل مشرعو الكنيسة عن حقوق الزوجية أجاب الكسندر أن الاستجابة لنداء الرب ودخول الدير له أولوية فوق الزواج . وماذا عن أغراض الزواج حسب القديس أغسطينوس : هل يتحقق النسل والوفاء والرباط الأبدى لزواج كهذا ؟ وهل هذا الزواج هو ما قصده يسوع المسيح حين قال: « ما يربطه الرب لا يحله إنسان » ؟

ومعنى القرار السابق أن الزواج العذرى - إذا استطعنا إطلاق هذه التسمية عليه - هو الزواج المثالى فى المسيحية ، فكيف يتفق ذلك مع هدف الزواج الأول وهو امتداد النسل ؟

ومرة أخرى كان حديث الكنيسة فى واد والواقع الفعلى فى واد آخر : فهى قد حرمت الطلاق بالتشريعات والقوانين ولكن أقرته بالفعل بل وحثت عليه بدعوتها غير المباشرة للرجال لهجران زوجاتهم بحيث يقع الطلاق بالفعل وليس باللسان وهو افتراق الزوجين عن بعضهما مع فارق واحد هو ظلم الزوجة المهجورة دون ذنب يذكر ، وغنى عن الذكر أن ذلك السبب اتخذ ذريعة لكل من أراد هجر زوجته من الرجال .

وفى القرن ١٥ قدّم الأسقف انطونيو أسقف فلورنسا دليلا على أنه حدث مرتين

فى تاريخ الكنيسة أن تم طلاق زوجين على يد بابا وأبيح للطرفين الزواج مرة أخرى .

ورغم أنه قدم الأدلة على صدق قوله ورغم أنه كان من رجال الدين المرموقين فى عهده إلا أنه لم يصدقه إنسان ! فلا يمكن أن تبيح الكنيسة الطلاق ولا أن تبيح زواجا ثانيا للمطلقين .

وحينما صدقه الناس بعد حين ظهرت مشكلة : كيف يحل إنسان ماربطه الرب ؟ وكانت الإجابة التلقائية أن البابا فى تلك الحالة لا يعمل بناءً على رأيه الشخصى وإنما كنائب للرب يحمل سلطانه التى تفوق سلطات أى إنسان .

وظلت هذه القصة أسيرة الكتمان لمدة ٥٠٠ عام أخرى ظل فيها الناس على ظنهم أنه لا طلاق بأى حال من الأحوال فى الكنيسة ، وأن ما يربطه الرب لا يحله أى إنسان تحت أى ظرف .

ولم تكن لتقوم لهذه المشكلة قائمة لو فهم أهل الكنيسة قول المسيح « ما يربطه الرب لا يحله إنسان » فهما صحيحا على أنه الوضع المثالى الذى يجب أن يحتذى وليس الواقع الإجبارى . وكان يجب على الكنيسة أيضا مراعاة توجيه المسيح لبطرس قائلا : «ماتحله أنت على الأرض يحل فى السماء .»

هكذا رأينا كيف حل البابوات رباط الزوجية فى الزيجات غير تامة الأركان .

فماذا عن الزيجات تامة الأركان؟

حكم البابوات بالطلاق فى «الزواج تام الأركان»

باستثناء الخيانة الزوجية لم تبح الكنيسة القديمة الطلاق لأى سبب آخر . ولكن يوجد فى خطابات القديس بولس ما يشير إلى أسباب أخرى تبيح الطلاق مثل فراق الطرف الوثنى للطرف المسيحى . وبرز التساؤل : هل يمكن للطرف المسيحى الزواج ثانية عندئذ ؟

وكانت إجابة القديس أغسطينوس : بالطبع لا ، فإذا فارق الطرف الوثنى الطرف المسيحى فإن الطرف المسيحى يظل وفيا لعهده للزواج بالطرف الوثنى مما لايمكنه من الزواج ثانية .

ورغم ما كان لأغسطينوس من سلطة فإن رأيه السابق قد رفض ، فقد غلبه رأى إسحق (يهودى متحول للمسيحية) أن الطرف المسيحى لا ذنب له فى فض الزيجة ولا يجب أن يعاقب بعدم الزواج .

وبقدر ما أجاب هذا الرد على تساؤلات بقدر ما فتح الباب أمام تساؤلات أخرى منها : هل يحق للمسيحى الذى لم يتركه الطرف الوثنى الزواج مرة أخرى وعلى ذلك قبول الطلاق بينهما ؟ وكان الاتجاه السائد أنه لا يجوز له زواج آخر . وأهم ما فى هذا الموضوع أن بابا عظيما مثل إينوسنس الثالث قد وافق على فكرة فض زواج تام الأركان وأن من يقوم بفضه ليس الكنيسة أو البابا ، بل الطرف المسيحى بنفسه بقيامه بالزواج الثانى .

وهكذا تم عمليا تدمير مقولة إن ما يربطه الرب لا يحله إنسان .

وهناك حقيقة غير معروفة أنه فى القرن ١٢ أباح بابوان قبل البابا إينوسنس الثالث وهما أوربان الثالث وكولستين الثالث – فض زواج مسيحى تام الأركان وضربا مثلا بزوجة مسيحية يتركها زوجها ويتحول إلى الوثنية ويتزوج وثنية . فى هذه الحالة يحق للزوجة الزواج الثانى وإذا أراد زوجها الرجوع إليها فلا تحل له .

وقبلهما أحل جريجورى الثانى وبونيفاس فى عام ٧٢٦ م الزواج الثانى لرجل كانت زوجته مريضة مرضا لا تستطيع معه معاشرة زوجها .

ولم يلق هذا الرأى قبولا لدى كثير من المعلقين الكاثوليك .

وللبرهنة على تذبذب الكنيسة بين عدة آراء متضادة فقد تم شطب آراء كولستين الثالث بعد صدورها بربع قرن حينما عادت سيادة الاتجاه التقليدى بأن ما يربطه الرب لا يحله إنسان تحت أى ظروف .

الطلاق فى إرساليات التبشير فى أمريكا

بانتشار المسيحية فى أمريكا واجهت الكنيسة الكاثوليكية تحديا جديدا نجحت فيه .

فقد واجهتها مسائل جديدة عالجتها بكل الحكمة ورحابة الصدر .

فقد ظهرت مثلا مشكلة الهنود الحمر متعددى الزوجات والمتحولين للمسيحية وكان تساؤلهم عن وضع زوجاتهم اللائى لم تكن الكنيسة لتقبل بهن أبدا . وتفاوتت آراء آباء الكنيسة بين الاحتفاظ بالزوجة الأولى (البابا بولس) أو إن لم يستطع تذكر أيهن كانت الأولى فأقربهن إلى قلبه (البابا بولس أيضا) أو تلك التى تم تعميدها معه حتى لو لم تكن الأولى (البابا بيوس الخامس) .

كما ظهرت مشكلة العبيد الأفارقة المتحولين للمسيحية أيضا والذين كانت لهم زوجات فى إفريقيا ولم يعد هناك أمل ولو ضعيف فى رؤيتهن مرة أخرى . وهنا أيضا أظهرت الكنيسة تفهما عندما سمحت بالزواج الثانى.

وهكذا أثبت التاريخ أن الكنيسة كانت هى مؤسسة إعادة إدخال الطلاق فى حياة المسيحيين وليس الدولة بعد أن ظل لأكثر من ٤٠٠ عام غير قانونى.

والجدير بالذكر أن هذا السماح كان يتم فى شكل استثناءات سرية ، أما رأى الكنيسة الرسمى فكان لا يزال أن الزواج أبدى لا رجعة فيه . ولكن مع بدايات القرن التاسع عشر بدأ هذا التاريخ فى الظهور علانية وقال رجال الكنيسة : إن كان للبابوات حق فض الزيجات غير تامة الأركان وبين الوثنيين والمتحولين حديثا للمسيحية ، فما هى حدود سلطة البابوات ؟

الطلاق المحلل من الكنيسة الحديثة

استمرت الكنيسة فى أسلوبها المعتاد من نفى الطلاق شفويا وكتابة ونظرياً مع تطبيقه عمليا ، فاستمر فى مهاجمة فكرة الطلاق كل من البابا ليو الثالث عشر والبابا بيوس الحادى عشر مع أنهما أباحا الطلاق لطوائف جديدة لم يسمح لها بالطلاق من قبل مثل اليهود والبروتستانت ! وهكذا وصل البابوات إلى قمة تناقضهم بأنهم كانوا يقومون فعلياً بما حرموه هم شخصيا .

ثم حدد البابا بيوس الحادى عشر فى عام ١٩٣٤ معايير لفض الزواج عن طريق السلطة العليا للبابا وكانت هذه المعايير بسيطة : فإذا لم تقم علاقة زوجية جسدية بين طرفين تحول أحدهما إلى المسيحية بعد تحوله إليها فإن الطلاق مباح فى هذه الحالة . وكالعادة ظلت هذه المعايير سراً لم يطلع عليه أو يستفد به إلا المقربون . ولذلك ظلت

نظرتا القانون المدنى والقانون الكنسى للطلاق متضادتين : فالأولى تبيحه والثانية تحرمه ولو نظريا فقط وتعتبره عملا من أعمال الشيطان .

وتطور مجال السماح بالطلاق تطورا ملحوظا : فالزيجاب بين الكاثوليك وغيرهم التى كانت تعقد بموافقة خاصة من البابا وتكتمل لها بذلك أركان الزواج التام بحيث لا يمكن نظريا فضها ، قام بيوس بفضها بالسلطة المخولة له كنائب للرب على الأرض ، وكان هذا حدثا فريدا من نوعه . ثم سمح البابا بالطلاق مرة أخرى بين كاثوليكى وغير معمدة وذلك للسماح للكاثوليكى بالزواج من سيدة أبدت رغبتها فى التحول للكاثوليكية بعد الزواج . وكان تبريره لذلك أن فيه اكتساب فرد جديد ينضم للمسيحية الكاثوليكية واكتساب ذرية هذا الزواج بأن يصبحوا كاثوليكيين ورعين .

ثم بدأت مرحلة طلاق غير المسيحيين وذلك للسماح لأحد الأطراف بالزواج من كاثوليكى والتحول للكاثوليكية . وقد حدث ذلك عام ١٩٥٧ عندما أعلن البابا بيوس الثانى عشر طلاق اثنين من المسلمين لتمكين الزوج من الزواج بكاثوليكية والتحول إلى الكاثوليكية . وانتشر فى تلك الآونة لفظ «للمصلحة الدينية» الذى كان يتسع لكثير من التبريرات التى تسمح بالطلاق والزواج الثانى .

ثم حدث تطور آخر بسيط حينما تم طلاق اثنين من اليهود لرغبة الزوج فى الزواج من كاثوليكية رغم أنه أعلن صراحة أنه لن يتحول للكاثوليكية وإنما يفعل ذلك إرضاءً لزوجته القادمة . وعلى الرغم من ذلك أباح له البابا الطلاق وبالتالى الزواج الثانى وكان ذلك فى عام ١٩٦٤ فى عهد البابا بولس السادس . واختار البابا تبريراته بعناية بناءً على أقوال البابوات السابقين، اختارهم بحيث لا يتعارضون مع غرضه . ومن خلال كل تلك التطورات تظهر دوماً مشكلة تناقض الكنيسة بين نظرياتها وأفعالها .. بين رفض الطلاق كمبدأ وبين إقراره كواقع عملى .. بين انفصال واقع الكنيسة عن نظريتها مع كل ما يستتبعه ذلك من نتائج .

وكثير من الجهد الذى بذله مشرعو الكنيسة فى العهود السابقة للوصول إلى حل فى مشكلة الطلاق فى الكنيسة أو لتجنبه فى زيجات معينة ، تم شطبه ببساطة فى التاريخ الحديث والذى جعل الطلاق ميسرا إلى حد كبير .

والعجيب أن الكنيسة التى قامت أصلا من أجل صالح المسيحيين تؤمن بالطلاق لكل الطوائف تقريبًا ولكل أنواع الزواج إلا الزواج الكاثوليكى تام الأركان الذى تم بموافقة الكنيسة . ولذلك يمكننا القول إن الزواج الكاثوليكى لم يستفد من تطور نظرة الكنيسة للطلاق ، بل أفادت العناصر الخارجية أكثر من إفادتها لرعيتها .

كل ذلك لأن البابوات رفضوا النظر للموضوع بواقعية : فهم كانوا يبحثون عن تبريرات للطلاق بعيدة عن أقربها للمجتمع الإنسانى وهى عدم توافق الزوجين والذى يحدث فى كثير من الزيجات . ولو أنهم نظروا لهذا السبب لأباحوا الطلاق دون تحايل ودون بذل جهود كبيرة مشتتة ومهدرة دون طائل .

عندما لا يكون الطلاق طلاقاً

الآن ، الأسر الغنية الكاثوليكية فى أسبانيا وإيطاليا وأيضاً الولايات المتحدة ، تتبع أساليب للتحايل على الحصول على الطلاق . فمثلاً عند ادعاء أن الزواج تم بالإكراه أو تحت الضغط يسمح البابا بالطلاق ، وقد حدث ذلك فعلا من البابا بيوس الحادى عشر عام ١٩٣٦ .

وانتشرت أيضاً عادة كتابة خطابات تفيد أن الزواج تم تحت الضغط أو الإكراه قبل الزواج وحفظها لدى محامين وذلك لاستخدامها حين الحاجة إليها والرغبة فى التخلص من هذا الزواج .

والطلاق الذى ترفضه الكنيسة اسميا وتقبله فعليا تحت مسميات أخرى أدى إلى فقدان مصداقيتها لدى كثير من رعاياها .

ولمزيد من التوضيح فإن الزواج بالإكراه أو تحت الضغط يعتبر لاغيا فى المسيحية ، ولذلك فإن ادعاء الضغط أو الإكراه على الزواج ولو بعد عشرات السنين يلغى الزواج حتما . ولكن ماذا عن فترة ما قبل الإلغاء ؟ تعتبر هذه الفترة فترة زنا !! وأطفال هذا الزواج غير شرعيين !! وكيف تقبل الكنيسة مثل هذا الوضع بالنسبة لرعاياها وتوافق على إلغاء زواج دام كل هذا السنين خاصة بعد علمها أن هذه حجة يستخدمها الطرف الباغض لاستمرار الزواج ؟!

وأثبتت الكنيسة أنها تأخذ بظاهر كلمات المسيح دون النظر إلى جوهرها . فمثلاً كلمة «ما يربطه الرب لا يحله إنسان» وضعت كمثال يحتذى ويجب الاقتداء به وليس كفرض يجعل الزواج وحدة أبدية بعد أن يثبت فشله ولا يستطيع طرفاه الطلاق أو الزواج مرة أخرى بدلاً من أن يكون أنسا ومشاركة وتبديد وحشة .

ولذا يقول كثير من الكاثوليك إن كنيستهم لا تشعر بمشاكلهم وإنها تيسر سبيل الطلاق لكل الطوائف إلا رعاياها. ويعللون ذلك بعزوبة رجال الدين وأصبح وضع الكنيسة اليوم فى أعين رعاياها أن استثناءاتها أكثر من قواعدها، ولكن الكنيسة تلجأ للقاعدة أحياناً لكبح جماح رغبات رعاياها التى تعتبرها هى غير مشروعة ومنها الطلاق فى بعض الحالات . فانعدام الحب أو الرغبة فى استمرار الزواج ليس بسبب كاف للكنيسة لإلغاء هذا الزواج وبذلك تضطر رعاياها إلى اللجوء لحيل الضغط والإكراه وغيره . وأن تدفن الكنيسة رأسها فى الرمال وتسمى الطلاق بمسميات أخرى مثل إلغاء الزواج مع التأكيد أن الطلاق محرم وإلغاء الزواج مشروع ، لا يحل المشكلة.

آخــــر طـــلاق بابـــوى

ما زالت الكنيسة الكاثوليكية تؤكد أن الزواج تام الأركان لن يتم إلغاؤه تحت أى ظرف ، ولكن التاريخ أثبت أن ذلك سيحدث إن عاجلاً أو آجلا وأنها مسألة وقت فقط قبل أن يحدث ذلك بكل تأكيد . والسماح باستخدام طريقة كناوس ـ أوچينو ، المشار إليها سابقاً ، بعد الاعتراض عليها ، هو مثل على تبدل آراء الكنيسة مع مرور الزمن .

والذى يعنينا هنا ليس تبدل آراء الكنيسة : فهذا شىء مشروع ومطلوب فى ظل تغير أجواء العالم الذى نعيش فيه ووجوب أحكام الكنيسة له ـ لكن الغريب أن تتغير أحكام الكنيسة مع الإصرار على أن أحكامها أبدية ومطلقة.

ونحن نؤكد أن مجال الطلاق بصفة خاصة سيشهد تطوراً كبيراً من خلال الكنيسة ، ويمكن إجراء ذلك بالتدريج ، بأن تبدأ الكنيسة بتقبل الكاثوليك المطلقين مدنيا وتسمح لهم بدخول الكنيسة وممارسة الشعائر مع عدم الإحساس بأى ذنب نتيجة طلاقهم . ثم تأتى مرحلة التقنين بحيث تلتقى وجهات نظر الكاثوليك الواقعية مع

تشريعات الكنيسة والتى تكون نتيجة دراسة واقعية لأحوال الكاثوليك والتشريعات السابقة بحيث لا تخل بأحدهما .

ونتيجة لذلك ستكسب الكنيسة عودة مرتاديها السابقين الذين هجروها لتعنت أحكامها ، وأطفالهم الذين يمثلون أجيالاً كاملة ولدت غير مرتبطة بالكنيسة وتمثل الكنيسة بالنسبة لهم مؤسسة غير مرنة لا تمنحهم ما تمنحهم إياه الكنائس الأخرى . ويعلمنا تاريخ الكنيسة ولا سيما تقرير «حياة الإنسان» أنه لا يجب ترك أمور الكنيسة وأحكامها فى يد رجل واحد مهما كان قديساً أو معصوماً من الخطأ .

وبكل الاحترام نقول : إن ذلك التغيير لن يحدث فى فترة رئاسة يوحنا بولس للفاتيكان . وعلى ذلك فمواضيع الطلاق واستخدام وسائل منع الحمل لن تتزحزح عن موقفها الحالى وهو أنه ضد قوانين الرب ويندرج معها تحت نفس المسمى موضوع شائك آخر هو الإجهاض .

الفصل التاسع عشر

معسكر التعذيب الصامت

الحمل / الإجهاض

تعتبر مسألة الإجهاض من أكثر المسائل إثارة للجدل . ورأى الكنيسة الكاثوليكية أنه قتل لنفس بريئة وعلى ذلك فهو محرم تحريماً قطعياً.

أما مؤيدو الإجهاض فيرون أن الطفل القادم جزء من جسد المرأة لها حق التصرف فيه كيفما شاءت، وأن هذا الطفل لاروح فيه وإنما هو بمثابة مشروع إنسان حى.

وأظهرت بعض الدراسات الحديثة أن آراء معظم العامة تقع فى موقع وسط بين الرأيين السابقين ، فهم يؤيدون حق الأم فى التخلص من جنينها اذا كان وجوده يتعارض مع رغبتها أو صالحها ولكن ليس بدون تفكير عميق أوتقليب الأمر على جميع وجوهه.

إحساس جديد بالحياة

على عكس المسيحية كانت الحضارات الإغريقية واليونانية لاتكن احتراماً كبيراً للأجنة فى بطون أمهاتها لسيادة الاعتقاد أن الجنين لايصبح إنساناً كاملاً إلا بعد النفس الأول بعد خروجه للدنيا، وعلى ذلك لم تحرم الإجهاض قط بل كان اجراءً عادياً يومياً مثله مثل أى عملية جراحية، فى حين كانت المسيحية تعتبر أن الإجهاض أكبر ذنبا من القتل وذنب لا يغتفر، أما الجزاء فكان قاسياً ويتمثل فى الحرمان من المراسم الدينية مدى الحياة.

وأساس النظرية المسيحية يرتكز على مبدأ «المحبة المسيحية» أى محبة الإنسان لأخيه

الإنسان خاصة لو كان ضعيفاً كالوليد أو الطفل أو الشيخ الكبير، ولذا لا يجب حرمانه من هذه الحياه لمجرد أنه سيضيف أعباءً جديدة مادية كانت أو معنوية.

تغيير رأي جذري

لاشك أن مسألة الإجهاض شهدت تحولاً جذرياً خلال العقود الماضية، فحتى عام ١٩٣٩ لم تكن هناك دولة واحدة فى العالم تسمح لنسائها بحرية الإجهاض رغم وجود بعض الاستثناءات بالطبع، ففى بولندا الكاثوليكية مثلاً سمح قانون عام ١٩٣٢ بالإجهاض لحماية المرأة بعد تعرضها للاغتصاب أو العلاقات غير الشرعية ، وفى عام ١٩٦٠ لم تكن الصورة كما هى اليوم ولم تكن لتخطر على بال مفكرى ذلك الوقت .

واليوم وبعد ظهور المسيح بعشرين قرن تقوم النساء بإجهاض أنفسهن ليتمتعن بإجازتهن أو بقوام رشيق ، والحق أن البابوات ليسوا وحدهم المعتقدين أن ذلك يمثل فضيحة القرن.

وبالأمس كان الإجهاض جريمة فاذا به اليوم حق مكتسب تحميه القوانين وتقره التشريعات، وبدلاً من أن يتم الإجهاض سراً وتخجل منه النساء أصبحت الفئة التى تقوم بالإجهاض خادمة للإنسانية على أساس أنها تساهم فى حل مشكلة الانفجار السكانى أوقلة عدد المعوقين أو توفير فرصة عمل لشخص آخر ....الخ. باختصار أصبح الإجهاض بمثابة تضحية تستحق صاحبته مكافأة وليس عقاباً.

وكثير من العامة اليوم لاتعجبهم فكرة الإجهاض إذ يعتبرون مجئ الطفل هبة الهية، ومن ثم فإن مجيئه ليس سببا للمشاكل والكوارث كما لايحل بعدم مجئيه للدنيا كثيراً من الأزمات.

أما إرضاء غريزة الأمومة بإنجاب عدد من الأطفال فقد توارى خلف حسابات خاصة بمستوى المعيشة وصحة الأم، وتشير الإحصائيات إلى أنه يوجد ٢ مليون حالة إجهاض سنوياً فى أمريكا واليابان معاً وحولى ٨٠٠,٠٠٠ حالة فى ايطاليا وتقدر حالات الإجهاض العالمية سنوياً بحوالى ٥٥ مليون حالة.

وغنى عن القول أن الإجهاض يعتبر إحدى وسائل تحديد النسل وله أنصاره من هذا المنطلق ، والأسوأ من ذلك أن تلك الأجنة يتم بيعها وشراؤها لأغراض طبية وصيدلانية ولايسع المرء إلا أن يتذكر أنه منذ وقت ليس ببعيد إستخدم النازيون جثث اليهود لتصنيع الصابون، وفى الوقت الذى يناشد فيه الأطباء النساء الحوامل بالإقلاع عن التدخين وشرب الخمور وتعاطى المخدرات حفاظاً على حياتهن وحياة أجنتهن فإن القوانين تعطيهن الحق فى تدمير تلك الأجنة التى لاحول لها ولاقوة.

وللأسف فإن عمليات الإجهاض أدت الى كثير من الممارسات الخاطئة التى لايمكن التحكم فيها بسبب حق الإجهاض ففى كثير من الأحيان مثلاً يفاجأ الطبيب بعد العملية أن الجنين فى مرحلة متقدمة عما أظهرة التشخيص الأولى وأنه طفل كامل حى، ولكن الطبيب يلقى به جانباً على أنه جنين ميت أو غير مكتمل لأن العملية والمريضة أو (الأم) تطلبت ذلك، وبالطبع ليس هناك ضوابط سوى ضمير الطبيب الذى لاتوجد رقابة عليه. والمثير للسخرية أن من يقوم بضرب طفل أو إيذائه فى العالم الغربى يعاقب ويزج به فى السجن أما من يقوم بقتلهم بحجة الإجهاض فإنه ينال ألقاباً و مراتباً عالمية وعلمية ويشار اليه بالبنان ، ولتبرير مثل تلك الفعلة الشنعاء لايطلق على الإجهاض أى ألقاب تتصل بالقتل أو الموت أو ما إلى ذلك إنما يتم التعامل معه على أنه تخلص من ورم أو جزء زائد فى الجسم كالزائدة الدودية مثلاً....

ولكن العلم الحديث يتصدى لنظرية أن الجنين جزء من جسد الأم، فالجنين مستقل له صفاته وتركيبته التى ينفرد بها وتستمر معه بعد الولادة وطوال حياته دون تغيير بل يحدث لها تطور فقط، وعلى ذلك فالذى تحمله المرأة هو إنسان كامل صغير الحجم فى طور النمو، وليس نسيجاً لاحياة فيه، وهو ليس مشروع إنسان، بل إنسان بالفعل. وعلى ذلك فالإجهاض ليس إلا قتلاً لنفس بريئة لامبرر له على الإطلاق.

وعلى ذلك فالعلم لايقف فى صف مؤيدى الإجهاض كما أظهرنا سابقاً بل يقف ضدهم لأنه ببساطة يقول: ان الإنسان لايبدأ من أول نفس فى الولادة ولكن منذ لحظة تكوينه فى رحم الأم.

تعديلات في القانون

لاتأخذ القوانين الحالية بما قلناه سابقاً بدليل زيادة عدد التشريعات التى تبيح الإجهاض فى العالم أجمع، فانجلترا مثلاً أصدرت قانونها الذى يبيح الإجهاض عام ١٩٦٧ بشرط أن يكون استمرار الحمل فيه خطر على صحة الحامل البدنية والنفسية أو أن الطفل القادم به عيب خلقى أو عقلى سيلازمه مدى الحياة.

وقد لاقى هذا القانون ترحيبا واسع النطاق لأنه قنن عمليات الإجهاض التى كانت تتم بالقانون أو بدونه والتى كانت تؤدى إلى نسبة وفيات مرتفعة بسبب إتمامها فى عيادات ولدى أطباء غير مرخصين.

كما أن المحكمة العليا الأمريكية لم تأخذ بالرأى العلمى السابق أيضاً عندما أباحت الإجهاض مستندة إلى أن الحياة الإنسانية لاتبدأ فى الجنين أو النسيج المكون للانسان إلابعد الولادة وذلك فى٢٢ يناير ١٩٧٣

وقد أدت هذه الروح الليبرالية الى تخوف الفاتيكان على مستقبل الكاثوليكية فى دولها وإلى دهشة الدول الشيوعية أن تصدر مثل تلك القوانين فى بلاد مسيحية.

وفى عام ١٩٦٩ (أى قبل صدور قانون الإجهاض) أظهر استطلاع للرأى أجراه معهد هاريس لصالح مجلة تايم أن ٦٠٪ من الامريكان الكاثوليك يؤمنون بحق أهل الطفل القادم والأطباء فى تحديد الإجهاض من عدمه، ومنذ ذلك الحين وبعد صدور قانون الإجهاض ارتفعت هذه النسبة الى ٨٠٪.

وهناك رأى قائل إن تعنت آباء الكنسية أدى إلى ترك الكاثوليك لمنطقة الرأى الوسط العاقلة وانحيازهم التام للاتجاه الآخر المضاد لرأى الكنيسة، وهو الموافقة على الاجهاض دون قيد أو شرط، مع أن منطقة الوسط هذه هى الأمل الوحيد للوصول الى حل يرضى الطرفين.

تفكير البابا يوحنا بولس

يعتقد كثير من الناس أن موقف البابا يوحنا بولس المناهض للإجهاض نابع من كونه بولندياً على الرغم من أن هذا الاعتقاد خاطئ حيث إن بولندا الكاثوليكية ليست

من الدول التى تنخفض فيها نسبة الإجهاض بل العكس هو الصحيح، ففى عام ١٩٦٢ مثلاً كانت نسبة الإجهاض فى بولندا أعلى منها فى أميركا ، بل كانت أعلى مما هى عليه اليوم فى أميركا !!

فهناك ٢٠٠٠٠٠ حالة إجهاض مقيدة في سجلات رسمية بين شعب تعداده ثلاثون مليونا ، كما كان هناك مشروع تنظيم أسرة منظماً تنظيماً دقيقاً وممولاً تمويلاً جيداً يأخذ به الكاثوليك أيضاً فى بولندا. ونتيجة استخدام وسائل منع الحمل هبطت نسبة الإجهاض بشكل ملحوظ بحيث أصبحت ١٢١٧٠٠ حالة فقط عام ١٩٦٨ ومع ذلك بقيت نسبة الإجهاض عالية بالقياس لنسبة المواليد.

وعلى ذلك فاقتناع البابا يوحنا بولس بعدم الإجهاض ليس نابعاً من تعرضه لصدمة الانتقال من بولندا المحافظة الى إيطاليا المفتوحة ولكنها قناعته الشخصية وهو عادة يبررها بالآتى :-

١ - أن الجنين الذى لم يولد بعد هو إنسان .

٢ - أنه إنسان منذ لحظة إخصابه .

٣ - وعلى هذا فله نفس الحقوق المكفولة لأى إنسان آخر (والدته مثلاً) أو الأطفال الذين جاءوا للدنيا فعلاً .

٤ - التخلص من ذلك الجنين هو جريمة قتل بالتأكيد.

وحتى إن كان له الحق فى كل النقاط التى يثيرها فالسؤال

هو : إلى أى مدى تسانده التعاليم الكاثوليكية؟

والاجابة : لاتسانده على الإطلاق فكل مقولة من مقولاته جديدة تماماً وغير معروفة تاريخياً فى الكنيسة وذلك يقتضى أن نفحص مبرراته واحداً واحداً بدقة متناهية.

متى تبث الروح في الجسد ؟

يؤمن كثير من الكاثوليك أن الروح تبث فى الجسد لحظة الإخصاب كما يعتقدون

أن اعتقادهم هذا له أساس ديني ولكن هذا ليس صحيحاً.

فلمدة أربعة عشر قرناً – حتى آواخر القرن التاسع عشر – كان الاعتقاد السائد بين الكاثوليك – العامة والباباوات– أن الروح لاتبث في الجسد وقت الإخصاب ، وعلى ذلك فإن تحريم الكنيسة للإجهاض لم يكن على أساس أن الجنين إنسان كامل ، إذ كانت تعتقد– كما أوضحنا سابقاً – أن الروح لم تبث فيه بعد.

وكان الإعتقاد السائد أن تطور الإنسان يكون من تكوين نسيجى من لحم ودم إلى المرحلة الحيوانية ثم يضاف إليها العقل فتصل إلى المرحلة الإنسانية ولذلك قال جراتيان « الإجهاض في مرحلة ما قبل بث الروح لا يعتبر قتلاً» وكان يعتقد أن الروح تبث في الذكر بعد أربعين يوماً من الإخصاب وفى الأنثى بعد ثمانين يوماً.

ثم ظهرت نظرية جديدة فى القرن الخامس عشر مؤداها أن التخلص من الجنين فى حالة تعرض الأم لأخطار صحية مثلاً فيه حفاظ على حياة إنسانية مقابل حياة ستصبح إنسانية مستقبلاً ، وعلى ذلك وافق كثير من علماء الدين فى ذلك الوقت على أن التخلص من الجنين جائز فى حالات الأضرار الصحية للأم وإن كان الحمل نتاج إغتصاب أو علاقة غير شرعية أو إنتهاك للعلاقة الزوجية .... إلخ وذلك قبل أن تبث فيه الروح .

ثم تطورت النظرية فأصبحت تبيح التخلص من الجنين حتى بعد بث الروح فيه وذلك وزنا لأهمية كل من الأم والجنين، فحياة هذا الجنين الذى بثت فيه الروح لاقيمة لها إذا ما قورنت بحياة الأم وعلى ذلك.فجائز التخلص منه انقاذا لحياتها الأكثر أهمية، وتردد الكثيرون عند هذا الحل وانتهوا إلى أن القتل غير العمد للجنين عن طريق تعاطى الأم الأدوية لعلاجها مما يفضى إلى موت الجنين جائز لأنه لن تكون هناك نية مبيتة لقتله وإنما جاء هذا الموت كأثر جانبى من آثار الدواء المعطى لإنقاذ الأم.

ومن هذا الكم من النظريات تفاوتت آراء آباء الكنيسة أيضا : فكان رأى البابا جريجورى الثالث عشر (١٥٧٢_١٥٨٥) أن التخلص من جنين لم يبلغ الأربعين لايعتبر قتلا ، وحتى بعد أربعين يوما يعتبر أقل درجة من قتل إنسان مولود لأنه غير

مبن على كراهية وانتقام .

أما رأى سيكستوس الخامس فكان على عكسه تماما فقد رأى أن كل تخلص من جنين هو جريمة قتل بالتأكيد لا تبرير لها ولا كفارة ، ويحكم على مقترفها بتهمة الردة عن الدين .

ثم جاء بعده البابا جريجورى الرابع عشر الذى أعلن بكل صراحة أنه يجب معاملة آراء سيكستوس الخامس كأن لم تكن .

وفى عام ١٦٢١ أعلن الطبيب الرومانى باولوا زاكيا أنه لا يوجد أى أساس طبى لرأى أرسطو القائل إن بث الروح يتم بعد الإخصاب بفترة وفى القرن الثامن عشر نفى أحد كبار علماء الدين الكاثوليك وهو القديس الفونس ليجورى أن الروح تبث فى الجسد ساعة الإخصاب. واتفق مع رأى زميلة توماس الأكوينى أنه يجب أن تكون هناك مرونة بشأن السماح بالإجهاض خاصة إذا تعرضت حياة الأم للخطر .

أما بعد عام ١٧٥٠ فقد اختفت هذه المرونة ولأول مرة منذ مئات السنين ترتد الكنيسة لآراء آباء الكنيسة الجامدة التى لا تتسم بالمرونة.

موقف روما يزداد تصلبا

لم تكن آراء بيوس الحادى عشر صدى للتراث المسيحى بل ضده ، عندما صرح عام ١٨٦٩م أن الإضرار بالجنين يعتبر إجهاضا يستحق عقوبة الخروج من الدين . وبمعنى أوضح فقد اتخذ موقف سابقة سيكستوس الخامس الذى ضحده خليفته جريجورى الرابع عشر على الفور . وقد بنى بيوس رأيه على أساسين :

أولا : أن بث الروح يتم عند الإخصاب .

ثانيا : أن قيمة الجنين والأم واحدة .

ولا يمكن إطلاق صفة « تقليدى » على أى من هذين الأساسين، فالواقع أن معظم رجال الدين المعاصرين للبابا بيوس اختلفوا معه فى النقطة الأولى ، وأدى هذا بدوره إلى اختلاف آرائهم معه حول النقطة الثانية ؛ لأنه ليس من الممكن أن تتساوى قيمة الجنين والأم إذا كانت الروح لا تبث فيه إلا بعد الإخصاب بفترة .

وفى العام التالى أقر المجلس الفاتيكانى مبدأ عصمة البابا من الخطأ وتأثر علماء الدين الرومان الكاثوليك بنظرية زاكيا أن بث الروح يتم عند الإخصاب مباشرة وقواها نظرية الحمل الطاهر بالسيدة مريم .

ونتيجة لهذه النظريات حرمت الكنيسة الإجهاض تحت أى ظرف ، وزاد البابا ليو الثالث عشر من تطرف هذه النظرية عندما لم يبح الإجهاض حتى لو تعرضت الأم لموت محقق . وفى بعض الأحيان عرضت عليه حالات فيها موت الأم والطفل معا أكيد فى حالة استمرار الحمل فلم يسمح بالإجهاض أيضا !!

وظهر مبدأ « ما حققته الطبيعة لا يمحوه إنسان » فحرمت أيضا التخلص من أى حمل فى وضع غير صحيح مثلا ، وتساءل المعارضون : هل معنى ذلك عدم تعاطى أى دواء ضد أى مرض ؟!

وظهرت تفسيرات جديدة للإنجيل تعضد عدم إباحة الإجهاض . فقيل مثلا إن وصية « لا تقتل » تنصب على الجنين أيضا الذى يعتبر إجهاضه نوعا من القتل الذى حرم صراحة بالأمر المشار إليه آنفا .

وعند هذا الحد رفض بعض رجال الدين المشاركة فى ذلك الرأى ، وأدى ذلك إلى تراجع الكنيسة عن جمود رأيها نسبيا حيث قررت فى عام ١٩٥١ أن « القتل غير المباشر » مسموح به في بعض الحالات القصوى . ويقصد بالقتل غير المباشر إزالة الرحم أو المبيض الذى يعيش فيه الجنين لأسباب طبية .

وتبعا لذلك ظهرت نتائج غريبة : فإذا تم الإجهاض لعلاج مرض فى الرحم مثلا فهو ذنب كبير ، أما الموقف الصحيح فهو استئصال الرحم مع الجنين فيصبح ذلك قتلا غير مباشر تسمح به الكنيسة !! بغض النظر عن عدم إمكانية الحمل مرة أخرى !! واستمراراً فى تعنتها رفضت الكنيسة إجراء إجهاض لطفلة فى الثانية عشرة من عمرها اغتصبها والدها وحملت منه !! فالكنيسة لم تجد مبررا للإجهاض فى مثل تلك الحالة!!

كانت النتيجة الطبيعية لتعنت الكنيسة ظهور التطرف فى الناحية الأخرى أى الإباحية والمطالبة بإباحة الإجهاض تحت أى ظرف واعتباره شأنا شخصيا يخص

صاحبته وحدها . واليوم يخير الكاثوليك الكنيسة بين إباحة وسائل منع الحمل أو إباحة الإجهاض . أما منع كليهما فكانت نتيجته ابتعاد الكاثوليك عن آراء الكنيسة فى هذا الشأن وبذلك لم تنجح الكنيسة فى أهدافها المرجوة.

موقف البابا يوحنا بولس

حتى المعجبون بالبابا يوحنا بولس يختلفون معه فى الرأى بخصوص معارضته للإجهاض واستخدام وسائل منع الحمل بنفس القدر وعلى قدم المساواة . وهو وإن كان له مؤيدوه فى تحريم الإجهاض فإن مؤيديه فى تحريم استخدام وسائل منع الحمل أقل بكثير . وحتى مؤيدوه بشأن الإجهاض عددهم آخذ فى التدهور لاسيما بعد قرار تحريم إجهاض أجنة الإغتصاب، وكذلك فى حالة التأكد من إعاقة الطفل القادم . ويتساءل كثير من الكاثوليك : أين الخطأ فى تفكير البابا؟ الخطأ الأساسى فى تفكير يوحنا بولس هو اعتقاده أن الحمل والإجهاض أو عدمه مسألة بيولوجية بحتة وهى ليست كذلك ، فهناك الإحساس بمسئولية وتربية ذلك الطفل القادم مثلا وغيرها من الاعتبارات التى لا يأخذ بها البابا.

وخطؤه الثانى هو مساواته بين البويضة المخصبة والإنسان الكامل (الأم على سبيل المثال) وإعطاء تلك البويضة نفس الحقوق المكفولة لأى إنسان حتى حق الحياة والمساواة بين قيمتها وقيمة حياة الأم . ويبرر البابا تفكيره هذا بأن حق الحياة هو أول حقوق الإنسان ولا يتقدم عليه أى حق آخر مثل حق الأم فى الحفاظ على صحتها مثلا .

ولكننا نقول له إن العدل فوق حق الحياة وإن حق الحياة وإن كان قيمة عالية إلا أنه لا يجب أن يجور على الحقوق الأخرى مثل الحق فى الصحة والسعادة .. إلخ .

ويجب ألا ننسى أن كثيرا من الأمور يجب أن تقيم فى إطار الظروف المحيطة بها وبالنسبة لغيرها من القيم وليس كقيمة فى حد ذاتها فقط .

هل يجب اعتبار الإجهاض جريمة يعاقب عليها

حتى المؤيدون لرأى البابا ، أن الإباحية سمة مجتمع اليوم ، يرون أنه لا يجب

اعتبار كل إجهاض جريمة ، ورأيهم أن تجريم الإجهاض لا يؤدى إلى الهدف المنشود وهو منعه ، بل يؤدى إلى سريته وبالتالى إلى عديد من الوفيات الناتجة عن إجراء هذه العمليات فى أماكن غير مرخص لها بالقيام بمثل هذه العمليات بها. واتفاقا مع الحريات التى تنادى بها المجتمعات الحديثة فإن حرية الاحتفاظ بالجنين من عدمه تعتبر إحدى تلك الحريات التى لا يمكن حرمان النساء منها اليوم ، وبخاصة بعد جو الحريات العام الذى نعيش فيه .

والمسيح كان دائما منحازا للأقليات والضعفاء كاليتامى والأرامل والمطلقات وأصحاب المشاكل عامة والذين ينظر إليهم المجتمع كأشرار ويعتبرهم خارجين عليه . أما الكنيسة اليوم فإنها تجعل من أصحاب المشاكل مجرمين لا ضحايا ولا تنحاز لصفهم بل ضدهم ، فهؤلاء النساء اللائى قمن بإجهاض أنفسهن هن أصحاب مشكلة ـ ليس فى جميع الأحوال ولكن فى معظمها ـ وعلى الكنيسة أن تحتضن هذه الفئة وتتفهم مشاكلها حتى يعيش الكاثوليك فى ظل الكنيسة .

الخـــاتمـــــة

حتى يمكن إطلاق نعت « كاثوليكية » على أى تعاليم يجب أن يكون منشئوها « جماعة المؤمنين » ويجب أن تعكس التعاليم آراءهم، فقبل ظهور استطلاعات الرأى كان بإمكان الفاتيكان أن يدعى أن مخالفيه فى فكرة هم الأقلية ، واليوم تظهر استطلاعات الرأى ليس فقط وقوف الأقلية بجانب البابا، بل أيضا تدهور أعدادها بصفة مستمرة .

ولكن ما هى أسباب وقوف أغلبية الكاثوليك ضد آراء البابا اليوم ؟

السببَ الأول والرئيسى هو البابوية ذاتها أو الطريقة التى يمارس بها الباباوات منذ عهد جريجورى السابع وبيوس الرابع دورهم كما يرونه هم وبسبب مبدأ « عصمة البابا من الخطأ » .

فهم يحسبون أن من واجبهم وحدهم حل مشاكل الكاثوليك المعاصرين العديدة والتى ربما لا يعيشونها هم مثل مسائل استخدام وسائل منع الحمل والإجهاض وبذلك تخرج آراؤهمَ مخالفة لآراء غالبية من ينتظرون صدور أحكامهم .

ويجب على الكاثوليك أن يأخذوا ما تصدره الكنيسة من أحكام بترو وحذر .. فهذه الكنيسة هى التى اعتبرت مطاردة اليهود جهادا مقدسا وواجبا حتميا، وهى التى صادرت أبسط حقوق الإنسان فى عهد محاكم التفتيش، وهى التى أعادت وسائل التعذيب كطريقة من طرق انتزاع الاعترافات من المتهمين أثناء التحقيقات، وهى التى صادرت حرية الأديان والصحافة والرأى.

ومنذ المجلس الفاتيكانى الأول يتضح أن الكنيسة لا تنشر تعاليم خطبة الجبل وإنما قوانين الطبيعة أو يشرحون خطبة الجبل فى ضوء قوانين الطبيعة حسبما يرونهاهم ، وقوانين الطبيعة هذه ثابتة فى أمور غير مستقرة بطبيعتها، لأنها اجتماعية تتبدل بتغيير المجتمعات مثل النظرة لاستخدام وسائل منع الحمل أو الإجهاض .

واستخدام حقائق الطبيعة الثابتة كأساس للأخلاق يجعل رأى البابا هو الوحيد لأنه المستند إلى تلك الحقائق أما الفرد الواحد فلا رأى له بل لا حق له فى تكوين رأى شخصى به .

والسؤال هو : هل فهم رجال الكنيسة خطبة الجبل على وجهها الصحيح؟ وهل يمكن أن تتفق مفاهيمهم الخاصة بالزواج والطلاق اليوم مع المفاهيم العامة للمسيحية التى تدعو للمحبة والتفاهم والسلام ؟ وهل اقتصار دور الكنيسة على إصدار تعاليم وأحكام تجعل رعاياها يفرون من قسوتها يتفق ومفهوم المسيح للكنيسة التى تضم المسيحيين تحت جناحها وتعتبر ملاذهم من مشاكلهم ؟

والحق أن بابوات روما إن كانوا فعلا يستحقون لقب «خلفاء المسيح» فيجب أن يتبعوا خطاه دون زيادة أو نقص، ويعاقب البابوات كل من يخرج على تعاليمهم بالخروج من الكنيسة وبذلك يمنع اتصاله بالمسيح وهذا ليس من حقهم ، فالاتصال بالمسيح ليس مكافأة على حسن السير والسلوك وإنما هو حق مكفول لكل مسيحى ، أما شرود هذا المسيحى عن الطريق فعقابه عند الله، ومنع اتصاله بالمسيح يقرره هو وليس الكنيسة . وبينما ترى الكنيسة أن انتشار الإباحية وشرود المسيحيين عن طريق الكنيسة هو المشكلة نرى نحن أن المشكلة تكمن فى رجال الكنيسة أنفسهم الذين يدعون لأنفسهم المقدرة على كل مشكلة بينما هم غير مؤهلين لذلك .!!

الفصل العشرون

عُـزاب غير ملتزمين بلا حياء

كانت صورة البابا دائما أنه المضحى بالسعادة الزوجية والهناء العائلى مقابل تفرغه لخدمة رعايا الكنيسة وبذلك يكون بطلا يضحى بسعادته الشخصية من أجل الآخرين. وكان زواج رجال الدين الكاثوليك ممنوعا وقتها دون أى استثناء. ولكن منذ الستينات من هذا القرن خفف البابا بولس السادس من تشدد الكنيسة فى هذا المجال فأصبحت هناك بعض الاستثناءات التى تبيح زواج رجال الدين الكاثوليك.

عباءة القس وتاج الأشراف

يمثل كتاب «البحث عن وريث» نموذجا لموقف الكنيسة من زواج رجال الدين الكاثوليك، فهو يحكى قصة رجل دين كاثوليكى ايرلندى حرم من شرط الكمال الجسمانى بفقده إحدى عينيه ورغم ذلك دخل سلك رجال الدين، ثم ورث ثروة ولقبا عن أحد أقاربه وأراد أن يتزوج لإيجاد وريث للثروة واللقب، واعتبر ذلك واجبا عليه.

ووقع اختياره على إحدى قريباته البروتستانتيات صغيرات السن ليضمن وريثا له. وأتم زواجه فى كنيسة بروتستانتية معتقدا أن مسألة موافقة الكنيسة الكاثوليكية مسألة وقتية فقط لذا كانت دهشته كبيرة حين لم توافق الكنيسة على زواجه لأنه تم خارج الكنيسة الكاثوليكية، هذا بجانب العار الذى جلبه على الكنيسة لكونه أول رجل دين كاثوليكى يقوم بمثل هذا الفعل الشائن.

وهنا خيرته الكنيسة بين الانفصال عن زوجته أو الخروج من الدين فاختار - آسفا- الاستمرار مع زوجته لأنها كانت تحمل طفلة وكان هو سعيدا بذلك رغم كل شيء.

إلا أن الطفلة ولدت مريضة ولم تعش سوى ساعة واحدة، ولم يقدر له أن يكون له أطفال غيرها. وكان فى تلك الأثناء بخروجه على المذهب الكاثوليكى قد اعتنق المذهب البروتستانتى.

لكن مع اقترابه من الستين دون نوال شيء من أحلامه كتب خطابا للبابا يستسمحه فيه ويطلب منه العودة لمذهبه الأصلى. فبعث اليه البابا عند مماته أحد الأساقفة الكاثوليك غفر له ذنوبه ومنحه البركات. ولكن فى الثلاثينات تم اكتشاف جثته موجهة ناحية الغرب وليس ناحية الشرق علامة على عدم غفران الكنيسة التام له. ورغم ذلك تقبلت الكنيسة وصيته التى ترك فيها جزءا من ضيعته بقصرها قامت عليها كلية لاهوتية هى كلية «ماينووث الكاثوليكية»

لمحـــة رحمـــة

منذ عام ١٩٦٦أظهر البابا بولس السادس تفهمه لزواج بعض رجال الدين، فرغم أنه كان يرمز لهم بيهوذا الجديد ، إلا أن البابا كان يعلم أن الأمر لم يكن كذلك فى جميع الحالات. فبعض رجال الكنيسة كان قد أدخل فى سلكها منذ طفولته وصباه دون أن يقرر ذلك لنفسه وخاصة قرار الحرمان من مباهج الدنيا التى لم يكن يعرف عنها شيئا فى تلك المرحلة من العمر.

لذلك لجأ كثير من رجال الدين للخمر كمحاولة للهروب من إحساسهم الفظيع بالوحدة ولم يكن ذلك ليرضى البابا فكان يسمح لهم بالزواج فى أبراشيات بعيدة عن مناطق نفوذهم تجنباً للقيل والقال ، ولكنهم بعد ذلك كانوا محرومين من إقامة الصلوات والاحتفالات وتوزيع البركات...الخ ورغم ذلك لم ينقم هؤلاء على الكنيسة بل زاد ارتباطهم بها لتفهمها لمشاكلهم.

وبسبب إظهاره لهذا الاستعداد لزواج رجال الدين انهالت عليه طلباتهم بالمئات والآلاف لاحلالهم من مسئولياتهم للزواج بمن اختاروهم. وكانت إستجابة البابا

سريعة فقد وافق في بعض الأحيان على طلبات خلال شهر واحد من تقديمها.

بعد حقبة بولس السادس وإعتلاء البابا يوحنا بولس عرش الفاتيكان تغير الحال من الضد للضد ، فالبابا الجديد لم يتراجع عما أعلنه سابقه ولكنه أبطأ الإجراءات بشكل كبير، فقد كانت صورة رجل الدين عنده هى الصورة الكلاسيكية للمضحى بمتع الدنيا فى سبيل إسعاد الآخرين وخدمة الرب كما أنه رجل المبادئ الإنسانية الثابتة التى لاتتغير مع مرور الزمن وهذا من وجهة نظر البابا دليل ثبات الكنيسة، وكانت تضحيتهم بالزواج تقربهم من تضحية المسيح فى سبيل الآخرين.

وعلى عكس ذلك يعتقد كثير من المؤرخين أن عزوبة رجال الدين كان لها أضرار أكثر من مزاياها ، بل وصل بعضهم الى الرأى بأن ضررها على الأخلاق كان أكثر من البغاء المقنن وقد اعترف البابا بولس السادس بذلك صراحة عام ١٩٦٧ .

والحق أن رجال الدين الذين طلبوا إعفاءهم من مناصبهم لعدم تمكنهم من الاستمرار فى العزوبة كانوا أقرب للحق والصراحة وأكثر فائدة للكنيسة من غيرهم الذين ادعوا الالتزام والحياء وأضروا الكنيسة أشد الضرر حينما انكشف أمرهم وتناولت الأقلام حقيقة إنحدار الأخلاق داخل الكنيسة من خلال عدة كتابات على مر العصور منها «تاريخ العزوبة المقدسة» ١٨٦٧ للى و«المدخل» للأخوين تاينر (١٧٢٨ ثم أعيد طبعه ١٨٤٥)

والادعاء أن العزوبة تم خرقها أكثر من الالتزام بها فى الكنيسة قول صحيح يعضده تاريخ البابوات. بنديكت الخامس وسرجيوس الثالث ويوحنا العاشر والثانى عشر وبندبكت السابع والتاسع وكليمنس الخامس والسادس ويوحنا الثالث والعشرون وسيكستوس الرابع وبيوس الثانى واينوسنس الثامن والكسندر السادس ويوليوس الثانى وبولس الثالث ويوليوس الثالث وجريجورى الثالث عشر والخامس عشر وأوربان الثامن ،أينوسنس العاشر والكسندر السابع. واذا كان هؤلاء الباباوات هم قدوة رجال الكنيسة فقد انتشر التساؤل القائل. لماذا اكون اكثر بابوية (التزاماً) من البابا نفسه؟!

قصة تحذير (عظة وعبرة)

يجب على الأعزب التضحية باشباع أقوى غرائزه ، وحقوقه الطبيعية وهى الزواج

وإنجاب أبناء من صلبه وأكثر الأشخاص تفهماً لذلك كان الدبلوماسى بيكولومينى الذى أنجب ابنين دون زواج وكتب بذلك الى والده فرحاً ومعاتباً إياه على قلة إكترائه بالخبر معدداً مزايا الأطفال وفرحته بهم وبموت ولديه الإثنين إتجه هذا الدبلوماسى للكنيسة وبعدها بخمسة عشر عاماً أصبح البابا بيوس الثانى.

أقدم تقاليد المنصب

حاول علماء الدين التدليل على أن عزوبة رجال الدين مصدرها الإنجيل والكنيسة القديمة، ولكن بلا طائل. فبالنسبة للكنيسة القديمة فإن الأناجيل الأولى تورد لنا الحدث التالى الذى لاشك فيه وهو أن يسوع المسيح قد اختار بطرس كأقرب حوارييه وكان رجلاً متزوجاً. وجدير بالذكر أن بطرس يطلق عليه لقب البابا الأول وكان هناك حواريون غير متزوجين فاذا أراد المسيح وضع قاعدة عزوبة رجال الدين لاختار أحدهم بدلاً من بطرس المتزوج كما أن بولس أيضاً كان متزوجاً. ورغم أن الذين يحرمون أنفسهم متعة الزواج كان لهم شأن أعلى في المسيحية إلا أن مقولة وجوب العزوبة بالنسبة لرجال الدين ليس لها أى أساس دينى أو تاريخى كمالم توجد أبداً صلة سببية أو من أى نوع آخر بين عزوبة رجال الدين ومنصبهم.

أما أساس عزوبة رجال الدين فبدأ منذ آواخر القرن الثالث وبدايات القرن الرابع الميلادى والمبدأ الأساسى الذى نهضت عليه هو إبقاء الوضع على ما هو عليه بمعنى أنه اذا دخل شخص ما سلك رجال الدين وهو متزوج فليحتفظ بزوجته ، واذا دخله وهو أعزب فيبقى كما هو دون زواج.

وكالعادة كانت الكنيسة الغربية هى التى حادت عن الطريق والسؤال هو ماذا كان وراء الموقف الأكثر تشدداً من قبل الكنيسة؟

التحول نحو موقف أكثر تشدداً !!

بسبب موقف الكنيسة من الجنس حلت فضيلة الحياء والاحتشام محل فضيلة المحبة. بهذا أصبح الدين كئيباً، فمريدو الكنيسة ممنوعون من إشباع غرائزهم فى الدنيا وكذلك فى الآخرة، وصبرهم على الحرمان من المباهج فى الدنيا جزاؤه جنة بدون

تلك المباهج فى الآخرة. أما الزواج الثانى حتى بعد وفاة شريك الحياة الأول. فغنى عن الذكر أنه كان ينظر إليه بكثير من الشك الممزوج بالازدراء والسخرية، وأصبح كل من يتزوج مرتين غير مؤهل لمنصب القس أو الأسقف فى الكنيسة الكاثوليكية ونبع هذا أيضا من تفسير وفهم خاطئ لعذرية السيدة مريم وحيائها ونقائها وكل ذلك لم يكن له أى أساس فى الإنجيل أيضاً.

وزاد إحتقار الجنس والزواج لأن ميلاد المسيح لم يأت نتيجة زواج وإنما جاء نتيجة الإحتشام والحياء.

وبدأت فكرة وجوب عزوبة رجال الدين فى بعض المقاطعات الأسبانية كمقاطعة الفيرا ثم انتشرت حتى أضحت جزءاً من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية عامة . وأراد أسقف روما أن يحرم رجال الدين المتزوجين قبل الدخول فى سلك الكنيسة من الاتصال بزوجاتهم أو الإبقاء عليهن ، ولكن المجلس الكنسى لعام ١٣٢٥ لم يأخذ بهذا الرأى وقرر أن يبقى الوضع كما هو عليه كما شرحنا سابقاً. ووصل الأمر إلى حد اعتبار بركات رجال الدين المتزوجين أدنى درجة من رجال الدين غير المتزوجين كما تطور الأمر للأسوأ منذ بدايات القرن الرابع الميلادى بحيث أصبحت العزوبة التى لا تقترن بالحياء والالتزام أفضل من الزواج. وأدى تدنى درجة رجال الدين المتزوجين الى هجران بعضهم لزوجاتهم مثل داماسوس الذى انتخب لمنصب البابا عام ٣٦٦ وهادريان الثانى الذى انتخب عام ٨٦٧ لنفس المنصب.

وأصبح رجال الدين غير المتزوجين رسمياً مثلاً يحتذى به بين رجال الدين، وواقعياً كانوا يعيثون فى الأرض فساداً ويتلاعبون بأعراض الناس دون أن يمسهم أى سوء لأن الكنيسة حددت عدم الزواج كمعيار للأخلاق وليس الامتناع عن الجنس وتم تطبيق ذلك حرفياً.

ومما يدل على تخبط أحوال الكنيسة فى ذلك الوقت أن البابوات كانوا يورثون مناصبهم لابنائهم غير الشرعيين لأنهم لم يأتوا عن طريق الزواج الذى لاتبيحه الكنيسة وإنما عن طريق علاقات خارج إطار الزواج لم تحرمها – أى العلاقات – الكنيسة فعلياً وأثبت الواقع العملى أن على رجال الدين الاختيار بين مستقبلهم فى

الكنيسة والزواج وكان الاختيار الثالث وهو مرافقة الخليلات والعشيقات والعجيب فى الأمر أن جميع زيجات رجال الدين لاتعتبر لاغية حسب الشريعة المسيحية ولكنها ضد تقاليد الكنيسة القائلة بوجوب العزوبة بالنسبة لرجال الدين، أما الحل الأعجب الذى قدمته الكنيسة فى القرن الخامس الميلادى هو عدم تحريم زواج رجال الدين ولكن تحريم معاشرتهم لزوجاتهم مما جعل الزواج شكلياً كما أنه كان يمثل ظلماً صارخاً لزوجات رجال الدين على وجه الخصوص وأدى هذا الكم من التضارب الى أن أصبحت كلمة «رجال الدين» خلال القرن الخامس الميلادى مرادفاً لكل ما هو شاذ عجيب !! .

واحتفظت الكنيسة الشرقية خلال تلك الأثناء بتقاليدها الخاصة بحق رجال الدين فى الاحتفاظ بزوجاتهم إن كانوا متزوجين قبل دخولهم سلك الكنيسة ولكنهم لم يستطعيوا على مدى التاريخ التحكم فى زواج رجال الدين بعد دخولهم الكنيسة...وكانت تلك مشكلتهم الخاصة.

مهزلة العزوبة

قرر المجلس الكنسى المنعقد فى مدينة تور عام ٥٦٧ معاقبة كل رجل دين يثبت أنه على اتصال جنسى بزوجته بالخروج من الدين لمدة عام والخروج من سلك رجال الدين والانضمام للعامة. لكن الحقيقة أن زوجات رجال الدين هن اللاتى كن يعاقبن بالجلد مائة جلدة إذا ثبت اتصالهن بأزواجهن أما أزواجهن «رجال الدين» فلم يستطع أحد الاقتراب منهم، وحتى البابا جريجو رى الكبير الذى عقد نية صادقة على تطهير الكنيسة يئس من محاولة الإصلاح هذه لانه على حد قوله «لن يبقى رجل دين واحد لإقامة الصلوات»

ووصل البعض الى حد القول أن المذهب الكاثوليكى معرض للاندثار اذا تم ملاحقة رجال الكنيسة غير الملتزمين ! ودعا هذا القدر من عدم الإلتزام الى بروز السؤال الآتى . هل يلقى باللوم على رجال الكنيسة أنفسهم أم على النظام الذى لايراعى إنسانيتهم ومتطلبات حياتهم؟

وإزداد الفساد فى الكنيسة وبين رجالها لدرجة أن البابا أصبح يستجدى الالتزام

والاحتشام من القساوسة الذين لم يرتدعوا بالعقاب ولا بالحسنى، واستمر تمسك الكنيسة برأيها القائل إن زواج رجل الدين ذنب أكبر من ممارسته الزنا ، وهذا يفسر لنا بعض القرارات الغريبة للبابا الكسندر الثانى، فهو مثلاً لم ينزل أى عقاب ولو ضعيفاً بقس مارس الزنا مع زوجة أبيه

وتبرير ذلك أنه لم يقترف ذنب الزواج ولم يعاقب كذلك قساً آخر مارس الزنا مع أمه لنفس السبب السابق!!

ورغم ذلك لم تحاول الكنيسة تعديل النظام القائم حتي يتلاءم مع الواقع العملى الأقرب لطبيعة الإنسان وحاجاته. وكان هدف الكنيسة الأول من القضاء على نظام زواج رجال الدين هو عدم توريث أبناء القساوسة أملاك الكنيسة وهو مالم تستطع العشيقات المطالبة به وعلى ذلك كان وجودهن لاغبار عليه، ولكن ذلك لم يتم فى الواقع بالطبع ، اذ كان يتم توريث معظم أملاك الكنيسة للأبناء والأقارب مما أفقد عزوبة رجال الدين مغزاها الأساسى ورغم ذلك وقف بعض الأساقفة ضد اتجاه الكنيسة ، ويذكرنا التاريخ منهم بأسقف مدينة باڤيا الإيطالية وأسقف مدينة ماينس الألمانية.

وكعادة الكنيسة الكاثوليكية فى اللجوء الى الحلول الخاطئة أصبحت الكنيسة تعاقب العامة الذين يلجأون لرجال الدين المتزوجين بدلاً من معاقبة رجال الدين وكمحاولة للحد من زواج رجال الدين كما وصل الأمر بالكنيسة عام ١٠٩٥ تحت قيادة أوربان الثانى أن تم بيع زوجات رجال الدين فى سوق النخاسة للتخلص منهن. وساءت سمعة الأديرة حتى صارت مرادفة لبيوت الدعارة، وكثير من الراهبات كن بمثابة عاهرات وكلما علا شأن رجل الدين كلما زاده مجونه وفجوره !!

تحول ذو عواقب وخيمة

بسبب عدم الالتزام بعزوبة رجال الدين يعتقد كثير من الكاثوليك حتى اليوم أن عزوبة رجال الدين فرضت خلال القرن الثانى عشر الميلادى فى حين أنها فرضت قبل ذلك بعدة قرون ولكن لم يتم الالتزام بها.

أما ما حدث خلال القرن الثانى عشر فكان اعتبار زيجات رجال الدين لاغية متحدياً بذلك تقاليد وأعراف تمتد لعدة قرون. ولكن هيهات أن يفيد ذلك مع موقف رجال

الدين أو يردع تصرفاتهم، فقد استمروا فى غيهم كسابق العهد فكرر المجلس الكنسى المنعقد عام ١١٣٩ التأكيد على نفس القرار ولكن ذلك لم يعنى إتفاق الآراء عليه . ففى روما ذاتها خرج جراتيان - أحد كبار علماء الدين- ليعلن أن رجل الدين بإمكانه الزواج مع ترك منصبه أما الزيجات السابقة فلا يستطيع أى قرار إلغاءها لأن الرب عقدها فلايستطيع بشر فسخها. ولكن القرار إستمر حتى اليوم رغم تلك الاعتراضات.

وقد استفحل الأمر حتى فكر البابا الكسندر الثالث (١١٥٩-١١٨١) فى تبنى نظرية الكنيسة الشرقية الخاصة بزواج رجال الدين ولكنه لم ينجح فى ذلك وسمح البابا يوحنا الثانى والعشرون للقساوسة بالاحتفاظ بعشيقاتهم مقابل دفع ضريبة عن ذلك !!

العزوبة فى الجزر البريطانية

لم يستطع البابا جريجورى فرض مبدأ عزوبة رجال الدين فى الجزر البريطانية. فقد كان رجال الدين هناك يعتبرون أن أبراشياتهم من أملاكهم الخاصة التى يورثونها لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم وفى هذا لم تختلف إنجلترا عن غيرها من البلدان الغربية المسيحية، وفى عهد أسقف كانتربرى لافرانك سمح للقساوسة بالاحتفاظ بزوجاتهم وشدد عليهم بعدم تكرار الزواج وحذرهم أن الترقى فى المناصب لن يتم بالنسبة للمتزوجين منهم وكان أنسلم خليفة لافرانك أكثر تشدداً وحزماً فى هذا المجال فقد طرد زوجات القساوسة من مقارهم وسمح لهم برؤيتهن فى الخارج، وبحضور شخص ثالث واعترض كثير من القساوسة على هذا القرار وأغلقوا كنائسهم وأضربوا عن العمل وعندما تم طردهم من الدين لم يأبهوا لذلك ونجح ضغطهم هذا بحيث سمح البابا باسكاليس الثانى بدخول أبنائهم فى سلك الكنيسة فقد كانوا المرشحين الوحيدين لها.

وعندما زاد تشدد الكنيسة إزاء وجوب عزوبيتهم لجأ رجال الدين الى العلاقات الآثمة مع من لايحلون لهم واتخذوا العشقيات معتبرين ذلك حقهم طالما صادرت الكنيسة حقهم فى الزواج المشروع.

وعندما سمع البابا هونوريوس الثانى بتدنى الأحوال فى الجزر البريطانية بعث بالكاردينال يوحنا اليهم لاصلاح أحوالهم وخطب الكاردينال فيهم خطبة عظيمة منددأ بهم ومذكراً إياهم بمسئولياتهم تجاه رعيتهم ولكن فى نفس الليلةاستطاع رجال الدين إثبات انه يفعل عكس ما يقوله حيث ضبطوه متلبسا مع امرأة جميلة فما كان منه إلا أن فر هارباً متجنباً الفضيحة والعار.

وعندما يئست الكنيسة من عدم إمكانية ردع رجال الدين عن الزواج من حوالى عام ١٢٥٠ فوجئت بأن نسبة رجال الدين المتزوجين فى تدهور مستمر ليس بسبب التزامهم وحيائهم ولكن بسبب عدم اكتفائهم بزوجة واحدة ورغبتهم فى العديد من الخليلات وهذا مالا يتيحه الزواج وعلى ذلك كف رجال الدين عن الزواج ولكنهم لم يكفوا عن مجونهم وفجورهم.

ووصل الأمر خلال القرن والنصف التالى الى أسوأ من ذلك إذ تم تخصيص بيوت دعارة لرجال الدين فى أبراشية القديس يوحنا بن زكريا وثار وجهاء ونبلاء مقاطعة كنت على رجال الكنيسة حتى أنهم طالبوا بتعقيمهم إجبارياً اتقاء لشرورهم!!

كما أبدى الملك هنرى السابع استعداده لحبس أى رجل دين يدان بتهمة عدم الحياء وعدم الالتزام وعدم الاحتشام ولكن بسبب استفحال الأمر وبعد أن طرد الملك هنرى من الدين صدر قرار انجليزى بالغاء جميع الأديرة لأنها كانت قد أصبحت أقرب للمواخير وبيوت الدعارة منها لبيوت العبادة، وورثت ابنتا الملك هنرى السابع «مارى واليزابيث» عزم والدهما على الالتزام بعزوبة رجال الدين ولكن اليزابيث اضطرت تحت وطأة استفحال الأمر الى السماح بزواج رجال الكنيسة «لضعفهم البشرى» كما عللت قرارها هذا ولكنها أمرت ألا يتلو الصلاة عند وفاتها أو يؤدى المراسم رجل دين متزوج!!

وكذلك كان الحال فى ايرلندا وكان القديس باتريك راضياً جداً بوجود زوجة واحدة وطفل واحد للأسقف و لم يجد أى غضاضة فى ذلك وبرر رأيه قائلاً أنه هو نفسه منحدر من أسرة دينية عريقة ولولا زواج رجال الدين هؤلاء لما وصلوا اليه !! واستمر السماح بزواج رجال الدين فى ايرلندا حتى القرن الثانى عشر الميلادى ويفخر

أهالى ويلز من ناحية أخرى بأن عزوبة رجال الدين لم تطبق أبداً فى بلادهم!! وكانت لهم تقاليد ثابتة فى خلافة الأبناء لآبائهم رجال الدين، أما منازلهم فقد كانت تسودها الأجواء العائلية الصاخبة بسبب الأطفال والأعمال المنزلية...الخ

ورغم انتقاد مؤرخى ذلك العصر لأسلوب الأيرلنديين ورجال الدين فى ويلز إلا أنهم تساءلوا عن جدوى مبدأ عزوبة رجال الدين ورد البعض أن رجال الدين يتزوجون الكنيسة وهذا يكفيهم . وردّ جيرارد دياكون مقاطعة بريسون من القرن التاسع عشربأن الكنيسة هى عروس المسيح وليس رجال الدين وعلى ذلك فهم ليسوا متزوجين وليس لهم حق الزواج كغيرهم من البشر.

أما فى اسكتلندا فكان عرف رجال الدين والملوك الاعتراف بأبنائهم غير الشرعيين وتسجيلهم فى سجل خاص بذلك ليضمنوا خلافتهم للكنيسة والعرش، وبين عامى ١٥٥٩,١٥٢٩ لم يخل السجل من اسم واحد من رجال الدين فى ذلك الوقت.

وهناك احصائية توضح أن من بين كل خمسة أبناء غير شرعيين أثنين من أبناء رجال الدين ويمكن أخذ مثال على ذلك الكاردينال دافيد ليتون الذى كان له أحد عشر ابناً وأربع بنات غير شرعيين إعترف بهم جميعاً.

وأطلق علية المصلح جون نوكس «لقب الكاردينال الحسى» كما يحكى عن نفس الكاردينال أنه قام بإحراق رجل لأنه تجرأ على التهام بيضة أثناء الصيام وجاء المذهب الكالفينى لينقذ اسكتلندا من هذا الفساد المستشرى.

فـــى أوربـــــا

فى فرنسا كان فجور رجال الدين قد وصل الى أقصى مداه حتى أنهم لم يلتزموا بالزى الدينى فى الكنيسة.

أما الأسقف هنرى من مدينة لييج ببلچيكا - الذى كان يعد أسطورة فى حياته وبعد مماته- فقد تم عزله عن منصبه عام ١٢٧٤ بسبب اعتدائه على الفتيات العذارى وأعماله المشينة الأخرى، كما كان له خمسة وستون طفلا كثير منهم من راهبات الأديرة، أما نهايته فكانت على يد فارس فلمنكى ثار على ما فعله الأسقف بابنته.

وفى المانيا ـ مهد الإصلاح الكنسى ـ تم تعيين بوش مفتشا على الكنائس والأديرة، فوجد كثيراً من القساوسة أميين يجهلون القراءة والكتابة ولايميزون بين الخير والشر وعندما حاول بوش فصل القساوسة عن خليلاتهم قال له أحد الفرسان «عندما سمع رجال الدين بنيتك بابعادهم عن رفيقاتهم هجروا الأبراشيات هربا معهن ويعيش الناس الآن فى تلك المناطق دون خدمات دينية أما الأطفال فلا يتلقون تعليما دينيا ويعيشون كالوثنيين لادين لهم، فأستحلفك باللة أن تتركهم وشأنهم مع خليلاتهم لأن ذلك أفضل من عدم وجود رجال الدين بيننا بالمرة»

وهكذا وقفت الكنيسة مرة أخرى أمام الاختيار الصعب رجال دين بلا أخلاق أو لا رجال دين على الاطلاق وكان انزعاج مارتن لوثر خلال فترة الإصلاح من اعتبار أن عزوبة رجال الدين هى رمز كمالهم مما يعنى بالتبعية أن الزواج دليل عدم الكمال وهو ما يناقض النصوص الدينية صراحة.

واعتبر أدوين شادويك ذلك أعظم إنجاز للبروتستانتية إذ كان معناه أن الجميع ينشدون الكمال وليس رجال الدين فقط. كما أن إضفاء صفة الشرعية على علاقات رجال الدين بالنساء كان معناه رفع درجة النساء الخليلات والعشقيات الى مرتبة الزوجات المحترمات. كما أن إضفاء صفة الشرعية على أطفال مثل هذه العلاقات كان معناه ايجاد أسر دينية واستقرار أحوالها.

أما أسبانيا فعاملتها الكنيسة على أن لها وضعاً خاصاً وذلك بسبب فترة الاضطرابات الداخلية ووجودها على حافة أوربا بعيداً عن القلب ومجرى الأحداث. وعلى ذلك لم تلزم الكنيسة رجالها هناك بالعزوبة حتى عام ١١٣٠ وكان زواج رجال الدين معترفا به هناك.

الكرسى غير المقدس

استنت الكنيسة قانون عزوبة رجال الدين ضد مبادئ الكنيسة الأولى والعدل الانسانى. ولكنها فى نفس الوقت كانت من أكثر المؤسسات خرقا للقوانين التى وضعتها هى ومن بينها هذا القانون ذاته. فسيطرة العاهرات خلال القرن العاشر والفساد التام للباباوات فى أثينيون كانت صورة مكررة خلال جميع حقب التاريخ المسيحى إذ

يعد سجل ذنوب غير متقطع بالمرة.!!

ونحن ندعى أن الخطأ لم يكن فقط خطأ رجال الدين غير الملتزمين بل خطأ الباباوات الأكثر التزاما والذين ادعوا عدم استطاعتهم ردع صغار رجال الدين عن أفعالهم تلك. فتركوا لهم الحبل على غاربه.

وكتب جيكار دينى عن إستشراء الفساد فى روما « مهما قلنا وكتبنا عن فساد رجال الدين فى روما فلن نوفيهم حقهم» وانتشر المثل الساخر القائل « أقرب طريق لجهنم أن تصبح رجل دين» وأيد هذا المثل البابا هادريان السادس.

وفى بداية إصلاح الكنيسة الذى بدأ من المانيا أصر البروتستانت على السماح بزواج رجال الدين ولم يكونوا بإزاء اقتراح جديد انما فقط إعادة تقنين عادة كنسية قديمة وكان دليلهم أن مبدأ عزوبة رجال الدين لم تظهر له نتيجة طيبة واحدة بل كان مسئولاً عن كافة الأخطاء والفساد المتفشى فى الكنيسة وقتها وأيدهم العامة فى ذلك وحاولت روما - ولكن متأخراً جداً - أن تحذو هذا الحذو. فقد طالب القيصر فريدريك البابا عام ١٥٦٠ أن يسمح لرجال الدين بالزواج حتى تنصلح أحوال الكنيسة. وبدأ بعض حكام الأقاليم فى رفض تولى رجال الدين غير المتزوجين لكنائس مناطقهم لخطرهم على الآداب العامة، وواجهت الكنيسة لذلك مشاكل عديدة وعويصة ولكن هيهات أن يرتدع رجال الدين!! كما أن الكنيسة لم تحاول محاولة جدية لتغيير نظام غزوبة رجال الدين، وفى عام ١٥٦٣ أصدر المجلس الكنسى قراره التالى «من يدعى أن الزواج أفضل من عدم الزواج وأرقى حالاً منه وأن حياةالمتزوج أفضل من حياة الأعزب فهو خارج على تعاليم الكنيسة»

وبدلاً من محاولة التقرب للمصلحين البروتستانت المنادين بزواج رجال الدين قررت الكنيسة أن المذهب البروتستانتى لايحمل أى بذور للإصلاح وأن فكرة زواج رجال الدين فكرة سخيفة، أما الميزة الوحيدة للمجلس الكنسى لعام ١٥٦٣ فكانت إصراره على تعليم وتأهيل رجال الدين. فقد تم انشاء مدارس لهم تعلمهم القراءة والكتابة والحد الأدنى من التعليم الدينى لاخراجهم للعامة بشكل أفضل، ولكن انفصال هذه المدارس عن العامة تماماً وقصرها على تلاميذها «رجال الدين فى المستقبل» أبعدهم

عن مشاكل الناس والواقع الإنساني ، فجاءت قراراتهم بعد ذلك غير متفهمة لحياة العامة ومشاكلهم وأحاسيسهم بالمرة واستمر رجال الدين على هذا الحال حتى القرن السابع عشر وخاصة البابوات منهم ففترة ولاية اينوسنس العاشر عرفت باسم فترة دونا أوليمبيا أرملة أخيه التى كان له بها علاقة غير مشروعة ولم يكن ليخفى ذلك حتى أنه تم صك عملة فى تلك الفترة تحمل على أحد وجهيها صورة دونا أو ليمبيا بزى البابوات وعلى الوجه الآخر صورة البابا بشعر إمرأة !! ولكن ذلك لم يمنعه من الاحتفاظ بعلاقته بها حتى آخر أيامه.

سوء استخدام جلسات الاعتراف

هل أخرج لنا مبدأ عزوبة رجال الدين قساوسة ملتزمين؟ سؤال وجيه لا يمكن التعرف على مغزاه إلا بالتعرف على ما كان يجرى وراء كواليس الكنيسة من مناورات.

فرغم سرية ملفات الكنيسة فإن هناك دراسة مستفيضة للى يلقى فيها الضوء على أحد أركان العزوبة البغيضة وهو مساوئ الإعتراف.

فالمجلس الكنسى الرابع لعام ١٢١٥ أعطى لعزوبة رجال الدين شكلها النهائى وفرض على العامة أن يتوجهوا للاعتراف مرة كل عام على الأقل وأدى ذلك إلى ظهور نوع جديد من الذنوب وهو سوء استغلال رجال الدين لأماكن الاعتراف، ورغم أن الكنيسة وضعت لتلك الذنوب عقوبات عديدة إلا أنه لم يسمع عن أن ذلك أدى الى ردع رجال الدين وزادت مساوئ الاعتراف الى حد أنه تم إعفاء رعايا القساوسة سيئي السمعة من الاعتراف لهم حفاظا عليهم...ومن الملاحظ أن حجرة الاعتراف بشكلها الحالى الذى يفصل بين القس والمعترف هي من اختراع القرن السادس عشر أما قبلها فكان على المعترفين الركوع أمام القس للاعتراف ولم يكن من عادة المُغَرر بهم الإبلاغ عن القساوسة المخطئين ولكن إن حدث كانت عقوبتهم بسيطة للغاية وغير رادعة بالمرة وحتى عندما تدخلت محاكم التفتيش للحد من هذا الفساد كان فى ذهنها صالح الكنيسة وسمعتها أكثر من صالح النساء المغلوبات على أمرهن وقد ظهر ذلك من خلال قراراتها المنحازة للكنيسة.

وعكف رجال الكنيسة على قراءة الدراسات التى تمت فى مجال سوء استخدام

الاعتراف ، ليس لعقاب رجال الدين غير الملتزمين ولكن لايجاد ثغرات قانونية للهروب من عقوباتها، وكان عدم وجود شهود خلال الاعتراف مع رجحان كفة القس أمام المعترف من العوامل التى أمسكت كثيرا من المساء اليهم عن الإبلاغ عن القساوسة المذنبين فى حقهم.

ومن خلال دراسته عن أسبانيا اكتشف لى كذلك أنه من بين ٣٧٧٥ حالة سوء استخدام لحجرة الاعتراف كان هناك ٢٧٩٤ من كبار رجال الدين، فقد كان من مزايا المناصب الكنسية الكبيرة القدرة على إغواء أكبر عدد من النساء وسمحت الحالة المادية الجيدة لرجال الدين بشراء صمت أكبر عدد من النساء وبذلك ساهم وضعهم المادى الجيد فى انتشار تلك الرذيلة كما أن كتمان تلك الفضائح أدى الى اعتقاد كل ضحية أنها حالة فريدة من نوعها ولذا عليها التزام الصمت. وتعددت أنواع ضحايا الاعتراف فكان منها الراهبات والنساء والغلمان، وإن دل ذلك على شيء فانما يدل على استشراء جميع أنواع الفساد فى الكنيسة.

ورغم ذلك فنحن لانعنى أن جميع القساوسة الكاثوليك كانوا أشراراً بل إن الخطأ الأكبر نبع من النظام الذى عاشوا فى ظله عيشة غير طبيعية أدت الى إفسادهم وانهم لم يكونوا فاسدين بطبيعتهم ونتفق مع لى فى قوله : « حرمت الكنيسة الزواج على رجالها ثم شغلت نفسها بمشكلة إحتواء شطحاتهم بسبب هذا التحريم. أما كان أجدى لها أن تحل لهم الزواج وتنتهى من مشاكلها ؟»

عزوبة رجال الدين والفساد فى الكنيسة

يثور دائماً التساؤل عن تدنى وضع المرأة فى الكنيسة الكاثوليكية والإجابة هى عزوبة رجال الدين . فهذه العزوبة جعلت المرأة شيئاً يجب الهروب منه وسبب العديد من الذنوب كما أن مثالية وضع العذراء مريم ساهم الى حد كبير فى تكريس هذا الاعتقاد حيث أن العذراء لم يكن لها علاقة بالجنس ثم تلاها فى المرتبة المرأة التى تلد وتنجب أطفالاً دون تمتع بالعلاقة الزوجية تليها تلك التى تنجب أطفالاً من جراء المعاشرة الزوجية وأخيراً تلك التى لاتنجب وتتمتع بالمعاشرة الزوجية.

وكانت تلك الفئة الأخيرة تساوى العاهرات، واليوم تغيرت النظرة بالنسبة لتلك

الفئة الأخيرة على شرط أن تلتزم بوسيلة منع الحمل التى أقرتها الكنيسة ورغم أن العلاقة لها طرفان متساويان إلا أن التحقير.كان من نصيب النساء فى حين ظل الرجال على احترامهم وتقديس العامة لهم.

ومن دلائل الظلم الذى تعرضت له النساء وصفهن بالسحر والساحرات إبان عهد محاكم التفتيش وقلة عدد الرجال المتهمين بالشعوذة والسحر وفى ذلك دلالة على الظلم الذى كن يتعرضن له، وكما أن التربية العامة التى كانت توجه الناس ضد اليهود كانت توجههم أيضا ضد النساء وتقليل شأنهم.

واذا كان رجال الدين قديماً يخرجون كبتهم الجنسى فى هيئة مطاردة النساء والصاق التهم بهم فما مظاهر هذا العداء اليوم؟

يظهر عداء المرأة اليوم فى صورة عدم تقبل رجال الدين للنساء فى المناصب الدينية وتبريرهم لذلك أن الرب كان مذكراً وأن المسيح كان رجلاً وحتى أشرف وأقدس النساء مريم لم يكن لها فى يوم من الأيام منصب دينى وقد إختار المسيح رجالاً فقط ليكونوا حوارييه ورهبانه ونحن ندعى أن السبب وراء عدم الموافقة على شغل النساء للمناصب الدينية ليس دينياً وإنما هو أنانية الرجال فى محاولة للحفاظ على خطأ ارتكبوه، وهو إقرار مبدأ عزوبة رجال الدين. وإبعاد النساء من الصورة من العوامل التى تساعد على ذلك.

وهكذا تثبت الكنيسة مرة أخرى تأخرها عن العالم المتمدين بحوالى نصف قرن أو أكثر، والحق أن المناصب الدينية اليوم تحتاج لحكمة النساء وذلك لأنهن أبعد عن العنف وأساليبه من الرجال وتفهمهن لمشاكل الشباب والعجائز أكثر هو ما تحتاجه الكنيسة اليوم. وعموماً فإن أى نظام أيا كان إن عرّض فئة معينة لظلم مستديم يجب أن يصف نفسه بالخطأ وعدم الحكمة . وليس هناك أى أمل فى تغيير قريب والبابا يوحنا بولس الثانى أوضح بجلاء رفضه لفكرة النساء فى المناصب الدينية وفكره مبنى على أساس أن الرجال أدرى بمصلحة النساء منهن وهذا يفسر لنا سر ترك جماعات من الراهبات لأديرتهن ففى عام ١٩٧٦ كان عدد الراهبات أقل منهن عام ١٩٦٠ بـ ٣٩٥٠٠ راهبة فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ولم يكن تركهن الأديرة

بسبب عزوفهن عن خدمة الرب بل بسبب عدم احتمالهن لإساءات زملائهن رجال الدين الذين يرسمون لهن أدق تفاصيل حياتهن اليومية. وكان تحريم استخدام وسائل منع الحمل من الأسباب التي أدت إلى زيادة ولادات الملتزمات بقرار الكنيسة وبذلك تضاءل دور النساء الاجتماعي ومساهمتهن في مجتمعاتهن مما أعطى انطباعاً بتبعية المرأة للرجل وهو انطباع أبرزه رجال الدين وقووه بدلاً من تصحيحه. وحتى اليوم عندما سمح للنساء بعدم الإنجاب مع استمرار المعاشرة الزوجية . اختار رجال الدين طريقة كناوس –اوجينو لمنع الحمل التي تعد أصعب الأساليب تطبيقاً وأضعفهن نتيجة.

العزوبة اليوم

عندما يقرر شخص ما أن يعيش عازباً لخدمة كنيسته ومجتمعه فهو يحلق نحو هدف سام يخدم به نفسه في الآخرة وغيره في الدنيا، ولكن إن تم فرض هذه العزوبة كنظام حياة لجميع رجال الدين هنا تقع الكارثة لأن التضحية هنا لاتكون تطوعية فتصبح حرماناً بدلاً من كونها تضحية والأسوأ أن الكنيسة تفرض العزوبة بمعنى عدم الزواج وتغمض عينيها عن العلاقات غير الشرعية خارج إطار الزواج علاوة على أن القس الذى ينشغل بمشاكله الخاصة لايبقى له جهد ولاوقت لمشاكل الآخرين وهى مهمة القس الأولى والأساسية، وهذه الطاقة التى حباه بها الله وعطلتها الكنيسة عندما لاتوجه فى اتجاهها الصحيح تصبح خطراً على الشخص نفسه وعلى الآخرين. والعامة تؤيد زواج رجال الدين لأنها تعلم أن رجل الدين اذا لم تكن له زوجة سينحرف وينال زوجات الآخرين. وقساوسة اليوم يعانون أكثر من الماضى لأن طابع هذا العصر هو الحرية التى تتيح وتسهل للإنسان أى ممارسات يرغبها تحت شعار الحرية الشخصية مما يجعل المقاومة أصعب من ذى قبل والخطأ الأساسى يكمن فى ربط الوظائف الدينية بعدم الزواج مع أنه لاعلاقة بينهما على أن العزوبة أفضل من الزواج وأرفع درجة كما أن منطق العزوبة للتفرغ لخدمة الرب أصبح ضعيفا لأن المنطق الصحيح يقول إن الزواج غالباً يدفعك للأمام فى عملك أيا كان ولايشغلك عنه خاصة اذا كانت الزوجة تؤمن بعمل زوجها ورسالته. كما أن ربط الاثنين معاً جعل معظم الداخلين فى سلك الكنيسة من الراغبين فى الرسالة وليس العزوبة فالتزموا بما اقتنعوا به ولم يلتزموا بما لم يقتنعوا به. وإصرار الكنيسة على عزوبة رجال الدين جعل مناطق كثيرة

دون رجال دين يقومون بمهامهم فيها فكأن الكنيسة تقول أنه من الأفضل ألا يتزوج رجل الدين ولايقوم بواجباته ويترك رعيته دون تعهد أو رعاية على أن يتزوج مع المحافظة على حقوقه وحقوق الآخرين.

وعلى ذلك فطلب كثير من رجال الدين لترك الخدمة علامة صحية وليست هدامة وتأخير إجابة طلباتهم إلى أجل غير مسمى قد يحدث أضراراً لا يعلم مداها إلا الله . اما النتيجة الكبرى فهى إنفصال الكنيسة عن واقع الرعية ومشاكلهم الأساسية التى تختص بالطلاق ووسائل تنظيم الأسرة والإجهاض ولكنها بعيدة تماماً عن رجل الدين مما جعلهم فى واد والعامة فى وادٍ آخر إما لايسمعون لهم أو يسمعون ثم لايقتنعون وتفقد الكنيسة رعايا جدد كل يوم.وأخيراً نقول : العلم يؤدى دائماً الى الحكمة أما الجهل فلا يؤدى الى الحكمة أبداً !!


خاتمة

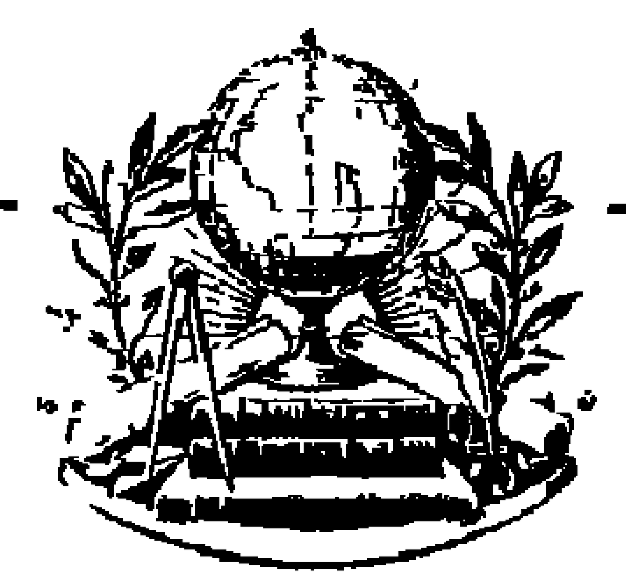
تم فتح الملفات وكشف المستور وإظهار الحقائق وعلى القارئ أن يقرر الردئ منها والصحيح . والواقع يقول إن الكنيسة عاشت تحمل كل تلك الأوزار نحو ما يزيد على ألفى عام وها هى اليوم أقوى شأناً وأكثر احتراماً ولا زال بابا الفاتيكان أكثر تأثيراً على المسيحيين من أى رئيس أو ملك وعلى ذلك ففرص استمرارها للأزمان القادمة يفوق فرص أى مؤسسة أخرى قائمة اليوم .

لقد وسّع البابا يوحنا الثالث والعشرين مفهوم الكنيسة ، لينضوى تحت لوائها كل ذى قلب نقى ونفس شفافة قانعة راضية مؤمنة بالله وأثبت بذلك فهمه الصحيح للإنجيل . ومن دلائل ديمقراطيته أنه صاحب القول «إن الكنيسة تحتاج لتغيير مستمر ليواكب الحياة المتغيرة ، أوطرافها العديدة» . وبذلك فتح قلبه وعقله وعقل الكنيسة وقلبها فى عهده للرأى الآخر ولم يدعِ أنه معصوم من الخطأ كغيره من البابوات الذين أخطأوا فى حق الكنيسة بعدم اعترافهم بالمذاهب المسيحية الأخرى ، كالمذهب الإنجليكانى ـ البروتستانتى ـ الذى تعرض لاضطهاد شديد من الكنيسة الكاثوليكية .

واتفاق الكنيسة الكاثوليكية مع تلك المذاهب على أفكار موحدة هو الذى سيؤدى إلى توسيع نطاق الكنيسة كما كان فى عهد يوحنا الثالث والعشرين والذى كان يمتلك الروح المسيحية الحقيقية وذلك لأن هذا الدين هو الدين المسيحى وليس الكاثوليكى فحسب . وللوصول إلى تلك النتيجة تحتاج الكنيسة إلى بابا يوحنا ثالث وعشرين آخر أما إن اعتقدت المذاهب المختلفة وخاصة الكنيسة الأم أن اختلافها وانفصالها أبدى فسيرتكبون بذلك خطأهم الأكبر الأبدى ....!!

بيتر دى روزا

صدر عن



الدار المصرية للنشر والتوزيع
al dar al-masria publishing & distribution.

١-	من فيض الرحمن فى معجزة القرآن		الشيخ محمد متولى الشعراوى
٢-	من قتل السادات؟	(طبعة رابعة)	أ. حسنى أبو اليزيد
٣-	أسرار محاكمة قتلة السادات	(طبعة ثانية)	أ. حسنى أبو اليزيد
٤-	كنت جاسوسا فى إسرائيل رأفت الهجان	(خارج مصر)	أ. صالح مرسى
٥-	يا سليمان السلام	(طبعة ثالثة)	أ. حسنى أبو اليزيد
٦-	مارادونا	(طبعة ثالثة)	أ. نادر شريف
٧-	الحفار (خارج مصر)	(طبعة ثالثة)	أ. صالح مرسى
٨-	اعترافات چيهان السادات	(طبعة خامسة)	أ. حسنى أبو اليزيد
٩-	رفيق السفر للأجانب والعرب	(طبعة رابعة)	د. محمود بهنسى
١٠-	مذكرات الشيخ كشك	(خارج مصر)	الشيخ عبد الحميد كشك
١١-	كيف تتغلب على التوتر	(كتاب + كاسيت)	د. خليل فاضل
١٢-	كنت هناك (أحداث عدن)	(طبعة ثالثة)	ديفيد جارودى
١٣-	الوجه الآخر لرأفت الهجان	(طبعة أولى)	أ. حسنى أبو اليزيد
١٤-	الوجه الحقيقى لرأفت الهجان	(طبعة ثانية)	أ. حسنى أبو اليزيد
١٥-	السحر بين الحقيقة والوهم		د. عبدالسلام السكرى

١٦-	فتاوى الشيخ كشك (ثمانية أجزاء)	(خارج مصر)	الشيخ عبد الحميد كشك
١٧-	هذا هو الإسلام	(خارج مصر)	الشيخ الشعراوى
١٨-	كيف تتوقف عن التدخين	(كتاب + كاسيت)	د. خليل فاضل
١٩-	نقل وزراعة الأعضاء الآدمية		د. عبدالسلام السكرى
٢٠-	الطب والجنس		د. مدحت عزيز شوقى
٢١-	الحب طفلنا الضال		أ. عائشة أبو النور
٢٢-	كيف تقوى ذاكرتك وتنجح فى الاختبار	(كتاب+كاسيت)	د. خليل فاضل
٢٣-	ختان الذكر وخفاض الأنثى.		د. عبدالسلام السكرى
٢٤-	عرافة فى البيت الأبيض		دونالد ريجان د. محمود بهنسى
٢٥-	تسلية أهل المصائب		الإمام عبدالله الحنبلى تحقيق د. محمود نمر
٢٦-	الكبائر		الذهبى
٢٧-	الطريق إلى نوبل عبر حارة نجيب محفوظ	(خارج مصر)	معتز شكرى د. محمد يحيى
٢٨-	آيات قرآنية نزلت فى نساء صالحات		د. فيصل أبو رحمة
٢٩-	الطب النبوى		ابن القيم الجوزية
٣٠-	مذكرات نانسى ريجان		نانسى ريجان د. محمود بهنسى

٤٧- المافيا قتلت الرئيس كينيدى .... ديفيد آى شايم

ترجمة محمود بهنسى

٤٨- ديانا .. ملكة الأميرات .... أنجريد سيوارد

ترجمة حسن صبرى

٤٩- التربية الجنسية فى الإسلام .... أ. عبد الرحمن الجزائرى

٥٠- الجاسوسية ورجال الأعمال .... د. محسن الخضيرى

٥١- أعظم حوار ديمقراطى فى التاريخ .... د. عبد السلام السكرى

(عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد)

٥٢- المناظرة بين د. فرج فوده والشيخ الغزالى (طبعة ثانية)

مصر بين الدولة الدينية والمدنية .... مناظرة معرض الكتاب

٥٣- من قتل السادات؟ .... (طبعة خامسة) .... أ. حسنى أبو اليزيد

٥٤- هيكل وأوهامه عن القوة والنصر .... أ. حنفى المحلاوى

٥٥- حدودكم يا عرب .... أ. مجدى شندى

٥٦- ألعاب الحرب .... أ. توماس ألين

ترجمة إلهام عثمان - تقديم رائد عطار

٥٧- العائدون من أفغانستان مالهم .. وماعليهم .... أ. عصام دراز

٥٨- المواجهة بين الإسلام والغرب .... د. محمد مورو

٥٩- الدروز فى إسرائيل .... المستشار محفوظ عبد العال

٦٠- مغامرة إمبراطور الموساد .... أ. مجدى شندى

٦١-	أمراض الحياة الزوجـــية		د . سامي محمود
٦٢-	طفلك له ٢٠٠ مشكلة (الحلول المثلى)		د . سامي محمود
٦٣-	كيف تنقص وزنك على أحدث نظرية		مايكل مونتجنال
٦٤-	اعترافات جيهان السادات	(طبعة سادسة)	أ. حسنى أبو اليزيد
٦٥-	لا للشيخوخة المبكرة		د. سامى محمود
٦٦-	السلطة والجنس		د. سامى محمود
٦٧-	الطب والجنس	(طبعة ثانية)	د. مدحت عزيز شوقى
٦٨-	سيكولوجية الجنس	(طبعة ثانية)	د. مدحت عزيز شوقى
٦٩-	رفيق السفر للأجانب والعرب	(طبعة سادسة)	د. محمود بهنسى
٧٠-	من فيض الرحمن فى معجزة القرآن	(طبعة خامسة)	الشيخ محمد متولى الشعراوى
٧١-	بركة الصلاة على النبى		أبو ابراهيم عزت محمد
٧٢-	نهاية العالم كيف ومتى؟		الشيخ محمد متولى الشعراوى
٧٣-	النصائح الذهبية لربة البيت المثالية		أ. إلهام أبو غزالة
٧٤-	الحركة الإسلامية في مصر		د. محمد مورو
٧٥-	كيف تقرأ أفكار الآخرين		د. سامى على
٧٦-	الرفيق فى قواعد اللغة الإنجليزية والمحادثة		د. فخرى أبو علم
٧٧-	نصائح ديانا للشعر		الأميرة ديانا (ترجمة إلهام يوسف)
٧٨-	الطريق إلى هوليود... اعترافات عمر الشريف		عمر الشريف
٧٩-	النوم مفتاح جمالك		د. سامى محمود

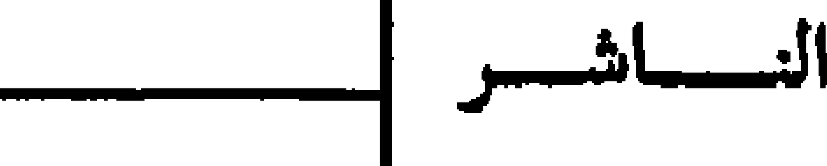
الفهرس　　　　الصفحة

الفهرس

الصفحة

الفهرس   الصفحة

رقم الايداع
١٩٩٤ / ٩٥٥٩
I.S.B.N / 977/ 5376 / 29 / 7



الناشر



الدار المصرية للنشر والتوزيع

Al dar al - masria publishing & distribution house ltd
Acropolis , P .O . Box 8559 - Fax (003572) 312983
Nicosia - Cyprus

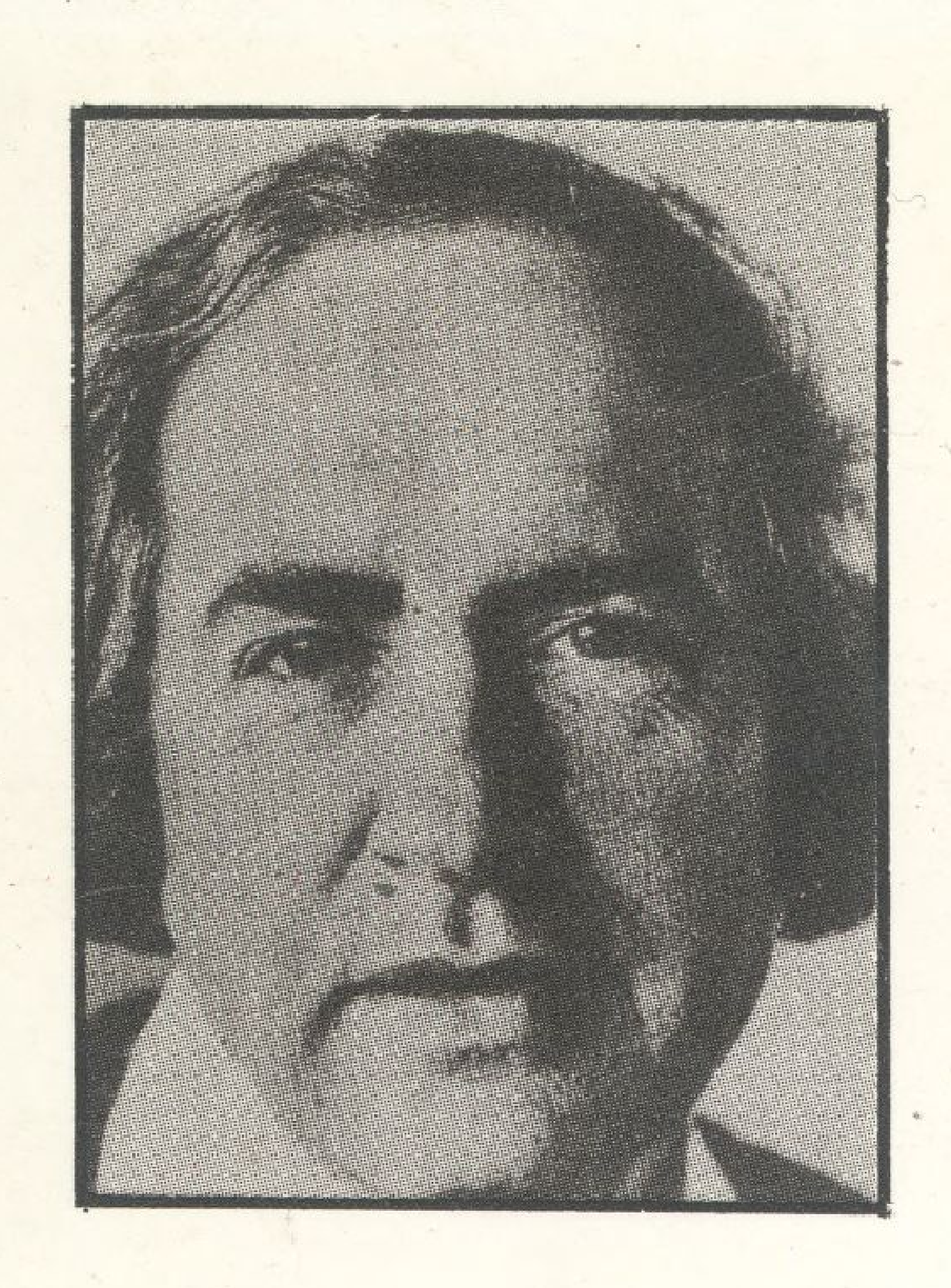
الوكيل فى مصر
الدار المصرية للنشر والإعلام
ص . ب ١٢٩ هيليوبوليس القاهرة
ت وفاكس ٢٦١٥٧٤٤ (٢٠٢)
ت : ٤٠١٩١٤٧ (٢٠٢)

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

Peter de Rosa

GOTTES ERSTE DIENER

Die dunkle Seite des Papsttums



القس اللاهوتي

دي روزا

التاريخ الأسود للكنيسة

ترجمة حرفية من الألمانية لكتاب:

« خدام الرب الأوائل »

الصفحة المظلمة للبابوية

تخلى القس بيتر دى روزا عن مهمته القسيسية وتزوج وأصدر كتابه هذا معتمدا على مصادره الانجليزية خلال ٣٠ عاما من عمره وأوصلته قناعاته الى التساؤل عن المركز البابوى المعاصر وأن التاريخ البابوى يعج بسوء استخدام السلطة والوشايات وأعمال العنف السادية والجوع الجنسى.

الناشر ،،،

الدار المصرية للنشر والتوزيع

Al dar al - masria publishing & distribution house ltd

مطابع الأهرام التجارية - قليوب